

قصص مختارة
من
الأدب
اليوناني الحديث

ترجمها عن اليونانية وقدم لها : نعيم عطية

أهــدأء2004

الهئئة العامة لشئون المطابع الأميرية
القاهرة

المشروع القومي للترجمة

قصص مختارة من الأدب اليوناني الحديث

ترجمها عن اليونانية وقدم لها : نعيم عطية



المشروع القومي للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٥٤٢

- قصص مختارة من الأدب اليوناني الحديث

- نعيم عطية

- الطبعة الأولى ٢٠٠٤

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 Fax : 7358084.

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

المحتويات

7 مقدمة
7 (أ) القصة اليونانية الحديثة منذ الحرب العالمية الأولى
20 (ب) الأدب اليوناني ليس التراث الإغريقي فحسب
25 (ج) القصة اليونانية الحديثة في مصر
33 الحقد في قلب كاميناس « ذيموستينيس فوتيراس »
39 أغاريد « غريغوريس كسينو بولوس »
51 الخادمان « نيقوس نيقولائيدس »
67 الكلب الغريب « نيقوس نيقولائيدس »
87 ولاية فرجينيا «إيليا فينيزيس»
95 طائر مقتول «إيليا فينيزيس»
103 أحلام اللغد «إيليا فينيزيس»
111 أليكسي سائق العرب « ذيونيسيوس كوكينوس »
137 صداقة « ليليك ناكو »
151 ظلم صارخ يجرى «نيقوس كازندزاكي»
159 معجزة لقاء الإنسان للإنسان « تاتيانا ستافرو »
171 جارتان « ماريا روسيا »

183	الكسلان « يانيس مانجليس »
199	العودة إلى الميدان الصغير « بيتروس خريس »
209	النورس « إيليا فينيزى »
223	المغنى « يوانيس بانايوتوبولوس »
229	صورة فتاة « يوانيس بانايوتوبولوس »
239	البحر « ألكيفياديس يانوبولوس »
249	تسوية ودية « ديمترى سياتوبولوس »
259	جزيرة يونانية « غالاتيا ساراندى »
279	حلم فتاة « كوستاس خادزبولوس »
287	أنوار فى أغوار المحيط « بيتروس خريس »
297	عندما يهبط الليل « بيتروس خريس »
313	رسالة من غريق « فاسيلى روتاس »
321	امراة على الهامش « صوفيا مافرويدى بابازاكي »
329	بستان البرتقال « فليبو بيريدى »
335	المرأة ذات العينين البريئتين « ميخائيل كانيليس »
363	الحمامة والقصد « إيفانجيلوس أفيروف - توسيتسا »
371	الأحزان « إيمانويل ليكوديس »
379	دروب وعرة « ستراتيس تسيركاس »
391	الفيل « كوستاس فاليتاس »
397	الزائر « كوستاس فاليتاس »
405	على ضفاف النيل « كيتى بابازاكي - كاراميتسا »
409	الصبار « كيتى بابازاكي - كاراميتسا »
411	الرجل الذى أراد أن يعود طفلا « أندونى ساماراكي »

مقدمة

يعتبر هذا الكتاب أول كتاب من نوعه فى المكتبة العربية ، فقد ضم بين دفتيه عدداً وفيراً من قصص الأدب اليونانى الحديث ، ترجمناها إلى العربية من اللغة الأصلية التى كتبت بها ، وهى اللغة اليونانية .

ولاشك أن ترجمة الأدب وسيلة ناجعة فى تعريف الشعوب بعضها ببعض ، وفى توطيد أواصر الصداقة والمحبة بينها ، ومن خلال أعمال عدد من القصاصين هم من أبرز أدباء اليونان الحديثة يمكن للقارئ العربى أن يتنسم نسمة من الهواء الطلق تسرى إليه عبر البحر الأبيض المتوسط من بلد له ماضيه التليد فى الفن والأدب ، ويشق طريقه قُدماً لى يتبوأ مكانته اللائقة فى طليعة البلاد ذات النهضة الأدبية ، فيصل بعض أبنائه إلى الحصول على أكبر الجوائز الأدبية فى العالم ، كما سنرى .

القصة اليونانية الحديثة منذ الحرب العالمية الأولى :

ولقد كان للحربين العالميتين آثارهما على الحياة اليونانية . وقد كان لذلك انعكاسه الجلى على الأدب اليونانى الحديث ، فقد سعت التيارات

الأدبية فى اليونان - على الأخص فى مجال القصة والرواية - إلى الاستفادة من التجارب المعاصرة ، سواء فى الشكل أو المضمون .

فقدم كتاب اليونان إنتاجهم القومى فى قالب عبرى ، وتخلصوا من الحذلقات والزخارف اللفظية ، مقربين لغتهم الأدبية من لغة كل يوم .

وقد أخذت شخصية الأديب اليونانى تتضح ، فقد طوع أسلوبه بحيث لم يعد يكتفى بأن يقدم لقرائه لوحات «موضوعية» فحسب بل استخدم لغته للتعبير عن آرائه «الذاتية» من خلال اختيار موضوعاته ، وتفسيراته للمواقف والأبطال .

ولقد صاحب ازدهار الأدب اليونانى الحديث فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ظهور مجلات أدبية أسهمت بدورها فى إثراء الحياة الأدبية فى اليونان . ففي عام ١٩٢٧ صدرت مجلة «كتابات حرة» وفى عام ١٩٢٨ مجلة «الوطن الجديد» التى أسسها ورأس تحريرها جريجوريس كسينوبولوس ثم بيتروس خاريس وفى عام ١٩٢٩ صدرت «المجلة الجديدة» ثم أعقبها «الطليعة» فى عام ١٩٣٠ ، ثم «الطليعيون» عام ١٩٣٣ ، و «الخطوات» و «الفكر» عام ١٩٣٦ و «الكتابات اليونانية الجديدة» عام ١٩٣٧ . كما صدرت مجلات إقليمية ، فى ثيسالونيك عام ١٩٢٦ ، وكريت عام ١٩٢٧ ، وقبرص عام ١٩٣٦ . وتوالى المجلات الأدبية اليونانية بعد ذلك . بل وصدرت مجلات أدبية فى خارج اليونان مثل المجلات التى صدرت فى الإسكندرية وفى مقدمتها «الحياة الجديدة» و «الأداب» و «سرايوم» وقد ظهرت على صفحات هذه المجلات كتابات

كثير من أدباء اليونان اليوم مثل نيقوس كازاندزاكيس وكوستاس فارناليس وجورج سيفيريس .

ولقد سببت أحداث الحرب قيام «أدب المعركة» في اليونان وقد تميز بصفة عامة بأنه ليس سرداً تسجيلياً للأحداث بقدر ما هو تعبير عن الوسط الذى ألقى فيه بالشخصيات ، والذى يشكلهم ويبدلهم حسب ضغوطه وضروراته ، وعن الوجدان الداخلى متمثلاً فى إدراك الكائن الإنسانى لوضعه الجديد ، والمشاعر التى تستيقظ فى أعماقه .

وفى مقدمة الأعمال التى ولّدها «أدب المعركة» «الحياة فى القبر» وهى ذكريات محارب يتجاوز فيها التحليق الخيالى والنظرة الفاحصة . وكان من الطبيعى أن تنضح هذه الصفحات التى كتبها ستراتيس ميريفيليس عام ١٩٢٤ بالهول ، ووحشية الإنسان وضراوة الحرب ، وأحاسيس التضامن الأخوى إزاء الخطر الجماعى . أما فى «الدفتر رقم ٣١-٣٢٨» فنجد إيلياس فينيزيس يركز على مأساة الحرب من خلال التغلغل فى نفسيات الأبطال ، مع التقليل من النزعة العاطفية التى نجدها عند ميريفيليس والاهتمام المتزايد بالدراما الداخلية ، وإعلاء أكبر للإرادة على الحتمية .

وقد كان من شأن «رواية الحرب» توجيه ضربة قاصمة إلى فكرة «الأدب المحلى» فإن المعاناة الكبيرة إزاء أهوال الحرب تجلو النفس البشرية ، وتخلصها من الانشغالات المحلية .

وإذا كان «الوسط» الذى تحرك فيه «كُتَّاب الحرب» أكثر ضراوة وخشونة ، إلا أنهم بدأوا أيضاً يعولون كثيراً على عامل الإرادة فى دفع الوسط الاجتماعى . ومن ثم أصبح الصراع بين الإرادة وإطارها أكثر ديناميكية .

أما خارج «نتاج الحرب» فقد بدأ التجديد على الأسلوب القصصى وأصبح الكتاب ينزعون إلى عرض الكائن الإنسانى فى خضم الحركة ، ومن خلال تعدد الأوساط التى يتنقل بينها وتتوَع الأحداث التى يمر بها ، مما ينبئ عن تعقد روحه وتشابك حياته . وبذلك أخذت الكتابات القصصية تكتسى بطابع أكثر ديناميكية ، مما أوصل الفن القصصى إلى ضروب مختلفة. فظهرت إلى جانب «القصة الاجتماعية» «القصة السيكولوجية» و« القصة الخيالية » و«القصة الفلسفية».

وبعد أن كانت القصة قبل الحرب العالمية الأولى تكتفى بتسجيل العادات والتقاليد المحلية أيضاً ، تعددت مناحى القصة ومشاربها واهتماماتها. على أن تصنيف الكتاب تبعاً لذلك التصنيف الذى عرضناه للقصة ليس بالأمر السهل ، لأن الكتاب تنقلوا بين أنواع القصة جميعها فليس هناك مؤلف تخصص فى «القصة الخيالية» وآخر فى «القصة السيكولوجية» وآخر فى «القصة الاجتماعية» وآخر فى «القصة الفلسفية» بل إننا نجد فى القصة الواحدة أو المجموعة القصصية الواحدة أكثر من منحى جنباً إلى جنب. ولنضرب مثلاً على ذلك بكتابات القصاص ديموستنيس فوتيراس (الذى ينتمى أيضاً إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى) فإننا نجد النقد الاجتماعى يمتزج بالخيال. ولقد كان

لهذا الكاتب تأثيره على جيل لاحق من الكتاب عرفوا «بكتاب القصة الشعبية» وتتصف أعمالهم بالبساطة المتناهية في السرد، وباختيار شخصياتهم من ضحايا مجتمع مريض. وقد انجذب هذا الجيل من القصاصين على الأخص إلى «النزعة الواقعية» فترجموا في أعمالهم التشاؤم المخيم نتيجة إحباطات مابعد الحرب وانعكاساتها على الأوساط الدنيا والفقيرة. ونذكر على سبيل المثال في هذا المقام «سيمفونية الخريف» لأنجلو ترساميس عام ١٩٢٩ و«أولئك الذين بقوا» لتاتيانا ستافرو عام ١٩٣٣ .

أما «النزعة الخيالية» فقد ارتبطت بكتابات استقيت من التاريخ والأساطير على الأخص. ونجد فوتيس كوندوغلو ، اهتداءً بالجانب الخيالي لدى الرائد فوتيراس ، يدخلنا في مغامرات يلعب فيها الزمن بالنفس البشرية. ونشير في هذا المقام إلى «الأميرة يزابو» لترزاكيس عام ١٩٤٥ و«نهاية ميخالوس» لكاراتسيس عام ١٩٤٩ .

أما «النزعة الفلسفية» فقد تميزت بطابعها الشعري، ونجد نموذجاً طيباً لها في «الليلة الأخيرة على الأرض» لبييتروس خاريس عام ١٩٢٤ .

على أن القصص الفلسفية والخيالية والسيكولوجية لم تخل من العناصر الاجتماعية. كل ما هنالك أن النزعة الاجتماعية تبدوا أكثر وضوحاً عند فريق آخر من الكتاب ملك الانشغال بأوضاع الطبقة العاملة وكفاحها كل اهتمامها. وفي مقدمة هؤلاء الكتاب زيونيسيوس كوكينوس والسيدة إيلي إليكسيوفى مجموعتها «معارك خشنة من أجل حياة

صغيرة» عام ١٩٣١ ويانيس سفاكياناكس فى مجموعته القصصية
الصادرة عام ١٩٣٣ .

وقد بدأت القصة اليونانية الحديثة تتجه نحو الأدب الاجتماعى ..
وقد كان فى طليعة القصاصين الذين نزعوا إلى ذلك ثيوتوكيس صاحب
«الشرف والمال» عام ١٩٢٠ وباروريتيس صاحب مجموعة قصصية
صدرت عام ١٩٢١ بعنوان «الأب» كما أنتج كسينوبولوس - الذى ترجع
سمعته الأدبية إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى - قدراً ضخماً من
الأعمال ذات النزعة الاجتماعية مثل «الأغنياء والفقراء» و«شرفاء وغير
شرفاء» و«محظوظون وغير محظوظين» عام ١٩٢٦ كما قدم فوتيراس
منذ عام ١٩٢١ كثيراً من أعماله القصصية مثل «نور وظلام» و«الحى
الأرستقراطى» و«الباب الحديدى» و«حضارات باطلة» .

ولقد أصبحت النزعة الاجتماعية (التي كانت بادية أيضاً عند
جريدوريس كسينوبولوس من قبل) ثورية وحافلة بالمطالب والدعوات
الإصلاحية. والواقع أن المشكلات الاجتماعية وإن كانت تشغل مقاماً
كبيراً فى القصة اليونانية الحديثة إلا أنه يمكننا أن نقول إن القصة
الاجتماعية سارت فى مسارين : الأول عنى بدراسة البيئات الاجتماعية ،
وقد ذاعت هنا الأفكار الاجتماعية والمذاهب الإصلاحية ، الثانى عنى
بتقصى انعكاس الصراع الاقتصادى على النفس البشرية. وقد جمعت
بين هذين المسارين النزعة الانتقادية إن لم يكن التمرد الصريح
أو الضمنى على الأوضاع القائمة فمصير الفرد فى مفهوم القصة
الاجتماعية اليونانية يتوقف على إدراك متناقضات الوضع الاجتماعى ،
والجهد المبذول لتعديله وتصحيحه .

ومن الأفكار الاجتماعية فى القصة اليونانية الحديثة «فكرة تحرير المرأة» وقد تجلت هذه الفكرة على الأخص فى قصص السيدة غالاتيه كازندزاكيس ، و«فكرة حماية الطفولة» وقد بدت فى قصص السيدة ليليكاناكو. وقد ولدت هذه الأدبية الكبيرة فى أثينا عام ١٩٠٥ ودرست الموسيقى فى سويسرا واشتغلت بالصحافة. وكتبت مجموعات قصصية عديدة ، بعضها بالفرنسية نشرت فى أمهات المجلات الأدبية فى فرنسا ، وبعضها باليونانية ، منها «الذين ضلوا الطريق» و«عذراء فقدت عذريتها» وقد قدم لمجموعتها القصصية الأولى الكاتب الفرنسى الكبير رومين رولان. وتعتبر ليليكاناكو من أنضج المواهب القصصية فى الحياة الأدبية اليونانية .

وتشتد مرارة النقد الاجتماعى عند كتاب مثل ذاسكالاكيس الذى يصور المأساة فى حياة العمال ، وعند كوكينوس وبيكروس. على أنه إذا كان التمرد أو النقد الاجتماعى هو قوام القصة الاجتماعية فثمة اهتمام يواكب التمرد أو النقد هو التثقيف الشعبى أو التوعية ويتجلى ذلك على الأخص عند ليفكوباريديس فى كتابه «آفاق» عام ١٩٣٠ .

على أن ثمة كتاباً آخرين جديرين بالاعتبار أيضاً. وقد ساهموا بكتاباتهم فى مجال «القصة السيكولوجية أو النفسية». ويجدر بنا أن نشير فى هذا المقام إلى أن استقصاء المظاهر المختلفة للحرب النفسية فى القصة السيكولوجية إنما ينبع من بداية تخالف تلك التى تبدأ منها القصة الاجتماعية . فإذا كانت هذه الأخيرة تقوم على فكرة خضوع الإنسان للعوامل الاجتماعية ، وتوقف تجديد طاقاته على تجديد طاقات

المجتمع ، مما يحقق فى القصص الاجتماعية نوعاً من الوحدة ، فإنه يصعب أن يجمع بين كتاب القصة النفسية تصور مبسط ومتناسك للإنسان ، بل هم ينزعون إلى اختبار تعقد المتناقضات وتشابك الصراعات ، سواء بين الفرد والوسط المحيط به ، أو فى أعماق الفرد ذاته ، وهو ما ينبع عنه تنوع كبير فى المعالجة القصصية .

وإحدى النزعات فى هذا المقام تتمثل فى دراسة الإنسان الذى لا يستطيع أن يتأقلم مع الأوضاع الجديدة التى يملها الوسط الاجتماعى وتبدو هذه النزعة بجلاء لدى نيقوس نيقولايدس فى عمل بعنوان «المشاكس» عام ١٩٢٢ وفى قصة «سجين» لدوكاس عام ١٩٢٩ وفى «الجنور الأولى» عام ١٩٢٦ لتاتيانا ستافرو. وهى تدرس هنا الصعاب التى يلاقيها اللاجئين اليونانيون النازحون من آسيا الصغرى للتأقلم مع الوسط اليونانى الذى نقلوا إليه فجأة .

وقد ولدت الأدبية الكبيرة تاتيانا ستافرو فى (فافيوخورى) ، وهى إحدى قرى البوسفور (الأناضول) وكان والدها من رجال التعليم وعاشت فى أحضان أسرة مثقفة. وسرعان ما أقبلت على اللغة العامية بشغف لم تلقاه منها اللغة الفصحى. وقد جاءت تاتيانا ستافرو إلى اليونان فى ديسمبر ١٩٢٤ ضمن اللاجئين ، هى وزوجها ، وبعد عشر سنوات اعتزمت أن تكتب عن معاناة الذين أصابتهم ويلات الحروب دون أن يحاربوا ، مستمدة مادة كتاباتها من حياة اللاجئين التى خبرتها جيداً. وصدر كتابها هذا بعنوان «أولئك الذين بقوا» وسرعان ما لفتت روايتها الأنظار، وتبوأ المكانة اللائقة بها فى الحياة الأدبية اليونانية.

وعندما نشرت كتابها «الجنور الأولى» عام ١٩٣٦ سجلت اسمها في عداد كبار كتاب القصة اليونانية الحديثة . فصفحات هذا الكتاب قد توافرت لها طلاوة الملاحظة ، وغزارة المادة ومعمارية البناء ، ودقة الصنعة . ليس عندها أبطال وبطلات ، بل هناك بشر تربط بينهم اضطرابات الحياة وقلقلها فحسب . وفي عام ١٩٤٧ أصدرت كتابها «الينابيع الخفية» وهي صفحات من سيكولوجية الحب ، كتبت بخفر وحس نسائي مرهف ، قصص قصيرة تخلط بين الحدث والنغمة الشعرية ، ويفوح منها شذى عطري ومقدرة فنية كاملة .

ويعود إيلياس فينيزيس في عام ١٩٣٩ فيعرض في روايته «سكينة» مأساة الاغتراب ذاتها التي رأيناها في «الجنور الأولى» كما نجد هذه المأساة عند ترزاكيس في «الأغلال» عام ١٩٣٣ وفي دراسة بريفيلاكيس التفصيلية عن «قصة مدينة» عام ١٩٣٨ .

وتتحول الكتابة القصصية من «السيكولوجية الجماعية» إلى «السيكولوجية الفردية» عندما يكرس العمل لدراسة شخص سواء قصد لذاته أو عرض كرمز ، كما في «الكولونيل ليابكين» لكاراتزى عام ١٩٣٣ .

ويقترّب من ذلك اتجاه أولئك الكتاب الذين يبرزون نور الخيال عند الشخصية التي تهرب - بإرادتها إلى حد ما - من الواقع ، كما في «الحب ناسج الأحلام» لناريس عام ١٩٢٦ كما يمكن أن تقف القصة السيكولوجية عند الصراعات العاطفية كما في « النار ذات الشعلتين» التي كتبها لينوراكيس أو عند الإخفاق في إشباع العاطفة كما في

«غابة الليمون» عام ١٩٣١ لكوزماس بوليتيس ، وقد تصل العاطفة المستبدة إلى هوى جامع يحيل الفرد إلى ضحية لغرائزه كما فى «الجسد» لكانيليس عام ١٩٣١ ، وقد تقف القصة عند الأفكار المسطرة كما فى «نظرة الثعبان» لفويوكلاكى عام ١٩٣١ .

وقد يعكف كاتب القصة النفسية على تحليل ذاته واستكشاف مجاهلها كما فعل كسيفلوزاس فى «السيمفونية الداخلية» عام ١٩٣٢ .

كما عمد البعض إلى دراسة أوضاع الحياة الحديثة وانعكاساتها على النفسية الفردية بحملها على الاستسلام لها ، أو التأقلم معها . وقد يمضى البطل رغم كل شىء فى تخطيطه بالأوضاع الخارجية . وهذا ما نجده فى روايتى ثيوتوكاس «أرغو» عام ١٩٣٣ و«الشيطان» عام ١٩٣٨ ، وعند بيتسالييس فى «مفرق الطريق» عام ١٩٣٤ وعند تيرساكيس فى «المدينة الضارية» وهنا نجد الأقوياء يواجهون الضعفاء ويسحقونهم .

ولاشك أن تعدد الحالات والمخططات فى القصة السيكولوجية يترتب عليه تنويعات عدة فى التركيب التكنيكى للعمل . وذلك الملاحظ بصفة عامة على القصة السيكولوجية أن المغامرة ليست عنصراً خارجياً بل هى ترافق حركة الروح ، كما أن الحدود الفاصلة بين الواقع والخيال تتلاشى من العمل الأدبى . ويصبح الوسط الخارجى عرضياً ، والفرد عالماً زاخراً بالفانتازيا وانطباعات التجارب الشخصية .

وتمضى القصة السيكولوجية عند تيرساكيس فيقدم «الحب والموت» عام ١٩٤٢ وكوزماس بوليتيس فيقدم «ثلاث نساء» عام ١٩٤٣ وينمى بيتروس خاريس الجوانب النفسية فى مجموعته القصصية «عالم بعيد» عام ١٩٤٤ . ومن قبله تاتيانا ستافرو فى «مضى الصيف» واسترتيس ميريفيليس فى «فاسيلى الألبانى» عام ١٩٤٣ كما يعكف إيلياس فينيزيس على استرجاع ذكرياته الماضية فى «أرض اليونان» عام ١٩٤٣ وفى «رياح» عام ١٩٤٤ .

ويمكننا أن نقول بصفة عامة إن النزعة الاجتماعية قد تراجعت فى القصة اليونانية الحديثة أمام النزعة السيكولوجية . وإذا كانت القصة الاجتماعية مرتبطة بالتعاسة الإنسانية عند يانيس مانجليس صاحب «خطوات فى الطين» عام ١٩٤٩ ، فقد تنوعت النزعة السيكولوجية فى أعمال غيره من الكتاب . وتجلت على الأخص عند نوكساس فى «بعد منتصف الليل» وتاتياناستافرو فى «ينابيع خفية» وعند ديليوس فى «موسيقى الغرفة» عام ١٩٤٧ . ونجد عرضاً لأحلام الطفولة فى «صفاء النجوم» عام ١٩٤٥ لبامايوتوبولوس ولعاطفة الأمومة عند السيدة بوكافالا فى «الفداء» عام ١٩٤٧ ويربط لونديميس السيكولوجية بالفلسفة فى «طابت ليلتك ، أيتها الحياة» عام ١٩٤٦ . وهو ما نجده أيضاً عند كاراجاتسيس فى «النوم الطويل» وعند نيقوس كازاندزاكى فى «إليكسى زوريا» وهى رواية كريتية ، تضع وجهها لوجه شاباً يقضى ساعاته فى قراءة الكتب ورجلا حنكته تجارب الحياة . وتحملنا الذكريات بعيداً إلى الماضى فى «الأحياء القديمة» لديمترىادس عام ١٩٤٧ . أما نيقولائيدس

فقد مزج المعالجة السيكلوجية بالوصف التفصيلي للتقاليد والمشاهد المحلية في «أبعد من الخير والشر» عامي ٤٠ و١٩٤٣ و«المسامير الثلاثة» عام ١٩٤٨ .

وهناك أيضاً قصص تقوم على وصف المناظر الطبيعية ، وكثيراً ما لا يقصد وصف الطبيعة لذاته ، أو يطعم بتأملات فلسفية أو خلجات نفسية وتقترب قصص وصف الطبيعة من كتب الرحلات وهي ضرب من «النثر القصصي» تفوق فيه كازندزاكيس وأورانيس وفينيزيس .

كما أن ثمة تياراً جديداً بدأ يغزو القصة اليونانية الحديثة منذ أعقاب الحرب العالمية الأولى نجده على الأخص لدى جورج ثيوتوكاس وذرأسوس كاستاناكيس وكاراجاتسيس ، وهو تيار الكتابات اللامحلية عن أحداث تدور في بقاع أخرى من العالم غير اليونان ، أو بين شخوص من جنسيات أخرى غير الجنسية اليونانية. وقد ساعدت هذه اللامحلية على تجديد الإطار الخارجي للموضوع ، وعلى نقل المعالجة السيكلوجية إلى مستويات أخرى .

ولقد وجدت الحرب العالمية الثانية اليونان وقد اكتمل نضجها المعنوي. ولم تعق الأوضاع المؤلمة التي فرضتها الأحداث سير النشاط الفني والأدبي الذي كان بالنسبة للشعب اليوناني بمثابة درع للدفاع وسلاح للهجوم. وقد أهاب الكتاب اليونانيون بالأحرار والمثقفين في العالم كله أن يهبوا لنصرة اليونان في قضيتها . وكانت الحرب فرصة تاريخية ليؤكد الأدب اليوناني ارتباطه بالفكر العالمي وهو التيار الذي ظهر في الكتابات اليونانية منذ عام ١٩٢٠ .

وتحت كابوس الاحتلال نشأت حركة أدبية سرية أمكنها أن تطبع وتوزع كتبها في الخفاء ، مثل مجموعة ليليكاناكو القصصية بعنوان «جحيم الأطفال» واشترك كثير من الكتاب المناضلين في الصحافة السرية مثل ثيوتوكاس الذي كان يكتب في الجريدة السرية «الحرية» كما أصدر لفيف من الأدباء الأحرار مجلة سرية بعنوان «الرواد الجدد» أما المجلات التي رخصت لها السلطات بمواصلة الصدور مثل مجلة «نيا استيا» فلم تكف بدورها عن التغنى بالقيم اليونانية العريقة .

ومن الأحداث الأدبية البارزة في ظل الاحتلال النازي جنازة الشاعر اليوناني الكبير «كوستيس بالاماس» في ٢٨ فبراير ١٩٤٠ فقد حول الأدباء والفنانون موكب الجنازة إلى مظاهرة وطنية ضخمة مهيبة .

ولقد ولدت الحرب العالمية الثانية بدورها أعمالاً قصصية كثيرة من «أدب المعركة» مفعمة بروح قومية أبية ، صورت على الأخص بطولات المقاومة الشعبية ، ومعاناة الشعب من صنوف العذاب الذي وقع عليه . ومن هذه الكتابات «بعيداً عن أنوار الحياة» لأرغيريس و «الحرية أو الموت» لكازندزأكي و «نداء الأرض» لأفيروف و «في جحيم أثينا» و «الأرواح الأدبية» للسيدة بيتراكى عام ١٩٤٥ .. إنتاج غزير مفعم بحب الوطن وتمجيد بطولات أبنائه .

على أن هذا النوع من الكتابات مضى يتناقص كلما ابتعد كابوس الحرب عن الأذهان ، ولكن ذكريات الحرب ظلت تخلق لدى القصاصين والروائيين العديد من الصفحات مثل «الدم الإنساني» لذوكساس و «ساعة الحرب» لفينيزيس و «من أجل العدالة» لماريا روسيا عام ١٩٤٦ و «رجال مسلحون» للوكاس أكريتاس عام ١٩٤٧ .

وعادت القصة اليونانية الحديثة تنمو وتزدهر فى مختلف ضروبها ومناحيها. وانطلق الأدب اليونانى بصفة عامة إلى المستوى العالمى بخطى حثيثة ، فترجمت الأعمال العديدة من اليونانية إلى اللغات الأجنبية. ونال كازندزاكيس وسفيريس وغيرهما كثيراً من الجوائز العالمية .

ولئن تعددت القصص اليونانية التى تلت الحرب وتنوعت ، فإنه يجمع بينها محاولة ربط القومى أو المحلى بالعالمى ، وإعلاء النظرة الديناميكية إلى الوجود الإنسانى على النظرة الإستاتيكية. وأخيراً نجد الكتاب اليونانيين الجدد، سواء واجهوا الفرد أو واجهوا الجماعة ، يصلون فى أعمالهم إلى مشكلات تتعدى الوسط اليونانى وتقتضى حلولها التقصى عن مدلول أشمل للإنسان ، وبذلك يسهم الأدب اليونانى الحديث فى إثراء التجربة الإنسانية العالمية^(١).

الأدب اليونانى ليس التراث الإغريقى فحسب :

حظيت أعمال أدبية لكثير من القصاصين والروائيين والشعراء اليونانيين المعاصرين بالترجمة لا إلى الإنجليزية والفرنسية فحسب بل وإلى الألمانية والإيطالية والبلغارية وغيرها من اللغات أيضاً .. وقد ترجمت رواية «الخطأ» للقصاص اليونانى المعاصر أندونى ساماراكى

(١) استندنا فيما تقدم على الأخص إلى كتابات أريستى كامبانيس وأبوستولوس زاخينى وأندريه ميرامبيل عن الأدب اليونانى الحديث .

إلى خمس عشرة لغة .. منها اللغة اليابانية، وصدرت الترجمة التي أجراها أحد أساتذة جامعة طوكيو فى طبعة أنيقة من إحدى دور النشر بطوكيو. وتعتبر أعمال أندونى ساماراكى من أكثر الأعمال الأدبية رواجاً. وطبعت مجموعته القصصية «مطلوب أمل» طبعة خامسة من ٢٥ ألف نسخة. ويمكننا أن نعرف من هذا العدد مبلغ إقبال اليونانيين على قراءة الأعمال الأدبية. وقد كتب النقاد عن أندونى ساماراكى بمختلف اللغات. فكتب عنه ماكس تاو بالألمانية قائلاً : «إننى أومن بساماراكى، وأعرف أنه بعمله يستطيع أن يعطى العالم الأمل الكبير ، فى أن يحيا الناس وقد سادهم الفهم والأخوة». وفى كوبنهاجن كتب عنه جاكوب بالودان: «كاتب فذ. من المتعذر أن تقرأ أعماله دون أن تحس بشجن حقيقى». وكتب أدوين جاهيل الأستاذ بجامعة أليوى: «ساماراكى واحد من أكبر كتاب العالم. صوت من اليونان يتحدث إلى الإنسانية بأسلوب عصرى مدرك لمسئوليته ، يتحدث عن التناقضات والقلق ، ويدين الوحشية والحرب والعنف والفقر والحرمان من الحرية». وقد كان لرواية ساماراكى «الخطأ» وقع كبير فى مختلف الأوساط الأدبية فى اليونان وخارجها ، فحصلت فى اليونان على جائزة الاثنى عشر ناقداً ، وهى توازى «جائزة جونكور» فى فرنسا. وعندما ترجمت رواية «الخطأ» إلى الفرنسية ونشرتها دار النشر «ستوك» عام ١٩٧٠ نالت جائزة أحسن رواية أجنبية مترجمة. وقد كتب عنها الروائى الكبير جراهام جرين : «إنها تحفة أدبية حقاً ، كتبت بقلم متوقد وصنعة فريدة » .

وإذا كنا قد وقفنا ملياً أمام أعمال أندونى ساماراكى فقد قصدنا من ذلك أن نشير إلى الصلاحيات التى تنطوى عليها الحياة الأدبية اليونانية المعاصرة ، وانفتاحها على المستوى الأوروبى والعالمى . لاشك أن الترجمة من اليونانية إلى مختلف اللغات الأخرى تؤدى دورها الفعال وتبرز إمكانات تلقى الأدب المعاصر فى الخارج ، إن اليونان ليست فحسب ذلك التراث الإغريقى الذى مضى عليه مايربو على ألفى عام بل إن اليونان هى أيضاً أعمال الفن والأدب التى تنتجها قرائح أدباء اليونان وفنانيها اليوم . وقد أخذ الأدب اليونانى المعاصر يعرف طريقه إلى العديد من جامعات أوروبا وأمريكا ومعاهدها المختصة . وتزداد هذه إقبالا على دراسة الأدب اليونانى المعاصر وترجمته إلى اللغات المختلفة .

ويجدر بنا أن نشير إلى أن القارئ اليونانى بفضل حركة الترجمة النشطة إلى اليونانية يعرف الكثير من أعمال الأدب العالمى ، بل والملاحظ جيداً أن دور النشر اليونانية باتفاقات خاصة مع الناشرين فى العواصم الأوروبية تترجم الكثير من الأعمال الأدبية الأجنبية فور صدورهم بلغاتها الأصلية . والقارئ اليونانى مشوق إلى التعرف على الأدب المصرى المعاصر الذى لايعرف عنه الكثير ، وذلك على الرغم من إحساس اليونانيين بأنه كان بإمكانهم - وقد عاشوا طويلاً فى مصر الحديثة - أن يكونوا أكثر التفاتاً إلى أدب بلادنا .

والكتاب اليونانى بصفة عامة يتصف بأناقته وحسن طباعته ، وهو فى أغلب الأحيان ليس بالزهيد فى سعره ، فالفكرة السائدة فى أوساط

الكتاب والناشرين أن الكتاب الأدبي سلعة يجب أن يحقق لمؤلفه وناشره دخلاً مناسباً ، وأن الإقبال على شراء الكتاب إنما يأتي بعد أن يضمن القارئ لنفسه حاجات الحياة ومطالبها ولهذا فإن مشتري الكتاب اليوناني عادة يكون من المقتدرين ، وإن كان تزايد نسبة توزيع الكتاب اليوناني يشير إلى التحسن المطرد في المستوى الاقتصادي للمجتمع اليوناني بصفة عامة .

ومادامنا بصدد الحديث عن الكتاب اليوناني فجدير بنا أن ننوه بسلسلتين منتظمتين تنشران الأدب اليوناني المعاصر ، أما السلسلة الأولى فهي بعنوان «الأعمال المنتقاة من الأدب اليوناني الحديث» وتصدرها دار النشر التي تصدر عنها مجلة «نيا أستيا» ويقرأ في قائمتها أعمالاً لتيوتوكا وباباندونيوكا وكاركافيتا وميروفيلس وبلايفيلاكيس وكارجاتزي ، وبيتسالي ذيوميذى وآخرين ، أما السلسلة الثانية فهي التي تصدرها في طبعات رخيصة دار النشر غالاكسيا بعنوان «مكتبة الكتاب اليونانيين والأجانب» ذات الغلاف الأزرق .

ولما كان اليونانيون قد عرف عنهم انتشارهم في بقاع العالم فإن كثيراً من الأعمال الأدبية التي ينشرونها تحتوى على خبرات وأحاسيس مختلفة تنضج بارتباطات باقية بالبلدان والشعوب التي عاشوا على أرضها . وقد طالعنا مجلة «نيا أستيا» نصف الشهرية بأحد أعدادها في الستينيات بقصيدة لشاعرة عاشت في مصر ورحلت إلى اليونان تحمل حباً عارماً لمصر وأهلها . هذه الشاعرة هي كيتي بابازاكي - كارميتسا وتقول في قصيدتها بعنوان «ساعة الصلاة» :

«يتأهب حسن ومحمد وسليم للصلاة ، غسلوا الأقدام وبسطوا على الأرض ثوباً رخيصاً نظيفاً. منكسى الرعوس خاشعين ركعوا متجهين بوجوههم نحو المشرق. خفيضى النظرات ، تتمم الشفاعة بآيات من القرآن ، كلمات حكمية. وهى مغلقة النوافذ تخلع نجية ملاعتها السوداء ، وتضع على الرأس طرحة بيضاء. تميل الشمس للغروب. تمهلت لحظة تمتع السمع بصوت مؤذن الجامع المديد يقول : « لا إله إلا الله » والنيل يصفى بانتباه. وقد سكن سعف النخيل. الكل يطلب الصمت. فى الدروب الضيقة الفقيرة يكف الضجيج ، وفى الأحياء الغنية أيضاً يبطل الصخب ، يرتفع النداء « لا إله إلا الله » والقاهرة بأسرها تحتضن صوت المؤذن الحبيب. وصل الصوت إلى قلبى المؤمن. وتمتت شفتاى. مر حسن ومحمد وسليم : « لا إله إلا الله » الله واحد بالنسبة لنا .. كلنا على هذه الأرض . كلنا سواء» .

ولقد سعت التيارات الأدبية فى اليونان - على الأخص فى مجال القصة والرواية - إلى الاستفادة من التجارب المعاصرة ، سواء فى الشكل أو المضمون. فقدم كتاب اليونان إنتاجهم القومى فى قالب عصرى ، ويفخر الأدباء اليونانيون بأنهم يثرون بعطائهم الأدبى الأوروبى، ويرفضون التقيد بالمحلية ، ومن ثم تخلصوا من الحذلقات والزخارف اللفظية مقربين لغتهم الأدبية من لغة كل يوم . وقد أخذت شخصية الأديب اليونانى تتضح بجلاء ، فقد طوع أسلوبه بحيث لم يعد يكفى بأن يقدم لقارئه لوحات «شعبية» فحسب ، بل استخدم لغته للتعبير عن رؤاه الذاتية من خلال اختيار موضوعاته وتفسيراته للمواقف والأبطال .

كما ظهر تيار جديد فى القصة اليونانية الحديثة نجده على الأخص لدى جورج ثيوتوكا. وذراسوس كاستاناكيس وكاراجاتسيس ، وهو تيار الكتابات اللامحلية عن أحداث تدور فى بقاع أخرى من العالم غير اليونان ، أو بين شخوص من جنسيات أخرى. وقد جعل بانابوتوبولوس العديد من أبطاله فى قصص مجموعته «فلامينجو» الصادرة عام ١٩٦٣ من الأفريقيين السود يصارعون من أجل التحرر من أغلال العبودية. وقد ساعدت هذه اللامحلية على تجديد الإطار الخارجى للموضوع وعلى نقل المعالجة السيكولوجية إلى مستويات أخرى غير تقليدية .

ولئن تعددت القصص اليونانية التى تلت الحرب وتنوعت ، فإنه يجمع بينها محاولة ربط القومى بالعالمى ، وإعلاء النظرة الديناميكية إلى الوجود الإنسانى على النظرة الإستاتيكية. وأخيراً نجد الكتاب اليونانيين الجدد، سواء واجهوا الفرد أو واجهوا الجماعة ، يصلون فى أعمالهم إلى مشكلات تتعدى الوسط اليونانى ، وتقتضى حلولها التقصى عن مدلول أشمل للإنسان ، وبذلك يسهم الأدب اليونانى الحديث فى إثراء التجربة الإنسانية العالمية .

القصة اليونانية الحديثة فى مصر :

ترجع أول محاولة قصصية فى الأدب اليونانى بمصر إلى عام ١٨٩٩ . وكان صاحبها أحد رجال التعليم المعروفين فى الإسكندرية وهو «يوانى جيكا». فقد نشر فى تلك السنة مجموعته القصصية «فى خمسة فصول»

وتنطوى قصص هذه المجموعة على جهد لتحليل نفسيات أبطالها ، وجنوح إلى اللغة العامية ، وهو ما كان فى حينه خطوة جريئة ، كما تنطوى على تنديد بالاحتلال البريطانى البائد. وإذا كانت قصص جيكا تلك ماعادت تقرأ الآن ، إلا أن كتابه «خمسون عاماً فى مهنة التعليم» الصادر عام ١٩٥٠ مازال يثير الاهتمام بما احتواه من ذكريات وانطباعات .

ويستحق «كوستا ساجاراداس» منا وقفة طويلة ، فقد أقام هذا الرجل بأسىوط وكان أول من لفت أنظار قرائه اليونانيين إلى حياة أهل ريفنا بروايته «نبية» التى كتبها عام ١٩٢٤ ثم تبعها فى العام التالى بمجموعته القصصية «حكايات» المستوحاة بدورها من حياة فلاحينا. ولقد كان ساجاراداس رائد الكتاب اليونانيين الذين وجهوا اهتمامهم إلى وصف مشاهد من حياتنا الشعبية. وقد رجع ساجاراداس أيضاً إلى ماضى بلادنا فكتب عام ١٩٥١ «بتاح حتب» ترجم فيها جانباً من حياة الفراعنة وأديهم .

وقد عرّب الأستاذ عبد السميع المصرى رواية ساجاراداس «نبية» بعنوان «عذراء أسىوط» وأشار أديبنا يحيى حقى فى كتابه «خطوات فى النقد» إلى هذه الرواية منتنبها إلى دلالتها فيقول عنها «..هزت روحى هزاً عنيفاً ، حتى غلبنى التأثر. وأذاقتنى كأساً مترعة من سعادة لا حد لها .. لأن كاتبها اليونانى يخاطبنا عن قرب ، ويعاشرنا منذ أمد بعيد .. وتدل مقدمة المترجم على أن المؤلف قد كرّس لمصرنا العزيزة وطنه الثانى أو لعله أصبح وطنه الأول ، عصارة ذهنه وفنه ، ونوب روحه ،

ووقف عليها جل مؤلفاته الكثيرة .. ولم تقف نظرتة عند سطح أرضنا ، بل نفذت إلى جذورنا وأعماقنا .. إننى لا أبالغ إذا قلت لك إن كوستى ساجاراداس قد قدم لنا قصة هى فى الذروة من الثقافة الذهنية والروحية. ولكن الثقافة وحدها لا تنفع عند التحدث عن الوطن إلا إذا صاحبها حب وإعزاز وإحساس صادق وشعور يقظ ، وقد وجدت كل هذا عند صاحبنا بما لا يدع زيادة لمستزيد ، بل أخطو خطوة أخرى وأقول إن الثقافة والحب إذا اجتمعا لا ينفعان أيضاً إلا إذا صاحبهما شىء ثالث له خطره وقيمتة وهو التواضع والخشوع . وكوستى مثل رائع لتواضع الفنان ، وخشوعه أمام الطبيعة والنبات والحيوان ، وعواطف الإنسان وأحكام القدر ، وأشهد لك أن أحداً لم يصف مصر وأهلها وطبيعتها كما وصفها كوستى بفن وحب وإعزاز وتواضع وخشوع ، كما نفذ إلى أسرار النفس الإنسانية وبسطها فى كلام سهل ناصع نصوع الفن الإغريقى ..» (خطوات فى النقد - ص ١٨٠ وما بعدها) .

وقد سارت القصاصة «كاليوبى ناكوبولو» التى عاشت سنين طويلة فى الريف المصرى إلى جوار زوجها الذى اشتغل بالزراعة - سارت فى روايتها «شجرة على» الصادرة عام ١٩٥٧ على ذات النهج الذى اختطه ساجاراداس فسردت فى روايتها تلك حياة أسرة ريفية مركزة اهتمامها على التقاليد والعادات فى ريفنا وقد شيدت محور الرواية على الرغبة المتأصلة فى أن تنجب المرأة لزوجها ولداً ذكراً .. ومن خلال هذه العادات تتابع ناكوبولو بعين القصاصة المدققة حياة ريفنا كله ، مايلبس وما يؤكل ، مواسمه وأعياده . وأفراحه وأتراحه .. عواطفه ومشكلاته .

ولقد أوجت تربتنا وأرضنا للقصاص «ن.بوسولاس» بصفحات ضافية فى كتابه «الصيف» الصادر عام ١٩٦١ . كما يرجع الفضل إلى فيليبوبيريدس فى محاولة الربط بين اليونانيين المهاجرين إلى مصر والبيئة الريفية التى عاشوا فيها ، وذلك فى كتابه «تجار القطن» الصادر عام ١٩٤٥ .

أما «فاجيليس غراتسيا» فبعد أن كتب قصته الخيالية «بيت الأشباح» عام ١٩٥٨ ألف قصته «أصوات فى الصحراء» عام ١٩٦٠ .

وقد عرفت الحياة الأدبية للجالية اليونانية فى مصر أدبيات جذيرات بالإشارة إلى إنتاجهن القصصى . ففضلا عن القصاصة كاليوبى ناكوبولو التى نزع - كما رأينا - إلى تصوير البيئة الريفية بكثير من الشغف والتعاطف، نجد القصاصة «هيلينى فويسكو» التى ضمت قصصها فى مجموعة صدرت عام ١٩٤٦ ، ثم نجد «لوكيا مارقا» التى كتبت عدداً من أجمل القصص اليونانية وقدمت لقرائها مجموعتيها القصصيتين «رحلة مع زميلى الإنسان» عام ١٩٥٣ و«بلا رفيق» عام ١٩٥٦ ، وإن كان الكثير من إنتاجهم ظل متناثراً على صفحات المجلات دون أن يجمع بين دفتى كتاب . أما «دوللى دالكا» فرغم أنها قد نشرت عدة قصص موفقة فى المجلات فإننا لانجد لها أية مجموعة جمعت فيها تلك القصص .

وفى مجال القصة اليونانية فى مصر نلتقى أيضاً «بماريا روسيا» التى نقدم ترجمة لإحدى قصصها فى هذه المجموعة .. وتنزع هذه

الكاتبة إلى الاهتمام بحرارة الروابط الاجتماعية ويدين لها الأدب اليونانى فى مصر بكتابها «من أجل العدالة فى الشرق الأوسط» عام ١٩٤٦ وقد استوحته من انطباعاتها عن الحرب العالمية الثانية ، وبكتابها «قبرص» الذى حاولت فيه عام ١٩٥٦ أن تعرض الروح الحقّة لوطنها من خلال مزج رائع بين الواقع والخيال .

كما كتبت «أثينا باب» عام ١٩٦١ قصة حياة الموسيقى «شومان» مفصّحة عن اهتمامات إنسانية وعالمية

وفى مقدمة القاصين اليونانيين فى مصر الذين تعددت اهتماماتهم وكتاباتهم الشاعر الناقد القصاص «غلافكوس أليثيرسيس» الذى نظم الكثير من دواوين الشعر وألف كتاباً عن تاريخ الأدب اليونانى، أشار فيه إلى كثير من كتاب اليونانية الذين عاشوا فى مصر أمثال «كافافيس» وقد ألف أليثيرسيس أيضاً قصصاً قصيرة جمعها فى مجموعته «العناكب» الصادرة عام ١٩٣٦

كما نجد «ستراتيس سيركاس» الذى تخطى عن نظم الشعر ليكتب القصة، وقد تجلت حنكته القصصية فى مجموعات «أناس غريبو الأطوار» عام ١٩٤٤ و«أبريل أشد صعوبة» عام ١٩٤٧ و«نومة الحصاد» عام ١٩٥٤ . وقد طبعت مجموعات هذه ونشرت فى الإسكندرية. وقد عرف سيركاس أيضاً بدراسته النقدية الجادة ، وله دراسة عن رائد القصة اليونانية الحديثة «ديموستينيس فواتيراس» عام ١٩٤٨ ودراسة أخرى عن القصاص القبرصى الكبير «نيقوس نيقولائيدس» عام ١٩٥٠ ودراسة أخرى ضافية عن الشاعر «كافافيس وعصره » عام ١٩٥٨

ولايفوتنا أن نشير في هذا المقام إلى أديب آخر تنوعت كتاباته وضرب بسهم وافر في شتى المجالات الأدبية هو «فريتميتساكيس» قارئ الفلسفة الذي كتب القصة المتطبعة بروحه القلقة المنقبة المحملة بقسط وافر من المعرفة الإنسانية .

ويجدر أن نشير في حقل القصة اليونانية في مصر إلى «كيتروبولو» الذي بكر بإصدار عمله القصصى عام ١٩٢٥ وإلى «يانجوس بيريدس» الذي كشف عن قدرته على تحليل النفسيات في روايته «الغريب» الصادرة عام ١٩٢٧، وإلى «سوكرات ساماتيو» الذي قدم لنا عام ١٩٥٤ «الأعصاب المكودة» ، وإلى «سوتيرى يورذانو» وإلى «إيليا خادزليا» صاحب المجموعة القصصية «ساعات على النيل» الصادرة عام ١٩٥٣، وإلى «باولو ناتانيل» الذي أصدر عام ١٩٥٥ مجموعته «القلق» .

وفى عام ١٩٣٥ صدرت في الإسكندرية مجموعة قصصية بعنوان «خطوات على الأسفلت» لقصاص ذى مكانة مرموقة فى أدب القصة اليونانية بمصر هو «أنطونى إينونى» الذى أصدر بعد ذلك مجموعة قصصية ثانية بعنوان «لحظات كبيرة لأناس صغار» عام ١٩٣٨ وقد أعيد طبعها عام ١٩٤٤ ثم أصدر مجموعة قصصية ثالثة بعنوان «الرجل الذى يضحك فى أوقات غير مناسبة» عام ١٩٤٣ ، ثم مجموعة قصصية رابعة بعنوان «مقابلة مع ذاتى الآخر» عام ١٩٥٤ . كما أصدر عام ١٩٤٦ كتابه «أحلام تحت رقعة من السماء» تتضمن قصة ورواية قصيرة. وأصدر أيضاً روايتين طويلتين إحداهما «أولئك الذى لم يحاربوا»

عام ١٩٤٥ . وأسلوب إينونى أسلوب مهذب رائق لايعمد إلى الإيقاعات العالية ولا إلى افتعال المفاجآت الصاخبة . وهو يتتبع فى قصصه أناساً عاديين فى ساعات المحن والحاجة والضعف ، ويعرض لحظات كل يوم بعمق ويملاً قلب قارئه بالشجن دون التردى بفنه فى الميلودراما الخطابية . ومن خلال قصصه نلمح الكثير من أحياء الإسكندرية وشوارعها ومحالها .

على أن أكبر كتاب القصة والرواية اليونانية فى مصر هو بلا منازع القبرصى «نيقوس نيقولائيدس» وإذا كان نيقولائيدس قد توفى عام ١٩٥٦ إلا أن قصة مثل «عظام الميت» أو «أبعد من الخير والشر» لهى عمل أدبى نادر المثال . كما أن روايته «المسامير الثلاثة» التى صدرت فى القاهرة عام ١٩٤٨ جديرة بكل تقدير . والحق يقال إن أدب نيقولائيدس لم يحظ بمكانته اللائقة بعد رغم ما يحفل به من إنسانية وشرف وإخلاص .

ومن الجدير أن نشير إلى واحد من أشد قصاصى اليونان فى مصر جرأة وهو «ينى يامفيليس» الذى جمع قصصه عام ١٩٦٠ فى كتاب بعنوان «الميناء» فقد طبع هذا القصاص قصصه بالحروف اللاتينية ، مما يعتبر عملاً طريفاً وجديراً فى حد ذاته . وهو يقول فى مقدمة مجموعته إنه عمد إلى هذه الكتابة لأنه فنان تجريبى قبل كل شئ ، وإن كان قليل الإيمان بأن طريقته هذه ستحظى بالرضاء العام أو ستلقى التأييد

السريع، ولكن يامفيليس يُعد بطريقته هذه فى طليعة الكتاب اليونانيين الذين سعو إلى ربط لغة بلاده باللغة الأوروبية التى تكتب بالحروف اللاتينية^(١) .

ونحن فى النهاية إذ نقدم هذه المجموعة من القصص اليونانية الحديثة ، نأمل أن تحقق ما قصدناه من إمتاع القارئ العربى وتحبيبه فى أدب شعب صديق .

(١) استندنا فى هذا المقام إلى كتاب الناقد المؤرخ السكندرى «مانولى يالوراكى» بعنوان تاريخ الأدب اليونانى فى مصر طبعة ١٩٦٢

الحقد فى قلب كاميناس

ذيموستينيس فوتيراس

عندما أقبل الليل ، وأوقدت خادمة الكنيسة قناديلها ، خرج كاميناس إلى سطح القصر الريفى القديم ، ونظر إلى بيت باريا . كانت أنوار البيت تتلألأ ، ومن خلف الستائر المفتوحة انعكست الأضواء خارجاً فبدت الأشجار الداكنة الساكنة ، والأرائك الخشبية ، وحوض المياه .

قال بصوت خفيض: «كادوا يفسدون على خطى» ، اختبأ فى بطن القصر القديم ، هكذا كان يسمى أقبيةته ، ولم يستطع الحارسان اللذان طارداه أن يعثرا عليه أه ! القصر القديم يحميه ، كانت أشباحه أصدقاء له ، ولما نزل الحارسان يبحثان عنه ، سارعت بإخفائه ، ملقية عليه رداءها السحري ، فلم يراها ! جرت الحشرات من حوله وإلى جواره، لكنها كانت كلها أصدقاءه ! هى بدورها ربيبة الظلام ، عدوة النهار والنور الوضاح ! مثله. تريد الليل الأسود الستار ، الذى يحتوى فى أعماقه غوامض وغوامض ، ويحتضن تلك الأشباح التى تخرج

بلا خوف فى ظلمته عائدة إلى ديارها المهدمة ، إلى قصورها التى
صارت خرائب وأطلالاً !

سكنت الريح التى كانت تعصف من قبل بالقصر العتيق وتزلزل
جنياته ، وتبعث الأنين والتنهدات بين أرجائه. كانت ليلة هادئة ، لكن
هدوءها كان يضطرم بجلبة لايعرف كنهها ، أشبه بهمهمات أشباح
عاشقة ، أو خرير ينبوع خفى ، أو أغنية يبعث بها الصمت إلى النجوم .
- ما بالهم يفعلون ؟ لابد أنهم يرقصون ! الثراء بين أيديهم حرام !
كز على أسنانه .

سيرون الآن ماذا بمقدور فقير تعس أن يفعل .! لقد ألبوا عليه
الخفراء ورجال الشرطة والقضاة ، لكن هل سيكون بإمكانهم أن يوقفوا
الانتقام ؟

وكان الليل كاتم الأسرار ينظر إليه من عليائه بعيونه التى لاتحصى .
... سوف يتسلق بعد ذلك السور إلى النافذة من تلك الناحية التى
تنمو فيها اللبلابة اللقاء .

ومثلت فى مخيلته اللبلابة المتشبيته بالحائط ، وتركزت رؤيته على
ذلك الموضع الذى تفرقت عنده أغصانها مثل علم مجزوز .

تسلق أحجار الحائط البارزة . كان يجب أن يروه مثل شيطان
يطلع عليهم من هناك . فاضت الأضواء من المصابيح والشموع والثريات ،
وأغرقت المكان بأنوارها . كانت النساء تدرن وترقصن بين أحضان

الرجال ، رافلات فى ثيابهن البيضاء ، وقد انحسرت ثغورهن الضاحكة
عن أسنانهن الناصعة .. دفع النافذة بشدة وقد أمسك بمصراعها
الخارجى .. تحطمت النافذة ، وانفتحت ، ولم يبق من زجاجها سوى
كسرة صغيرة علقت بمزلاجها . وفى خضم الجلبة الحادثة ، صاح :

– الانتقام !

انفض كل شىء . الوصال ، والضحك ، والمرح . ثم تعالت صيحة
أخرى :

– النار !

سيشتعل الديناميت أيضاً ! لن يفلتوا ، كلا ، الباب أحكم إغلاقه ،
والمفاتيح ألقيت بعيداً . وانتقام التعساء يبدأ !

نزل بسرعة ولكن بحذر ، وإن كان يعرف كل حجر من أحجار
السور ، فقد سبق له أن صقلها مراراً ليكسوها بالطلاء ! لن ينجو أحد .
ومن جرؤ على الاقتداء به ، والنزول من حيث نزل هو ينتظره موت آخر .
قفز إلى الأرض ، وجرى يختبئ وسط الشجر ، وقد غلبته نوبة من
الضحك أشبه بالبكاء !

ارتجت الأرض ، وانفجر دوى شديد ، وتطاير كل شىء فى الهواء .
ومض وهج لامع ، وتصاعد غبار ، ودخان أبيض يغطى وجه النجوم .

تم الانتقام !

تساءل كاميناس: «وبعد؟»

أحسّ فراغاً فى الموضع الذى كانت تشغله الوجوه المكروهة ، ومثل
وحش أعمته شهوته عاد حقه فى أعماقه يفتح ويطبق فكه الضارين ،
متعطشا للدماء !

كلا ، كلا! لن تتمخض الكراهية التى فى قلبه ، كراهيته التى
لانهاية لها ، فتلد هذا الانتقام القاصر فحسب ، أبدا . أبدا ، لن يلد
الجبل فأراً ، ولا النمر نملة !

التفت إلى القصر القديم ، وسأله :

- إيه ، أيها القصر العجوز ، بما كنت ستنصحنى لو قدر لك
أن تتكلم ؟

تردد الصدى فى أرجاء القصر ، محاولاً أن ينقل إليه ماذا يقول
القصر العتيق ! أجفل مذعوراً . راودته ذكرى قديمة . هكذا كانت أمه
تبكى عندما كانت تحل النكبات ببيتهما !

اندفع داخلاً إلى القصر ، وجال ببصره فى أرجائه . ومن السقف
المهدم رأى نجومًا يخفق نورها . وسمع دبيب حشرات وحفيف أجنحتها .
ترى ، أكان ذلك صوت أمه ؟

صاح قائلاً: «أماه !» وصدق ماقاله .

كانت الساعات تمر بطلوها ومرها . أما الساعات السوداء ، مثل
بنات خادمة القناديل ، فقد خيمت هناك .

علقت أنظار كاميناس - وقد اتكأ إلى الحائط الخفيض - بالنوافذ
التي مازالت مضيئة بالبית العدو . ارتسم في مخيلته ذلك الذي كان
يتمناه . أن يسحقهم ، أن يقتلهم ، ثم يبعثون توأ ليعاود سحقهم
وتعذيبهم وقتلهم من جديد ، دون أن يكل أو يكف عن ذلك أبداً ، أبداً
وأن يظل هذا المشهد متصلاً على مر العصور والأزمان !

توقف كاميناس عن أفكاره ، وهم بالانصراف ، لكن الوقت
لم يمهله . كان القصر القديم قد تعب من عبء السنين ، وأنهكه صراع
الأشباح ، فمال وانهارت دعائمه دافنة تحت الانقراض إنساناً ضئيلاً
تأجج في قلبه حقد مهول .

أغاريد

غريغوريس كسينو بولوس

من يريد أن يترجم أغاريد الطير إلى لغة مكتوبة، يسطر نغمات من
هذا القبيل :

- تسيو ! تسيو ! تسيو !

أو :

- تسيفيزى ! تسيفيتى ! تسيفيتيتى !

أو (صدقونى فقد صادفنى ذلك أيضاً):

- فرررر - - - - - تسا ، تسا ، تسا ، تسا ، تسا ...

هيه . لكن الأمر لم يكن مجرد حروف من الأبجدية ، بل إن
أوركسترا كاملة من عازفى الناي والمزمار والكمان والفيوليناماكانت
لتقدر على تقديم كل تلك الأنغام المنبعثة من دار السيد أناستاسى والد
زافيرولا .

كانت الدار بجوار «القديس بولس» فى «تساروخاريكا» ، بيتاً
ضيّقاً عالياً ، مثل برج الأجراس فى كنيسة ، فقد كان البيت يتألف من

ثلاثة طوابق ، ولكل طابق نافذتان فحسب . والذي كان يزيد من شبه البيت بالبرج وجود صف من الأقفاص الصغيرة والكبيرة متراسة ومعلقة تحت كل نافذة على واجهة البيت المطلية بالجير الأبيض . وكانت هذه الأقفاص تبدو من بعيد كما لو كانت شرفات ذات قضبان رفيعة حوطت بالبيت فى صفوف ثلاثة .

وكان فى تلك الأقفاص المختلفة الأحجام آلاف الأصناف من الطير ، من حسون وذرزور وعصفور وكروان وكنارى وشرشور وقنبرة وشحرور . وكانت تغرد بلا انقطاع منذ الشروق إلى الغروب : تسىو اتسيفيتى! تستسا! .. (لكن ، كلا ! قلنا إن هذه لاتسطر على الورق» ولم تكن الأقفاص العديدة مرصوفة على واجهة البيت فحسب ، بل وعلى خلفيته أيضاً التى تطل على شارع القديسة أناه ، كانت فى الغرف مدلاة من السقوف ومعلقة بالحوائط وفى الأروقة والفناء ، بل وفى المطبخ أيضاً ، فى كل أرجاء البيت ، حتى إنك لتقول إن الدار ماعادت تتسع حتى لقفص يمامة .

وذلك لأن بيت السيد أناستاسى فى «تسارو خاريكا» لم يكن مجرد دار للسكنى ، بل كان أيضاً دكاناً و«معمل تفريخ» . فقد كان السيد أناستاسى المعنى الأول بالطير فى البلدة يربيهها ويبيعها . لقد كان يشقى ، مع هذه المخلوقات ، هذا المسكين بدوره من الشروق إلى الغروب دون أن يشاركها الغناء لأنه كان وقوراً جداً وغضوباً إلى حد ما . كان رجلاً فى الخمسين من عمره ، أرمل يعيش مع ابنته الوحيدة زافيرولا وخادمة عجوز اسمها مادلينا .

كان السيد أناستاسى متيمًا حقًا بالطير .. ولهذا ، لنن كان قد مضى على وفاة السيدة أناستاسينا زوجته أعوامًا كثيرة ، إلا أنه لم يتزوج مرة ثانية ، مثل الصانع المبرز ، يرفض المرأة حتى يكرس نفسه لصنعتة ، أما زافيرولا فهي فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها ، سمراء ممثلة الجسم ، تكن للطير الفضول والحب الذى تكنه له كل الفتيات - أما العجوز مادلينا ، تلك المرأة النحيلة البليدة ، فقد كانت تنظر إليه بنفور وشذر ، مثل كثير من العجائز منحرفات المزاج .

كان السيد أناستاسى يقول :

- طيورى ...

وكانت زافيرولا تقول :

- الطيور ...

أما مادلينا فقد كانت تقول :

- تلك الطيور المقيمة ..

وكلما سمعها السيد أناستاسى صب عليها لعناته ، وقال :

- قطع لسانك ، أيتها الحمقاء !

ولو لم تكن أمينة رغم كثرة تذررها ، وتسدى له العون فى العمل ، لطردها من خدمته ، وتوخيًا للحق نقول إنه فى الآونة الأخيرة كان العون الأكبر يتلقاه من العجوز مادلينا . كانت هى التى تغسل الأقفاص فى

الفجر ، وتدخلها فى الليل . كانت هى التى تقوم بتنظيفها ، وتطهو البيض وتذق اللحم الذى يتألف منه غذاؤها . أما زافيرولا فكانت قد ركنت إلى الخمول . كانت تقضى أوقاتها غارقة فى شرود لذيذ ، تهددها أهازيج الطير التى لاتنتهى . وكانت ترقد بدورها بين يديها أو فى حجرها قطعة بيضاء من أشغال الإبرة ، وعندما كان أبوها يناديها ، كانت تنهض بفتور ، وتتهد تنهيدة صغيرة . أما إذا نادتها مادلينا طالبة منها أن تساعد ، فلم تكن تعيرها التفاتاً ، أو كانت تجيبها قائلة: «إنى قادمة إليك ، حالا» دون أن تذهب إليها قط .

وعندما كانت تصمت أهازيج الطير بالليل ، كانت زافيرولا تستمع إلى موسيقى أخرى .. كان مينيغوس ، الشاب الوسيم ذو الخصلات السوداء ، يعزف على قيثارته من المحل المقابل ، وهو محل صديقه خريسوسبائى الحلاق ، ويسكرها بأغانية . وبإمكانى مرة أخرى أن أسطر لكم هنا بأحرف ماكان يقوله ، وبعلامات ما كان يغنيه ، لكن كيف أستطيع أن أصف لكم هنا بالكلمات حلاوة صوته ، ورعشته الجياشة بالعاطفة ، وتلوينات حنجرته ؟ كان غناؤه مثل تغريد الطير ، بل إن غناء هذا الإنسان العاشق كان أكثر إحكاماً ومشقة ، فهو يبت فى أنغامه لواعج قلبه التى تزداد تأججا ، وهو يرى أمامه معبودته التى يشترق إليها قلبه ، ويلمح عند الشباك وجهها الصبى الممتلى ناصعاً مثل زنبقة بيضاء ... وبهذه الموسيقى كانت روح الفتاة تطرب بطبيعة الحال أكثر مما تطرب لموسيقى طيورها . ولما كانت هذه الموسيقى تفتح أمامها أفاقاً ودروباً جديدة من السعادة ، فقد أحبت المنشد عذب الصوت مينيغوس .

ولهذا كانت تغرق هذه الأيام فى شرود لذيذ ، ولهذا أيضاً كانت تنسى شغل الإبرة بين يديها ، وعندما كانت تناديها مادلينا كانت تجيبها قائلة «إنى قادمة إليك ، حالا» ولم تكن تذهب إليها قط .

كانت زافيرولا تعرف جيداً لماذا يغنى مينيغوس . ستقولون ، إن كل فتاة فى سنها تعرف ذلك ... أجل ، لكن ابنة بائع الطيور قدر لها أن تعرف الأمر أفضل مما تعرفه غيرها على أى حال . ذات يوم ، فجأة ، وهى تضع بعض القنب فى قدح صغير وتصفى إلى عصفور يغنى ، سألت السيد أناستاسى :

– لماذا يا أبى ، يغرد الطير ؟

أجاب أناستاسى :

– كل يغنى للآخر ، لكل أذنين صغيرتين تسمعان .

وقالت زافيرولا :

– اصدقنى القول ، يا أبى .

لم يصف السيد أناستاسى كلمة إلى ماقاله ، لكنه غرق فى التفكير ، وبعد فترة طويلة من الوقت ، حتى أن زافيرولا فرغت من تعليق القفص الذى انكبت على تنظيفه ، ونسيت السؤال الذى وجهته ، تعالى صوت بائع الطير يقول كما لو كان يحدث نفسه :

– لماذا يغرد الطير؟ ... وهل أعرف أنا لماذا يغرد الطير ؟ ... لكن

لماذا لا يغرد السمك مثلاً ؟ .. الأجدر أن يُسأل السيد الإله !

ويبدو أن زافيرولا كانت قد فكرت في الأمر هذه الأثناء ، فقالت :

- لكن ألا ترى يا أبى أن الذكور وحدها هي التى تغنى؟ لاتغنى الإناث قط لماذا ؟ هذا ما أريد أن أعرفه .

بادرها السيد أناستاسى مداعباً :

- لأن الإناث ماكرات !

قالت زافيرولا مبتسمة :

- لا أصدق ذلك . لابد أن ثمة سبباً آخر . عندما سأقابل الأب بوليذوروس سأستفسر منه . لابد أنه يعرف !

وأجاب السيد أناستاسى قائلاً :

- اسأليه لو لم يضربك . لكن ، انظرى الآن ما إذا كانت تلك العجوز مادلينا قد سوت البيض لكى نطعم الكنار . تحتاج إلى عشر ساعات لذلك ، خيبة الله عليها !

انتهى الحديث عند هذا الحد . ولكن قبل أن تسأل زافيرولا الأب بوليذوروس، سارع السيد أناستاسى فى مساء اليوم ذاته بالذهاب إلى صيدلية الحى ، التى كان يأتى إليها بين الحين والحين يسأل حكيماً .

- الأمر جد غريب ، ياسيدى الدكتور ! تصور ماذا بدا لابنتى أن تسألنى فى الفجر عندما كنا ننظف الأقفاص ؟.. أعوذ بالله من هذه الفتيات .. يسألن عن كل ..

تنحج الصيدلى ، وابتسم . وتجمع آخرون فى الصيدلية ليسمعوا
ما سيدلى به من قول حكيم . وتفضل فأوضح للسيد أناستاسى كيف أن
ذكور الطير تغرد لإغراء الإناث . فتلك الذكور مثل العاشقين الذين
يعزفون الموسيقى بالليل تحت نوافذ عشيقاتهم .

وأضاف الصيدلى قائلاً :

- ولهذا ، يتميز الذكور أيضاً بريش أجمل وأزهى . ويحاول كل
ذكر من غير كلل أن ينتصر على منافسيه بحلاوة أغاريد المتنوعة ، وأن
يتزوج أليفته .

فتن السيد أناستاسى الساذج صافى القلب بهذا الإيضاح الذى لم
يكن قد توصل إليه عقله من قبل مع أنه يعمل تاجر طير منذ أمد طويل .
وعاد إلى البيت ، وقد امتلاً فرحاً كما لو كان يحمل كنزاً . ولما كانت مثل
هذه الأحاديث لاتناسب ابنته ، فقد أفضى بها إلى العجوز مادلينا ، التى
مالبت أن نقلتها إلى سيدتها فى اليوم التالى . ومن ثم عرفت زافيرولا ،
على وجه التقريب ، لماذا يغرد الطير ولماذا يغرد الذكر وحده ، وماذا
يعنى تغريده . شذرات فحسب من كلام الصيدلى - كما تفهمون -
وصلت إلى سمعها . لكنها بخيالها ، وبالقدر الذى كانت تعرفه عن
الناس ، وعن الطبيعة ، وعن نفسها ، أمكنها أن تدرك الأمر كله . ومنذ
ذلك الحين كلما سمعت أغاريد الطير تنسكب من ألف قفص ، رأت
عرساناً صغاراً فى أبهى ريش يحاولون بصوتهم وزينتهم أن يحركوا
عواطف عرائس عذارى صموات . وانغرست هذه الرؤيا رويدا رويدا فى
أعماقها حتى إنها صارت تتخيل بيتها كشىء شاعرى ، كجنة صغيرة
تغمرها سعادة الحب بموسيقى عذبة ، عذبة إلى أقصى حد .

وهكذا ، بعد أن عرفت من الألحان التى كان يعزفها مينيغوس أول الأمر أنه كان يهدف إلى أن يستثير حبها له بغنائها فى محل خريسوسباتى الحلاق عازف القيثارة ، قالت تحدث نفسها :

- ها هو بلبلى ... وأنا بلبلته .

ولكن لماذا لم تقل ها هو «عصفورى» أو «كروانى» أو «شحرورى»؟
لم تقل ذلك لأن فى تلك الآونة كان أحسن مغرد لدى السيد أناستاسى بلبلًا . كان ريشه خليطًا من البنى والأصفر الداكن تتماوج فيه خطوط خضراء غير زاهية . أما صوته فكان معجزة المعجزات ! لم تكن تلك الحنجرة حنجرة طائر بل كانت أوركسترا كاملة من الناي والمزامير والصفارات المعدنية . وكان السيد أنا ستاسى فرحاً مزهواً ببلبله . عرض عليه أن يبيعه بريالين - تصورا ! - ولم يقبل . كلا ! كلا ! هذا الطائر بالدنيا كلها ! سيحتفظ به لنفسه ، وسيحصل منه على سلالة طيبة . بل وقد أعد له عروساً تليق به ، بلبله جميلة لفاء معترزة بذاتها ، فاتحة الصفار حتى أنها لتبدو بيضاء . ولماذا وقع عليها الاختيار دون غيرها؟ هيه ، كان السيد أناستاسى فى مسائل الحب هذه بارعاً فى التوفيق بين المحبين ذكوراً وإناثاً . كانت مهارته تتمثل فى الجمع بين الزوجين ، وتوجيه الانتقاء الطبيعى إلى مافيه صالحه . وباعتباره صاحب السيادة المطلقة والمتصرف الأوحى فى مصائرها ، إله الروح والجسد ، كان يزوج العريس بأية عروس يريد حسنة أو هينة ، تحلو له أو لا تحلو ، وتلك البلبله الجميلة كانت من نصيب المغرد ذى الريش الجميل ، إلا إذا تدالت العروس وتمنعت عليه تمنعاً متواصلاً ، ومضت تنقره أكثر مما يحتمل عندما يدخل إلى قفصها .

وهكذا ، بعد أن استمتعت البلبل الجميلة بأغريد البلبل الغرامية الدافئة ، وضع السيد أناستاسي ، الذي كان يعرف مواسم الغرام خير المعرفة - وضع البلبل في ذات القفص مع البلبل . كانت زافيرولا في المقدمة ، بل وكانت تعاونه بحماسة ، وقالت لنفسها فرحة :

- وأنا أيضاً بالمثل ... ذات يوم ، بعد كل هذه الأغاني الكثيرة ، سيأتون لي بمينيغوس ويضعونه في قفصي .

كان بإمكانها أن تقول ذلك حقاً ، فقد كانت وحيدة والدها الذي كان بدوره أرمل ، ولم يكن ليمانع في أن يأتي زوج ابنته ليقيم معه . ولما كان مينيغوس فضلاً عن براعته في الغناء بارعاً أيضاً في النقش على الخشب ، ويشغل عند بليدي الذي كان ينتج أفخر الأثاث ويعتبر مينيغوس ذراعه اليمنى في العمل ، فقد كانت زافيرولا وطيدة الأمل في أن أباهما لن يعترض على زواجهما . ثم إنه في تلك الأيام ذاتها أخبرت إحدى خالات مينيغوس ابنة عمه لزافيرولا أن الفتى يحبها بحق وسيطلب يدها ... منذ اللحظة التي دخل فيها البلبل إلى قفص أليفته ركبه الصمت .. طوال ذلك اليوم ظل أبكم منطوياً على نفسه . وظل على هذا الحال اليوم التالي واليوم الذي بعده .

مضى السيد أناستاسي يقول :

- ماذا دهاه وحق الشيطان ! عجباً ، لم يعد هذا الطائر يغرد! على أنه عندما رآه ، ذات يوم ، في عناق مع عروسه الصغيرة ، ويتبادلان قبلة حارة خاطفة - قبلة طائرين جعلت الرأسين الشقراوين يرتجفان نشوة ، فكر العجوز وقال لنفسه مبتسماً :

- ها هو يعانق حبيبته . ما حاجته الآن إلى الغناء ؟ .

على أن هذه الفكرة الصائبة لم تمنعه من أن يتذكر غناء البلبل ويتوق إليه . وذات صباح أثناء تنظيفه قفص العروسين ، فى حضرة زافيرولا دس يده من الباب الصغيرة وحصر الأنتى فى أحد الأركان ، وربت بإصبعه على رأسها يداعبها مغيظاً . وقال لها حانقاً :

- أيتها الأنتى القذرة ، أخرجت بلبلى ! أصبحت ثقيلة على قلبى !

كان السيد أناستاسى يعرف من خبرته على أى حال أن الطيور عندما تتزواج تكف عن الغناء . وعلى الرغم من حزنه للصمت الذى حط على بلبله لم يدهش كثيراً مما ألم به . أما زافيرولا التى لم يكن لها ما لأبيها من خبرة ، فلم تكن تدرى كيف تعطل الأمر . وكانت تقول للعجوز مادلينا ضاحكة :

- إنها لاتهىء له أسباب الحياة الرغدة . لقد انكمش المسكين ولم ينبس بشيء .

وكانت مادلينا تجيبها قائلة :

- لا يعنينى الأمر فى شيء ! بالعكس ، قلت الجلبة التى تخرق أذاننا صوتاً واحداً !

فكرت زافيرولا ملياً ، وقالت لنفسها :

- على أى حال ، سأهينى له أنا أسباب الحياة الرغدة ، ولن يتوقف غناؤه أبداً ! أبداً ؟! ياله من قول كبير ، هذا الذى قالته زافيرولا الصغيرة ! .

فى المساء غنى مينىغوس ألقى أغنياته فى دكان الحلاق ، وفى صباح اليوم التالى ، وكان يوما من أيام الأحاد من أبريل ، دخل بيت السيد أناستاسى عريساً لابنته .. وفى المساء لاغناء ، ولا قيثارة .. مر فحسب ببيت خطيبته ، وتبادلا حديثا حلوا من النافذة وقال لها متنهداً «طابت ليلتك» وذهب لينام ... فى اليوم التالى ، زيارة أخرى فى المساء أما بالليل فلا شىء . أصبح الفتى من شدة سعادته يعود إلى بيته الآن وينام مبكراً مثل الدجاج .. وربما كان يريد بذلك أيضاً أن يتظاهر أمام حميه بالاستقامة والرزانة . ثم ، أية حاجة به الآن إلى الغناء وعزف القيثارة ؟ لقد أنجز المطلوب ، ونال مرامه . البيت مفتوح والعروس فى انتظاره . بإمكانه أن يذهب إليها فى أى وقت شاء ، وأن يقبلها أمام مادلينا ، ويقول لها إنه يحبها . ما الجدوى من الأغنيات إذن ؟

وفى غمرة الفرح والسعادة ، وربما كانتا أكبر بالنسبة لزافيرولا ، لم تنتبه إلى ذلك الصمت . وإذا كانت الآن قد فقدت الأغاني فقد وجدت القبل . وهكذا مرت الأيام فى سعادة وانشغالات هنيئة ، لأن الأحد الأخير من أبريل الذى حدد لعقد القران كان يقترب .

على أنه فى ذات يوم - وأول الغيث قطرة - دب التذمر بين الخطيبين . فكثرة الحب قد تجلب الكدر . خيل لمينىغوس أن زافيرولا تطيل النظر إلى شاب وسيم ثرى ألف أن يمر من الحى فى طريقه إلى الصيد ... وجه مينىغوس إلى خطيبته كلمة لوم ، فلم تقبلها وردت عليه بكلمة أخرى ، ومن كلمة إلى كلمة بلغا إلى حد البكاء وذرف الدموع .. أعنى أن زافيرولا هى وحدها التى بكت . وقد استبد بمينىغوس غضب

حقيقى ، ولأول مرة انصرف دون أن يقبلها ، مكتفياً بأن ألقى تحية المساء بفتور ، وبلا تنهد ...

وفى تلك الليلة ، فى غمرة أفكارها المريرة ، تذكرت زافيرولا لأول مرة البلب الذى كف عن الغناء ما إن دخل إلى قفص أنثاه ، وقارنت مرة أخرى بينه وبين مينيفغوس الذى كف عن الغناء منذ أن دخل بيتها خطيباً لها .

كانت تقول مرتبكة فى وحدتها :

- ياله من أمر غريب ! انظرى ! منذ اليوم الأول ! منذ اللحظة الأولى ! ... يبدو الأمر كما لو كانوا قد عملوا له سحراً ! ... الطائر والإنسان سيان ، إذن ... أكان مينيفغوس أيضاً يغنى حتى يحملنى على أن أدخله هنا ؟ والآن ، بدلاً من الأغانى سألقى غضبه وشتائم . وأنا التى كنت أقول .. ويل لى ! ... ويل لى !.

والحقيقة أنه لا البلب غرد ولا مينيفغوس غنى من جديد بذات الرغبة القديمة . عقد قرانهما وعاشا حياة لا بأس بها . ولم تتعرض زافيرولا لغضب زوجها وشتائم كثيراً .. بل أن حياتها لم تخل من الكلام الحلو ومن الملاحظات التى كانت تتلقاها من بلبلها فى قفصها الصغير . على أن غناؤه ، تغريده ، الذى كان يسكرها فى زمن الحب ، لم تعد تسمعه قط ... وهكذا ، بخبرة مزدوجة تعلمت زافيرولا العروس ابنة تاجر الطير قانوناً من قوانين الحياة .

الخادمان

نيقوس نيقولا ئيدس

دق الجرس ، جرى بوليكااريو يفتح الباب .

تساءلت مارتا :

- من يكون الطارق !

ألقت نظرة سريعة إلى الأرفف ومسند الأطباق . أصلحت غطاء المنضدة الذي زحزحه بوليكااريو بمرفقه من مكانه . وجمعت من أرض الغرفة أعواد الكبريت وأعقاب السجائر .

تمتعت تقول :

- رجل لا صلاح له . الكلاب والقطة يُقَوِّم سلوكها وتتهذب ، أما هو فيظن أن المطفأة توضع إلى جواره للزينة فحسب !

عاد بوليكااريو واجماً .

كان مطبقاً راحتيه الكبيرتين مثل محارة .

- إنه لغز، سمه صدغه .. سمه أى شىء آخر . أما أنا فأسميه لغزا ارتسم التفكير فى نظراته ، واغروقت عيناه فرحاً .

- مرة أخرى ، بدلا من أن أفتح الباب الصغير فتحت البوابة الكبيرة . إنها المرة الثالثة التى يحدث لى فيها هذا فى عام واحد .
لمعت عينا مارتا فرحاً .

- أجل زوجتى العجوز . فهمت إذن . خطاب ثالث .
فتح راحتيه وأبرز خطاباً .

ابتعدت مارتا من العمود الذى كانت تتركن إليه ، واتخذت وقفه احترام شديد .

- أجل ، فهمت .. إنه من سادتنا .

- لتكن الأخبار طيبة ، يا إلهى ...

- ... وبعد ذلك يقول البعض : مجرد صدغه ، أوشىء من هذا القبيل ! .. يدق الجرس كل لحظة وأخرى ، وتتكاسلين عن النهوض . أصبحت تتراخين فى أداء الخدمة ، مللت واجبك ونسيته ، وتقولين بغير اكتراث فليدق الباب . ليس ثمة أحد ... أو ربما يستيقظ فى البواب الذى كنته فأنفض الأغطية عنى وأمد يدي .. أملا فى كل مرة أن أتسلم خطابا من سادتنا .

- أرجو يا إلهى ، أن نلقاهم فى أحسن حال !

- ... وبعد ذلك يقول لك البعض إنها مجرد صدفة ، أو غير ذلك من تلك السخافات التى يرددونها !

ينهض العجوز ويفتح الباب وتسارع امرأته ، التى لم تكن تنتظر زوارا ، إلى ترتيب المطبخ ، وجمع أعقاب السجائر التى ألقاها العجوز النكد .. وبعد ذلك ... ما الأمر ؟ أخطاب تقف العجوز وتكاد تقول «أوامرك يا سيدتى» وإذا بالخطاب من أصحاب البيت ، ألا يعتبر بعد كل ذلك لغزاً ؟!

- كفى ، أيها العجوز عن فلسفاتك ، واقرأ حتى نعرف الأخبار الطبية . ألا تستطيع أن تفهم أن سادتنا أصحاب البيت مازالا بعيداً ولم يحضروا بعد ؟

- وأنت أيضاً ؟! من ذا الذى يمكنه أن يقول إن أنفاس سادتنا لا تملأ البيت مهما بعدت بهم الشقة ؟!

كانا زوجا من ذلك الصنف النادر من الخدم الذى يتزوج وتذكره الشيخوخة فى البيت ذاته ، وفيما مكرماً مثل كلاب حائزة على الرضى والمديح . شاركا الأسرة فى كل أفراحها ، وأتراحها . أعدت مارتا غرفة الاستقبال الكبيرة وأوقدت الثريات فى كل المناسبات السعيدة . وفتح بوليكاىو البوابة الكبيرة لكل الجموع البهيجة من الأصدقاء القادمين إلى أفراح البيت . على أن مارتا هى التى غطت أيضاً المرايا والثريات بالأغطية السوداء ، وأسدل بوليكاىو الستائر الثقيلة السوداء على الباب ، ونكس الرأس عند مرور الأصدقاء الحزانى القادمين لتقديم العزاء .

كم من مرة شاركا أهل هذا البيت بكاءهم على أحبائهم الذين ماتوا !

وعندما حلت الفاجعة الأخيرة ، ورحل أصحاب البيت مثل طيور مذعورة لينقل الأب والأم ابنتهما إلى جو آخر ، وينقذاه من الداء العضال الذى أطبق عليه مثل شتاء مباغت ، بقى بوليكاىو ومارتا لحراسة البيت .

كان سلوك الخادمين فى البيت الرحيب جديرا بالإعجاب .

أبيا أن يكونا مثل نبات طفيلى فى حديقة لم يعد يتعهدا بستانى ،
وأحجما عن أن يمدا إقامتهما إلى ما هو أبعد من غرف الخدم .

كل ما أقدما عليه أنهما وضعا أريكة مؤقتة ومنضدة إلى جانب
المدفأة فى المطبخ ، ونقلا من غرفتهما المقعدين القديمين ، وسلّة الخيط ،
والإبر التى ترفو بها مارتا الجوارب وتغزلها ، والكيس الذى يضع فيه
بوليكاريو تبغه .

كانا يستيقظان فى ساعتها المعتادة ، ويرتبان البيت كله ، كما
كانا يفعلان من قبل ، يوليان اهتمامهما إلى كل الدقائق التى تجعل
ترتيب البيت ونظافته على غاية من الإتقان . وكانا يؤديان كل هذه
الأعمال ، كما كانا يؤديانها من قبل ، بكل حذر حتى لاتقع جلبة توقظ
سأدتها . وبعد ذلك كانت تلبس مارتا ميدعتها البيضاء منشاة العنق ،
وترتدى غطاء الرأس وكان يلبس بوليكاريو زيه البنى ثم يمران بهدوء فى
الأروقة الطويلة لإلقاء النظرات واللمسات الأخيرة على ترتيب البيت ،
صوتها خفيض وخطواتها بلا جلبة ، كما لو كانا لا يدركان أن البيت
المترامى الأطراف خاو لا أحد فيه غيرهما ، ويتوقعان أن يظهر سيدهما
وسيدتهما عند باب غرفة النوم المغلق فى أية لحظة .

غرفة الاستقبال الصغيرة الدافئة فى الشتاء بفضل مدفأتها الجيدة ،
رتبت وأغلقت فور أن رحل أصحاب البيت . الثريا المعلقة والصورة
الكبيرة غطيت بالقماش . أما المصابيح والآنية فقد لفت بالورق - فى

غرفة الاستقبال الصغيرة هذه كان رب البيت وربته يقضيان أمسيات الشتاء الطويلة . وكانا فى جلستهما بجوار المدفأة الموقدة يتذكران بحسرة أسماء من مات من أولادهما ، ويتكلمان عن ابنهما الأخير الذى يتلقى علومه فى الخارج بلهفة حلوة ، وعن أصدقائهما المبجلين بمودة ، وخدمتهما المخلصين بكل خير .

مضت سنة دون أن تفتح غرفة الاستقبال هذه مثل سائر الغرف ليتجدد هواؤها وتدخلها الشمس .

كانت روحاهما الساذجتان اللتان ماكانتا تخنوان من عمق تشعران بأن جو غرفة الاستقبال هذه مازال يحتفظ بالكثير من سيديهما ، ولهذا كان يجب أن يحافظا عليه .

كان بوليكارىو يقرأ الخطاب متأثراً حزيناً . كان مكتوباً بخط سيده ، وأخذ صوت بوليكارىو يكتى رويدا ، رويدا النبرة المقنعة التى كانت لصوت سيده عندما كان يوجه إليهما حديثه . وقفت الخادمة تنصت فى وقار عميق .

كان يحكى تطورات المرض الذى ألم بالسيد الصغير :

... " إنه الآن بخير ، لاخطر عليه ، فقد دخل مرحلة النقاهة .

لم يرد الله أن يتركنا بلا أولاد ، حمداً لله .

- حمداً لك ، يارب .

.. "لكن يجب أن نبقى هنا بعيداً عن بيتنا ، وقتاً مازال طويلاً ،
سنة أخرى ، أو ربما أكثر من ذلك . الجو مناسب ، والأطباء أكفاء ،
وإمكانات العلم وفيرة . هنا ، سنحارب الموت حتى النهاية ."
- أمين ، يارب !

ثم سأل سيدهم الطبيب عن صحتهما ، وعما إذا كان الوكيل يتأخر
فى دفع راتبيهما وتدبير كل مايلزم لمعيشتهما ، وهو ينصح بوليكاريو
أيضاً بالأى يقترب على نفسه فى شىء ، فأنبذة القبو تحت أمره ، وليدخل
من تبغها مايشاء .

- هذا من كرمك ، ياسيدى .

وفى ذيل الخطاب ، كتبت ربة البيت أيضاً بضع كلمات بخط يدها .
" عزيزتى مارتا عرفت مما تطالعا به الصحف أن الشتاء عندكم
هذا العام كان أشد ، لكننى أرجو أن تكون مدفأتنا فى غرفة الاستقبال
الصغيرة بخير على الدوام ، وأن تبعث الدفء فى أوصالكما وبطبيعة
الحال ، ستعود القطة الصغيرة التى كنت تشكين من أنها لاتستقر فى
البيت ، وستنعم بالراحة إلى جوارك . إن وشاحى الأسود ذا النقاط
البنفسجية يصلح لك ضعيه على كتفك . إنه من الصوف الخالص
وسيدفئك .

- ياسيدتى الحبيبة الغالية ! .

ارتبطت الفرحة لسماع الخبر الطيب عن صحة السيد الصغير ،
والحزن على تأخرهم عن المجيء ، بشعور ثالث نكس الخادمان رأسيهما
فى صمت وقد غمرهما إحساس بالحياء العذب الذى ينتاب الناس
البسطاء عندما يوجه إليهم مديح كبير .

تمتم بوليكارىو بعد برهة طويلة :

- حقاً ! عشنا فى البيت كما لو كانت تنقصنا الثقة بالنفس ،
ونخشى أن نكون قد أسرفنا فى استهلاك محتويات القبو ، وأن تكون
غرف الاستقبال قد اتسخت من لمسنا مفروشاتها .

- لم نفتح القبو مرة ، ولم نلق على مابه نظرة قط .

- هلا فتحنا غرفة الاستقبال الصغيرة مثلاً لنرى حالها ؟!

استعدا فوراً للعمل . شمرا عن سواعدهما ، وفتحوا غرفة
الاستقبال الصغيرة .

- ياه .. ياه تراكم التراب فى أرجائها بشكل مخيف !

- حمداً لله على أى حال كان من الممكن أن تسيل المياه من المدخنة
إلى المدفأة ، فتسبب تلفاً جسيماً هنا !

فتحوا النوافذ . حملا الطنافس إلى الخارج . نظفاها ، وكنساها ،
ثم نظفاها من جديد . أزاحا الغطاء عن الثريا ، المرآة ، والصور . فضا
الورق الذى لفت به الشمعدانات والآنية . ولا يذكران أنهما قد اشتغلا
بهذه السرعة منذ أن بقيا وحدهما فى البيت قط وقد مضت منذ ذلك

الحين سنوات عديدة . انكبا على غرفة الاستقبال الصغيرة بالحماسة
التى يقبل بها المرء على عمل تلجئه إليه ضرورة عاجلة . لم يكن كل
منهما يفتح فمه بكلمة إلا ليأمر الآخر بعمل .

فرشا الطنافس ، وتبا الغرفة بعناية فائقة . وقبل أن يهبط الليل ،
كانت غرفة الاستقبال الصغيرة معدة تماماً .

كما أوقدت مارتا المدفأة . ووضعت بُناً طازجاً وقطعاً من السكر
فى علبة البن على منضدة صغيرة قديمة بالقرب من المدفأة ، حيث ألفت
سيدتها أن تجهز القهوة كل ليلة لزوجها .

ملاً بوليكارىو الساعة التى كانت قد توقفت منذ اليوم الذى سافر
فيه أصحاب البيت .

أصبحت غرفة الاستقبال الصغيرة جاهزة تماماً ، توهجت النار فى
المدفأة . دفع بالمقعد الجلدى العميق ليزداد اقتراباً بعض الشيء من
المدفأة وكذلك دفع بالمنضدة الخفيضة بما عليها من تبغ رب البيت .

وقبل أن يغادرا الغرفة وقفا وقتاً يفكران ، ثم تلاقت نظراتهما .

- .. ألا يخيّل إليك بدورك أن السادة سيأتون بين لحظة وأخرى ؟!

- أجل !

أغلقا الغرفة، ومضيا إلى المطبخ لتناول الطعام . نزل بوليكارىو إلى
القبو وأحضر زجاجة من النبيذ .

- ياه ! ياه! عششت العناكب فى كل الأرجاء .

وقالت العجوز :

- حمداً لله على كل حال . كان يمكن أن تدخل المياه من الفتحات ،
وعندئذ كنت سترى ماذا كان سيحدث هناك .

تناولا طعامهما على عجل دون أن ينبسا بكلمة . لكن مارتا لم
تتعجل وضع إناء القهوة على النار، ولم تبسط الغطاء الداكن على
منضدة المطبخ ، وتحضر السلة التى بها كرات الصوف وإبر الجوارب ،
بل نهضت وذهبت إلى حجرتها لتغير ملابسها . فضت أيضاً الميدة
الموشاة بالدانتيلا المنشأة لتلبسها ، لكنها صرفت النظر عنها . أشعلت
قنديلا ومضت إلى غرفة سيدتها . فتحت دولابا ، وأخذت الشال الأسود
ذا النقاط البنفسجية ، واجتازت الباب الداخلى إلى غرفة الاستقبال
الصغيرة .

كانت الغرفة مفحمة بدفء حلو ، والمدفأة مليئة بقطع الفحم
الصغيرة . أضاءت مارتا مصباحين من مصابيح الثريا . وضعت إناء
القهوة على المدفأة ، وتدفرت بالشال الثمين ، ثم جلست على الأريكة
الركنية الخفيفة . كما تناولت الكتاب المقدس المجلد بالقטיפه القرمزية ،
الذى كانت تقرأه سيدتها كل ليلة . فتحتة حيث طوى على شريط تدلت
منه صلبان الأولاد الصغيرة ، وأخذت تقرأ .

سمعت فجأة خطوات زاحفة .

- إنه السيد ! .

وهبت واقفة ! .

فتح الباب ببطء ، ودخل بوليكاريو .

شهقت شهقة عميقة ، وصاحت :

أوه الصعلوك ! .. لبس خفى سيده! .. لكنها سرعان ما جال
بخاطرها خاطر وأردفت تقول : "فليعودوا بسلامة الله .. ولا يهم بعد ذلك
ألا يجد السيد خفا يرتديه " .

قال بوليكاريو :

- المدفأة الخالدة .

وجلس في مقعد سيده العميق .

قالت مارتا :

- حقاً ، ليس عندنا في البيت مدفأة أخرى مثل هذه .

وأخذت تعد القهوة ، ثم قدمتها إلى زوجها ، وعادت تجلس في
مقعد سيدتها الخفيض .

قال بوليكاريو ، وهو يأخذ بعض التبغ من على المنضدة الواطئة :

- عزيزتي ، ألا تعتقدين أنت أيضاً أن بإمكان الناس أن يزدادوا

تقارباً .. أعني أن يمدوا أيديهم إلى بعضهم ، ويحيوا في ثقة ومحبة ؟!

دس سيجارة فى مبسمه ، وأشعل عودا من الثقاب . مضت مارتا تتطلع إليه . نفخ فى عود الثقاب وأطفاه . جذب إلى جواره منفضة ، وألقى به فيها .

تمت مارتا تقول :

-- هذا أمر صعب التصديق !

وتساءلت :

- كيف حدث هذا ، ولم يلق بعود الثقاب على الأرض المغطاة بالطنافس ! أردف يقول وهو يرشف من قدحة رشقات خفيفة :

- يمكن للمرء أن يقول نسى البشر أنهم طريدو الله الحق اليوم . حقت عليهم لعنته بأن يأكلوا خبزهم بعرق جبينهم . أجل . وهم يتصرفون كما لو كان الذى لايموت قد مات دون أن يخلف وصية ، وانقض الورثة المطرودون على ممتلكاته وخطف كل منهم ما أمكنه خطفه .

عادت مارتا تتمتم من جديد دون وعى منها وهى تنظر فى دهشة إلى زوجها الذى كان ينفذ رماد سيجارته فى المنفضة :

- هذا أمر صعب التصديق .

اكتست حركاته وكل تصرفاته - جلسته فى المقعد العميق - مده لساقيه نحو المدفأة - بمسحة من الرقة والأدب تذكر بسيدهما إلى حد بعيد .

- وإنى .. لأفكر ، ياعزيزتى ، فى كل تلك المنظمات التى تعتمد بدلا من أن توثق أواصر الصداقة بين الناس - تعتمد إلى إيقاع الفرقة بينهم بتقسيمهم إلى شيع وطوائف ، وتحاول أن "تؤلب البعض على البعض" .

كانت العجور ترقب زوجها باستغراب. لقد تصادف أن سمعته كثيراً يتناقش بجوار المدفأة فى المطبخ مع خدم من زملائهما عن "منظمات" و"طوائف" لكن الكلام كان يخرج من فمه الليلة مختلفاً . كان أسلوبه فى الحديث لنا هادئاً .. وكل إيماءاته وسكناته تذكر بسيدهما .

- ما أجمل حديثك الليلة ، يا عزيزى بوليكارىو .. إنك تتكلم مثل .. أكمل عبارتها قائلاً فى تواضع وهو يضع عقب سيجارته فى المنفضة ويضغط عليها بالكيفية التى كان يضغط بها سيده على سيجارته ليطفئها :

- مثل كل رجل عاقل .

خيم الصمت .

كانت مارتا تقرأ الكتاب المقدس نهض بوليكارىو ، وتمطى ، تناول مسبحة سوداء وأخذ يذرع غرفة الاستقبال جيئة وذهاباً .

وقف لحظة إلى جوار المنضدة فى الركن. ومن خلف إناء زجاجى يغطى ببغاء محنطة أخذ مظروفا من ورق شمعى وأخرج منه قطعة مربعة من خشب الجوز منقوشة ومطلية بالألوان وبماء الذهب. مسحها فى عناية بمنديله ، ووضعها بإجلال فوق المدفأة بين باقتين من الورد المصنوع من الشمع غطيتا بإنائين زجاجيين .

عاود الجلوس فى المقعد الجلدى . وأشعل سيجارة ثانية . منذ اثنى وثلاثين عاما عندما دخل الخدمة فى هذا البيت الثرى رأى قطعة الخشب المحفورة مطوية داخل صندوق ، وسأل سيده العجوز "ما إذا كان هذا الوحش الذى نقش عليه يمسك بدرع الأسرة؟" وأجابه سيده هذا محتمل جداً وعندما زال عنه خجله قال له : فى بيت السيد كونتى الذى كنت أشتغل عنده يضعون الوحش الممسك بدرع الأسرة فوق المدفأة ، وهو منقوش أيضاً بأعلى الباب الخارجى ، وعلى أزرار الخدم . وعلى الملاعق والأشواك .." وقال له سيده العجوز "ها هو درع عزتى .. أحتفظ به فى قلبى وسترى أن حبه سينحفر رويدا رويدا فى قلبك أيضاً!" وأشار إلى ابنه الذى كان يصعد الدرجات مع ولديه الأولين .

كفت مارتا عن القراءة. ظلت ممسكة بالكتاب المقدس مغلقاً وراحت تتأمل فى حزن الصليبان الستة المدلاة من طرف الشريط .

استدار بوليكارىو ورآها . خطر له خاطر .

- إنها السيدة بذاتها! تلبس شالها ، وتجلس فى مكانها .. بل إن كيفية جلوسها .. ونظراتها! .. كائننى أرى سيدتى فى كامل عزها وأبهتها! .. ألا تقولين شيئاً يا عزيزتى؟!

أجابت بحزن عميق :

- يا صديقى ، أفكر فى السنين التى كان البيت فيها عامراً .. عامراً بالأولاد! أما الآن ، فقبضتى تمتلئ بصليبانهم فحسب! ..

قال بوليكارىو لنفسه :

- إنها السيدة بذاتها !

وراقبها وهى تبسط الصليبان الصغيرة فى راحة يدها ، وتنطق
بأسماء أولاد سيدتها الخمسة الذين ماتوا :

- كأنى أسمع سيدتى وأبصرها أمامى !

طوت مارتا الصليب السادس فى قبضتها بقوة. وقبلته برفق.
ونطقت فى اهتمام وحنان باسم آخر أولاد سيدتها الموجود فى الغربة .

- كأنى أرى سيدتى بلحمها ودمها .

وتحدثا بحب عن سادتهما ودمائة أخلاقهم .

تذكرا أيضاً خادمين قديمين آخرين كانا " تحت إمرتهم " وأشارا
إليهما بالخير .

- كأنى أرى وأسمع سيدى ذاته !

خيم بعد ذلك صمت مديد .

فتح الباب بهدوء ، ودخلت القطة الصغيرة ، التى لم تعد تأتى إلى
البيت بعد أن سافر السادة. تقدمت بخطوات وجلة إلى منتصف غرفة
الاستقبال .. وقفت هنيهة ... وفجأة تعالى مواؤها . ثم مضت رأساً إلى
العجوز وصعدت إلى حجرها. وجدت مكانها سريعاً ، ومضت تصدر من
حلقها ذلك الصوت الذى ينم عن الارتياح والخنوع .

دقت الساعة على المدفأة معلنة الوقت ، كما لو لم يكن قد توقفت
عاماً بأسره .

- ألم يحن وقت النوم، يازوجى ؟

- بلى ... ياعزيزتى .

نهضا واقفين .

بقى شال السيدة على الأريكة، طوته الخادمة ووضعتة هناك.
رفع الخادم مسبحة سيده من على السجادة .

انصرفت القطة الصغيرة لحال سبيلها .

رتبا غرفة الاستقبال الصغيرة . وأغلقا المدفأة .

- أيتها العجوزة الصغيرة .. ألا يخيل إليك أننا دخلنا هنا توا ،
حيث كان سيدى وسيدتى يقضيان بعض الوقت قبل أن يذهبا ليناما ،
وذلك لكى نغلق المدفأة ونطفىء النور؟

- أجل .. يكاد يخيل إلى شىء من هذا القبيل .

والتفتت إلى زر الجرس الكهربائى القريب من الأريكة التى
فى الركن. رأت خيوط العنكبوت تغطيه ! أخرجت منديلها ومسحته .

- فليعودوا بسلامة الله ، حتى يتمتعوا ببيتهم العامر !

ذهبا إلى غرفتهما . وأخذا يتهيآن للنوم صامتين غارقين فى الأفكار.

وسقط خطاب السيد من جيب قميص بوليكاريو ، انحنى يلتقطه
فلاحظ أن بالصفحة الخلفية ، بعد تعقيب سيدتهما ، بضعة سطور
أخرى بخط سيدهما الصغير .

عجوزاي العزيزان ، صحتي تحسنت كثيراً . لن أموت . سأعود إلى
بيتنا ! إنني أذكركما دائماً ، وأحبكما . أنتما ماثلان في ذكريات
طفولتي ، وترتبطان بانطباعي الأخير عن بيتنا .

عند رحيلنا ، ألقيت من داخل العربة نظرة يائسة ، معتقدا أنني
كنت أرى فناءنا ، فرأيت عجوزي الطيب بوليكاريو يحمل معطفاً أسود
لوالدتي مغزولاً بخيوط غليظة ، وخيل إلى كما لو كان يحمل إناء أسود
مليئاً بكل دموع أسرتنا القديمة والجديدة . كما رأيت عجوزي الطيبة
مارتا تتبع والدتي وتبكي على الورود الأخيرة الشاحبة التي طلبت منها
أن تقطفها لي .. " .

الكلب الغريب

نيقوس نيقولا ئيدس

عندما دب الضعف إلى عيني الأب ، إلى الحد الذي لم يعد بإمكانه أن يميز بين العنب الرزاقى والعنب السبتي، بين التينة السوداء والحمراء انتقل عبء التعهد بالكرم إلى عاتق الابن .

ولم يكن تعهد الكرم مقصوراً على فلاحته ، وجعله بستاناً خصباً مرموقاً لجودة ثماره ، كما كان حاله بين يدي جده الأكبر بل شمل تخليصه من الدين أيضاً والحق يقال إن أباه قد تلقى الكرم من جده فى حالة متدهورة ، لكنه بدلاً من أن يبذل جهده ليصلح من شأنه ، استبد به شغف بأشجار التين ، ومضى فى اهتمامه بزراعة التين على اختلاف أنواعه مهملاً بذلك زراعة العنب. وكان ينبغى أن يمضى بالقليل من النبذ الذى ينتجه الكرم المتدهور ليبيعه فى الأسواق المألوفة التى كان يبيعه فيها أبوه نقداً غير أنه كان يذهب إلى حيث يصل إلى علمه أن ثمة فصائل جيدة من التين. وكان يدفع غالياً فى سبيل الحصول على شتلات ولواقح ، وانصرف يغرس أشجار التين حينما يجد موضعاً حول

الجدار . ولم يكن الضرر كبيراً وعندما تكاثفت تلك الأشجار وضيقَت الخناق على عرائش الكرم كان كلما عثر على صنف جديد يزرعه كيفما اتفق له حتى ازدادت تلك الأشجار وتغشت الكرم بظلها .

وأصبح كرم سيمون العجوز مشهوراً بمختلف شجر التين الذي احتفى بها، الأثيني الملوكي اللذيذ ، التارنافوتي الأسود الكبير، الأسبتسيوتي الأبيض المعسول، الكلاماتى والكيمياكى والأندريتى والأرتينى. تين كبير الحجم وآخر صغير ، أسود أو أبيض . أحمر أو غامق. مستدير أو بيضاوى ، بعضه يؤكل جافاً والبعض يؤكل طرياً أكثر من خمسين صنفاً من أشجار التين ! .

ولكن الربيع الذى كانت تدره كان ضئيلاً لأن أغلب أشجار التين ، على الرغم من عناية سيمون العجوز لم تكن تؤتى ثمراً كافياً . ولم يعد كرم أبيه الهرم الأعجف يعطى شيئاً يذكر بعد أهماله واختناقه فى غمرة أشجار التين. وعندما رهن العجوز سيمون هذا الكرم لتدبير نفقات الحج إلى بيت المقدس ، فإن عرائشه بدت كأنها قد توقفت عن الخصب فى غمرة يأسها .

وعندما أخذ الابن على عاتقه تبعات الدين ورعاية الكرم لم يكن باستطاعته أن يفعل شيئاً ، كان ينقصه المال ، ولكى ينصلح حال الكرم ويدر ريعاً كان يتطلب أيادٍ تجهد فيه .

وأطبق العمى على الأب وازداد الدين يوماً بعد يوم ، فإن أتعاب الأطباء ودعيات الطب فى نهاية السنوات الأخيرة العجاف التى لم تدر

حتى ما يسد الفوائد - كل هذا جعل الدين يزداد ويستغرق كرم سيمون العجوز بأشجار التين الذائعة الصيت .

وكان الابن وزوجته ينتحيان جانبا ويتحدثان عن هذه المشكلة حديثا هامسا ، وقد انتهيا إلى قرار لم يريا سبيلا إلى غيره ، ألا وهو أن يبيعا الكرم وبما يتبقى يستأجران عمالا ويشاركانهما في زراعة حقل كان قد انتقل إليهما ميراثا عن بعض أقارب الزوجة .

ولقد كان المشترون العامرة جيوبهم بالمال المحبون للظهور كثيرين في البلدة وعلى استعداد لشراء الكرم الذائع الصيت على أن الابن كلم واحدا من البلدة المجاورة ، رجلا من الأعيان ذوى الثراء ، شبعان العين سمح النفس واليد ، لأن الابن فكر أنه مع بائع من هذا القبيل يمكن أن تظل البيعة خافية على الضرير وجرى الاتفاق سرا وذهبا إلى البندر للقيام بالإجراءات القانونية .. وانتقل كرم سيمون العجوز بأشجار تينه الذائعة الصيت إلى أملاك المشتري وحوزته .

وبعد قداس الأحد أعلن القس الخبر من الهيكل وأوصى الحاضرين "باسم المسيح والعذراء" أن يظل الأمر سرا ، وبعد الظهر تداول القرويون الأمر في السكة ثم في المقهى ليلا ووعد الجميع بكتمانه عن الضرير .

ومنذ اليوم الأول ربض كلب المشتري في الملك الجديد ، أما في بيت الضرير فقد بدأت الحياة الغريبة .

كانت النيات طيبة .. لكن إلى متى تدوم المغالطة ؟

* * *

وقد انتحى بالحفيدين جانبا وكُما فى الأمر وكُفا بما يجب عليهما نحوه وقام الابن والزوجة وقد حملت أصغر الأحفاد بين أحضانها بتلقيهما الكذب. وإذ كان الصغيران فى السن التى يعد فيها الكذب ميلا طبيعيا فقد طمأنا ذويهما من ناحيتهما وكانا يبتدعان من فورهما ردا ماكرا على كل سؤال عنَّ للجد أن يوجهه إليهما. ولكن الضحك على الضرير لم يكن ، سواء بالنسبة للكبار أو الصغار ، على تلك الدرجة من السهولة وقد ثبت ذلك من الليلة الأولى .

وعندما دخل الابن البيت ألقى تحية المساء بتثاقل ، وأدار الضرير نظرتة المنطفئة فى الجميع وسأل باهتمام لم ينقطع من تلك اللحظة ، ماذا بكم ؟ .. ماذا جرى ؟ .

وقد أثارهم جميعا هذا السؤال لأنهم ماكانوا يتوقعون أن الصراع سيبدأ بهذه السرعة .

– لماذا تصمتون؟! منذ وقت طويل وأنا أريد أن أسأل زوجة ابنى .. والأولاد.. ماذا بكم ؟ ماذا جرى يابنى ؟ !

وبغير انتظار جواب قال :

– لايمكنكم أن تخفوا عنى .. قولوا لى .

– الله !. ماذا يمكن أن يكون ؟

وأضافت المرأة بدورها قائلة على عجل :

– ماذا يمكن أن يحدث لنا ؟!

ولكن النبرة المرحة التي جاهدت لكي تدخلها على تصنعها للعجب
لم تجد نفعا. وأطرقوا واجمين ، لأن العينين الضريرتين تسمرتا عليهم
كما لو كان باستطاعتهم أن تكتشفا آثار ذلك القلق الذي يحاولون
إخفاءه في تلك اللحظة !

وقال الولدان :

- لا شيء ! يا جدى ! لا شيء !

ثم سارعا إلى القول أيضا فى مكر :

- يا جدى ! لقد تشاجرا ..

- تشاجرا منذ وقت مبكر وهذا هو السبب!

وتنهد الابن وزوجته بارتياح ! ونظرا إلى ولديهما بامتنان ولكن بعد
هنيهة هز الضرير رأسه وتمتم قائلا :

- كذابون ! .. كذابون ! .. أنتم كذابون .. أنتم كذابون .

ورأى الابن وزوجته أن من الواجب أن يناصرا ولديهما مؤكدين
الكذبة .. فأخذا يسردان بحماسة قصتهما ، قصة شجار مبنى على
سبب زائف ويتشاكيان ويتشاحنان ، ولكن الضرير فى نهاية هذه المهزلة
البشعة عاد يتمتم قائلا: كذابون ! كذابون ..

وفجأة رفع صوته ملوحا بإصبعه وقال مؤكداً :

- لن تضحكوا على لن تخفيكم عنى غشاوة عيني !

وصعدت الدماء إلى وجهه واحمرت عيناه الزرقاوان وزادت
حدقتاهما اتساعا وتسمرتا عليهم .

ولم يقو الابن على احتمال هذه النظرة العمياء التي اخترقت أعماقه
وكاد يخر راكعا على ركبتيه ويصرخ : أجل ! يا أبى ! معذرة ! اغفر لى
.. اغفر لى وانخرط الحفيد الأكبر ، فى بكاء شديد .

واشتدت ثورة الضرير وندت منه صيحات عالية : آه ! آه !

ولكن الحفيد الثانى جرى بغتة إلى جواره وقال له :

- جدى .. سأقول لك .. إن يانجو ارتكب غلطة .. غلطة كبيرة ..
فعلة شنعاء .. أسمع يبكى ؟

وكان ذلك مفاجأة ! وأصيب الأب بما يشبه الذهول ، وانخرطت
الأم فى نحيب خافت وأمعن يانجو فى بكاء أشد كما لو كانوا يشدونه
من شعره وأحنى الضرير رأسه .

- أوه .. أوه غلطة .. غلطة كبيرة .. فعلة شنعاء ، حفيدى الأكبر
هذا هو السبب إذن ؟ هذا هو السبب إذن ؟ بوى أن أكون قد أخطأت ..
اعتقدت أن السبب هو الدين .. غلطتى أنا .

ومن العينين الضريرتين انحدرت دمعتان .. !

وخطا بضع خطوات مقتربا من الولد على هدى من صوت بكائه
وربت على رأسه قائلاً :

- صه .. صه .. ارتكبت غلطة إذن !

- أجل ! أجل .. ولن أتحرى لأعرف .. اعتقدت وقتاً طويلاً أن السبب كان غلطتى أنا .. لقد اقترضت نقوداً بفائدة .. استدنت .. ثم أطبق على بعد ذلك المرض .

- أبى !

- أبت !

- أيها الجد !

- جدى .

- حسن ! حسن ! لن أحدثكم ولا عن غلطتى أنا .

ومضى متحسباً وجلس فى ركنه مطرق الرأس كما لو كان يصغى إلى حديث يدور فى أعماقه .

- لاتفكر ، يا أبى ، فى الدين .

- حسن ، يابنى ! أعرف ! أخذت العباء كله على عاتقك ، ولا تريدنى أن أكلمك عنه .. أنا واثق - ستسدد ما على الكرم من دين وترد إليه الحياة من جديد أنا بدورى تلقيته من أبى مدينا وفى حالة متدهورة .

وأردف الابن قائلاً :

- لاتفكر يا أبى ، فى الكرم .

ولكنه عض شفته نادماً فى اللحظة ذاتها التى نطق فيها بهذا القول لأنه سمع صوت ضميره يجلجل بين ثنايا كلامه .

ورمقته الزوجة بنظرة ذات مغزى وجرت لتضع ميخو الطفل على
ركبتي الضرير فى اللحظة التى سأل فيها قائلاً :

– لماذا ؟ لماذا ؟

وقد عاد يحدق بعينه .

ومد ميخو يديه الصغيرتين جاذبا لحيته وقد تهته لأول مرة بكلمة
"ج ج جدى" وضحك الضرير ، وضحك الجميع وانفرجت أسارير الوجوه
المقطبة ، ولكن ذلك لم يستغرق إلا دقيقة لأن الضرير عاود سؤاله
بالانزعاج ذاته ، على أن الابن أمكنه فى هذه الأثناء أن يجد رداً .

– أقول لنفكر فى أولادنا لا فى الكرم .

* * *

ولبضعة أيام كانت كلمة ميخو الجديدة تتردد فى كل لحظة فتملاً
الجد بالسعادة وتخفف من أحزان الأب والأم والأخوين اللذين شرعا منذ
الليلة المفجعة يحسان ويفكران كالرجال وكان كل منهم يخشى البقاء
وحده مع الضرير ، ويسعى أن يكون دائماً فى حضرة الآخرين حتى
يكونوا جميعاً على أهبة الاستعداد للدفاع عن سرهم على أفضل وجه .

وكم من مرة عندما رأت الأم شففى الضرير تختلجان، ظنت أنهما
ستنفرجان سائلتين عن الكرم .. عن أشجار التين – أشجار التين التى
مضى المالك الجديد فى اقتلاعها الواحدة تلو الأخرى – فتبادر إلى هز

ميخو لتوقظه من حضنها ثم بدأوا يصلحون حقل العنب الذى ورثته الزوجة ودخل فى روع الضرير أن العمل كان يدور فى كرم أجداده. ومضى العمل قدما وروضت الأرض المتوحشة يوما بعد يوم ، وفى الليل عند العودة من حقل العنب الجديد وقد أفعمت القلوب بالإحساس العذب الذى يحسه الأبوان المسنان اللذان عندما يفقدان فتاهما اليافع يديران أنظارهما إلى صغيرهما الأخير يحدوهما الأمل - عند العودة من حقل العنب الجديد كانوا يحاولون جاهدين إعطاء ردود مسكنة لقلق الضرير ولغوه ، لأسئلته ونصائحه .

بالطبع لم يكن الضرير فى هذا الوقت أكثر اهتماما مما كان عليه فى الأعوام الأخرى. فمئذ أن أصيبت عيناه ولزم الدار لم يكف يوما عن أن يسأل ويسدى النصح : " خذوا بالكم من أشجار التين مثل عيونكم " .. وكان يعرف المواسم والتواريخ التى يبدأ فيها كل عمل. وكان ينصح أو يسأل عسى أن يكونوا قد نسوا هذا الشئ أو ذاك : " الوقت شتاء .. احفروا الأرض من حولها وضعوا لها السماد " .. " لو رأيتم على إحداها عفنا أبيض .. اقتلعوها من جذورها واحرقوها .. إنه مرض وقد يعدى الأخريات .. طهروها من الشوائب التى تنبت حول الجذور ومن الأغصان التى تنمو دون أن تعطى ثمارا " .. " أقبل أبريل .. قلبوا الأرض من حولها " .. " التى أصيبت بالمرض عالجوها .. لاتضعوا بترولا كثيرا ، نقط رغوة الصابون يجب أن تكون كثة وادعكوا بقطعة من الصوف الساق والأغصان والفروع " .. ولم يكن ينسى عرائش الكرم فى نصائحه : " إنها فى حاجة إلى تعهدا بالرعاية طوال العام وبالتراب ..

قد صرفنى الشغف بأشجار التين عن الاهتمام بها .. أما أنتم فلاتهملوها " . وفى أول الأمر كان الابن وزوجته يجيبان على كل هذا بحماسة قائلين : " هذا فى متناول أيدينا وسنقوم به " . ولكن قلقهما أضحى الآن أمرا لا يطاق .. كان يفتك بهما فتكا .

وكان الضرير يسألهم كل ليلة ماذا فعلوا ، وكيف تبدو أشجار التين والكرم . ولكى يجيبوا إجابات صحيحة ، كانوا عند عودتهم من حقل العنب الجديد كل ليلة يقومون بجولة أخرى مارين بكرم سيمون العجوز . وكانوا يتلكأون فى الطريق ويطلون من على السور ملقين نظرات ملؤها الألم على ما بذله أجراء المشتري فى الأرض من جهد وكانت نظراتهم تضحى شريرة على الرغم منهم . وكان كلب المالك الجديد يلوى ذنبه بين فخذه ويرمقهم من طرفى عينيه .

ومر خريف وشتاء وربيع .

وزقزق الجدد .

وخرج الضرير إلى الشرفة ووقف يستنشق الهواء بقوة فى مواجهة سفح الجبل الذى يشبه ساقى ملكة ضخمة تمددت لتجف من البلل فى الشمس وفى الوسط كان الكرم الذى احتفظ باسمه على الدوام . وقد تحرر الآن من أشجار التين الكثيرة وتخفف من كثافتها وازدحامها فأخذ يسترد عافيته . وبدا مثل قطعة من التطريز الغزير تحلى المنزرة الملكية . ومن حوله حقول الكرم الأخرى مثل دانتيل حافلة بالخروم ، وفى أحد الأركان حقل الكرم الجديد الذى يزرعه الابن فى أرض الأنسباء كنجم

طرز بفرز متباعدة واهية ونظر الابن والزوجة والحفيدان إلى الضرير
بعدم ارتياح لا مثيل له .

- كما لو كان يتوجس شرا ..

- كما لو كان على وشك أن يكتشف أمرا .

- ميخو .. ميخو .. تعالى لجدك يريدك .

قال الضرير بعد صمت ودون أن يحول نظرتة عن الكرم :

- أرى .. منذ وقت قريب لاتفارقنى صورة كرمى .

- ميخو ميخو أبى ، ناد ميخو ، إنه يطل من حافة السطح فى

وضع خطر ، فى وضع خطر .

وصاح الضرير :

- ميخو ، تعال .

وجرى ميخو الذى كانت قد اشتدت ساقاه الصغيرتان وانفك لسانه

الغرير من عقاله فى الآونة الأخيرة - جرى إلى جواره وربت الضرير

على شعره وعاد يقول :

- أجل .. أقول لكم منذ بضعة أيام أصبحت أرى كرمى .. وأضاف

يقول متنهداً :

- فى حلمى ! .

وقال له الابن ليثبط من إيمانه بالأحلام :

- أه ! يا أبى ! ما الذى يمكنك أن تراه فى حلمك ؟

ولكن الضرير أخذ القول على محمل آخر وقطب جبينه منكمشا .

وبعد قليل غمغم قائلا وقد داخل صوته النحيب :

- أجل .. إنه لأمر مخيف .. ولكن أين تتاح لى الرؤية ، وأنا ضرير ،
إلا فى الحلم وفى مخيلتى ! ..

ورفع صوته فجأة ، وأدار جسمه ، وانفرجت أساريره ، وأضحى
محياء فى مواجهة كرمه - نحو بستان سيمون العجوز "وأخذ يتنسم
الهواء كجواد تائه فى الظلام" وحدقت عيناه الضريرتان كأنهما تريان
بعيدا جدا - بعيدا جدا .

وسأل الضرير بصوت منطفى :

- ألسن قبالة كرمى ؟ وتمتم قائلا دون أن ينتظر إجابة : عجبا ..
كأننى لم أكن تلقاء كرمى .. وصاح الاحفاد الثلاثة بصوت واحد :

- بل أنت ، يا جدى ! أنت قبالة : لكن الضرير قد أدار نظرتة إليهم
فجعلهم يصعقون . ثم وجد يانجو ، الحفيد الأكبر ، قليلا من الشجاعة
وعاد يقول :

- إننا لانكذب عليك .. أنت قبالة كرمنا .. لكنك تنحرف عنه ..
هكذا الآن أنت قبالة الكرم .. أقسم لك ! .

وقال الضرير :

- كلا ! .. كلا! .. فى هذا الاتجاه أرض أنسبائنا .. واستدار وقد
ملاه الغضب نحو ابنه وزوجته .

- ألم يكذب على هذا الولد السيئ ! ؟

ووقف الأب الأم وقد خيم عليهما الصمت :

- جدى ، ها هو كرمك ! .. جدى ، أنا سأدير رأسك نحو كرمك ..
وتسلق الصغير الكرسي ومد يديه وأدار رأس الضرير نحو "كرم سيمون
العجوز" وسأل الضرير بعد هنيهة :

- هل اجتثت كثيراً من أشجار التين ، يابنى ؟

وبدا صوته للابن كأنه متأكد مما يقوله ويجأ بالشكوى .

- أبتاه ! .

وعاد الضرير يسأل وقد امتلأ غضبا من جراء الإجابة التى كان
متأكدا أنه سيتلقاها .

- أكثرها ؟!

- أبتاه !.

- كلها ؟.

- أبى !.

وكان الابن على وشك أن يخر عند قدميه معترفا ، مستعفيا من الصراع ، لكن ميخو تعلق بلحية الضرير وصاح :

- جدى هناك شجيرات تين كثيرة فى كرمك كثيرة .. ولكن هناك أيضاً كلب .. كلب ينبع .

* * *

ومرت بضعة أسابيع وخبا الصيف ، وبدأت حبات العنب تتلألأ على العناقيد ،

وقال الضرير فجأة ذات ليلة :

- غدا ، سأذهب معكم إلى الكرم .. وضايق هذا الجميع . وأوقعهم فى ارتباك فلم يمكنهم أن يجيبوا إلا بكلام قليل فيه مهمة وحيرة .
ماعدا ميخو الذى هتف فرحا وصفق بيديه .

- أجل ، يا جدى .. أجل ، يا جدى .

واستطرد الضرير قائلاً :

- خذوا غطاء وافرشوه لى فى الظل .

- أوه . يا أبت .. ما الذى يجعلك تريد ذلك وأنت رجل ضرير .

وقال الحفيد الأول :

- انتظر قليلا حتى ينضج العنب .. والتين .. وجرى الحفيد الثانى وأطبق على فم الصغير الذى كان يصيح وهو يقفز طربا :

- أجل يا جدى .. أجل يا جدى نذهب لنضرب الكلب .

- وقطب الضرير حاجبيه ، وخيمت على وجهه غمامة ، وخرج احتجاجه من فمه هادرا :

- لماذا لا تريدوننى أن أجيء إلى كرمى ؟ .. إيه ؟! لماذا ؟ .

ووجد الابن من الأهون عليه أن ينفجر وقد أسقط فى يده ولم يعثر لنفسه على دفاع أو حجة يسند بها رفضه :

- لكن .. يا أبت ! ... هل أنت بعقلك ؟! .. تريد ، وأنت رجل ضرير ، أن تتجول فى الجبل ! ... آه ! ... والله ! إنك لاتطاق .. آه ! .

وتسمر الضرير أمام ابنه صامتا لكن نظرتة العمياء المتهمة نزلت عليه كالصاعقة ، ولم يكن فى طاقة هذا الأخير بعد ذلك إلا أن يمضى ممعنا - لم يكن ثمة مخرج آخر .

- آه ! ... والله ... لقد اتعبتنا بكرمك ! .. فلتحرقه النيران ! .. تسلمته متدهورا .. مثقلا بالدين .

وأومات إليه الزوجة : " اسكت .. أشفق عليه .. لاتقل له .. ستقضى عليه ... وخرج الزوج وقد صفق الباب الخارجى وراءه فى عنف .

وانكمش الضرير ومضى يجلس فى ركنه منزويا ، وذهب ميخو إلى جواره ، وشب على أطراف قدميه ، ورفع قامته ، وأشرأب عنقه ، ومط شفتيه وقال له بصوت منغم ملاطفا كما يلاطفون الأطفال الذين يحتاجون إلى مواساة :

- هون عليك ... هون عليك ... يا جدى ... يا جدى الصغير ، إذا شئت سأخذك أنا من يدك وأذهب بك إلى كرمى .

وتحركت ابتسامة مريرة فى وجه الضرير المبتئس المقطب من فرط الشك والخجل . وانتظر فى صمت عودة ابنه ساعات طويلة ، لكن زوجة الابن كانت ترسل كل قليل إلى المقهى وتوصيه ألا يأتى بعد ، لأن أباه مازال يجلس فى انتظاره وعندما انتصف الليل وأصبحت عودته إلى بيته متعينة ، دخل حزيناً يسب ويلعن "نزق الشيوخ" حتى لا يعطى الضرير وقتاً يتكلم فيه وحتى يلزمه حده إلى الأبد .

* * *

وأعقب ذلك أيام مليئة بالأسى الصامت .
وقبع الكبار والصغار فى قوقعة من الإصرار والعناد للذود عن سرهم .

ولم يعد الضرير يفتح فمه ليسألهم أو ليسدى النصيح لهم فى شأن كرمه وشجرات تينيه بل ولم يعد يتكلم عن أى شىء آخر قط وكان الشك يغلى فى أعماقه ولكنه لم يعد يستدرجهم فى الحديث ولا يسترق السمع خلف الباب كان يفكر فحسب .. ويفكر .

وكان الصغار والكبار يحسون بالعملية المروعة التى تدور فى فكره ساعات صمته الطويلة المظلمة ولكنهم ماكانوا يجسرون على أن يقولون له : "قيم تفكر يا أبتاه ؟" "قيم تفكر يا جداه ؟" ولا أن يقدموا على إنقاذه هنيهة من لحظاته الحزينة لأنهم كانوا يخشون أن يبدأ الصراع من جديد . ولم يعد ميخو الطفل الذى كان يدخل السلوى على قلبه فى أول الأمر

يقترب منه الآن ، لأن أخويه كانا يخيفانه بأن الكلب سياتكل الجد
لو أخذه إلى الكرم .

وذات ليلة سمعوه يتمتم :

- ... أجل ! .. يختبئون من ضرير بوسعه أن يقول لهم ماهى
الساعة فى الليل والنهار ويدرك متى يميل القمر والشمس إلى الرحيل
فى غمار النجوم أو السحب !

وأوما الابن قائلاً :

- صه ! .. لايتكلمن أحد .

غرق الضرير فى صمته من جديد .

ومنذ أيام قليلة أضحى الضرير متأكدا من أن كرمه قد بيع ،
ولم يكن يجروء على الحديث عن هذا الأمر لأنه كان يحس بأنه مذنب
وخشى أن يجابه ابنه . كان يشفق على ابنه وعلى نفسه . ولم يكن يتكلم
عن لوعته لكنه كان يريد تعزية .

- أحس الموت فى أعماقى ! .. أحس الموت فى أعماقى ! ..
يا أولادى ! .. تحدثوا إلى ... أدخلوا الدفء على قلبى ! .

وقالت له زوجة ابنه :

- لاتمعن فى تعذيبنا .

- أنا فى غاية من الضيق .. يا أبى ! .. إلى الحد الذى لو أمسكت
بأنفى ... لطلعت روحى .

- حسن ، يا بنى ! .. أعرف .. أنا لا أسألك عن شىء ... فقط أطلب منك عزاء .

- عندى عنب زرعته حديثا فى كرم أنسبائى .. وأتطلع إليه برجاء ... لم يعد علينا دين .. فلنقل .. إذن ... الحمد لك يارب .

وانعكس ما حدث فى أعماق الضرير بكل جلاء على وجهه حتى إن الابن جزع وعدل مرة أخرى عن قراره :

- ثم ... كرمك يسير على ما يرام فلا تدع الهواجس تداخلك .
وحدث فى الوجه التعس تغير كما لو كان يستجدى الكذب ، ودفعت زوجة الابن ميخو إلى أحضان الضرير .

- قل لجدك إن كرمه هو أحسن بستان فى القرية ... قل له إنه مازال مليئاً بأشجار التين وألا يدع الهواجس تداخل عقله .

- أجل ، يا جدى الصغير ... ولكن هناك أيضاً كلب لا يدعنا ندخل ... أو وسارع الولد الثانى إلى القول :

- بالطبع لا يدعك .. لأنك تقطف العنب الذى لم ينضج .. أليس هذا هو السبب !؟ .

وأدرك الطفل أنه كان من الضرورى أن يقول "نعم" ، وأطرق رأسه وقال كذبتة الأولى ، بغير براعة كبيرة ، لكن الضرير تقبلها لأنه أصبح الآن يطلب الكذب ليجد فيه عزاء .

* * *

ومضت بضعة أيام أخرى .

ووصل الضرير إلى درجة من الانهيار حتى أن لوعته على الكرم استبدت بفكره . كيف سينجح أولاده فى أن يواصلوا الكتمان والاعتقاد بأنه مازال مخدوعا ، عندما سينضج العنب والتين ولن تأتى السلال مليئة إلى البيت ولن يكون ثمة قطاف ؟! وذات ليلة غمر الضرير إحساس غريب مبهم جعله يعتقد أنه لو دخل يتمشى فى كرمه ساعة يكون المشتري متغيبا عنه فإن ذلك سيلهيته عن الحقيقة إلى الحد الذى يمدده بالقدرة على أن يتماسك زمنا آخر من الوقت قبل أن يستسلم للوعته من جديد !! وكان اليوم التالى يوم أحد وفكر فى أن بإمكانه والجميع بالكنيسة والسك وبساتين الكرم خالية أن يوقظ ميخو وأن يذكره بوعده . ووجد الساعة الملائمة وكلمه غير أن الطفل وقد كان أخواه قد ملأه رعبا - من أن الكلب سيأكل الجد - نكص عن وعده وانخرط فى البكاء .

واعتزم الضرير أن يذهب وحده متخططا .. وما أن أدرك أن أهل الدار قد راحوا فى النوم خرج إلى الفناء ... خرج إلى الطريق .

ولم يلق عناء فى تلمس الطريق على الرغم من أنه لم يقطعه منذ أربع سنوات وكانت السيول فى أربعة شتاءات قد أفسدت الطرق ودحرجت الحجارة فى الأزقة ولكن الإحساس الذى دفعه إلى الذهاب للكرم المباع كان قد استحوذ عليه .

وعندما نبح الكلب الغريب أول نباحه سقط الضرير ميتا .

ولاية فرجينيا

إيليا فينيزيس

كانت حوائط الكوخ جرداء . نكست المرأة رأسها . ثم قالت للآخرى
المطرقة إلى الأرض :

- ليس ثمة مايمكن عمله ؟ ألا يمكن تأجيل السفر ، إذن ؟ .

وأجابت الأخرى :

- الآن ؟ الآن ، وقد جاء الفجر ، وحن رحيلى ؟

- لاجدوى إذن ؟ ليس ثمة مايمكن عمله ؟

- أقول ، لاجدوى . لاجدوى .

كان الليل يلفهما - يلف جسديهما العجوزين ، كما يلف الجدران
حولهما . ومن تحتتهما وعلى بُعد بضعة أمطار تعالى هدير البحر. كان
الهدير يتراعى على الشاطئ ، على الأكواخ الفقيرة فى قرية الصيادين
الصغيرة. الريح قوية ، وسحابة الرمل المنبثقة من الأرض الكليلة مثل
ضباب معتم تغلف الأكواخ ، وتلف أشجار الكافور الباسقة. كل شىء

فى الليل مبهم كما لو كان يسبح فى محيط قدرى ، المحيط الذى كل ما فيه محدد ومحتوم .

انزوت إحدى المرأتين وانطوت على نفسها وحذت الأخرى حذوها . كانتا من الشرق ، وهذه الأكواخ هنا قرية للاجئين من «فوكيس» . كانت المرأة الثانية «السيدة ستاماتولا» ستسافر صبيحة اليوم التالى فى رحلتها البعيدة عبر المحيط ، فأخذت تسترجع أمام ناظرها من جديد كل الذكريات واحدة تلو الأخرى . منذ ثلاثين عاماً وصلت مع ابنتها وقومها إلى هذه البقعة من شاطئ «أتيكى» مطرودين من وطنهم .

وفى العام ذاته جاء من بلاد ماوراء المحيط - من فرجينيا إحدى ولايات العالم الجديد - رجل ذو سلسلة ذهبية ، وأسنان ذهبية ، طلب الابنة زوجة له ، وأخذها ، وغابا وراء المحيط ، ثم أخذت تفد من وقت إلى آخر رسائل عبر المحيط ، مكاتيب من البنية ، جالبة إلى الكوخ المعتم فى أتيكى إحساسا سحرى ، وأطيافا من الأساطير . كانت الرسائل كلها تنتهى بالكلمات الآتية : «أماء ، ستأتين إلى هنا ، إلى ولاية فرجينيا» .

فرجينيا ، فرجينيا . ترى ماذا يكون هذا الاسم الغريب ؟ كان ثمة اسم آخر سحرى ، رؤيا أخرى تداعب خيالها ، وطنها الضائع كان اسمه «فوكيس» وهو ما كان يتردد على لسانها . وهو ما كانت تترده أيضاً نسوة الأكواخ كلهن عندما كن ينزلن للجلوس على الشاطئ فى المساء ويتبادلن الذكريات ، وتحمل الأمواج خفقات قلوبهن فى رحلة بعيدة .

ترى ماذا تكون فرجينيا هذه ؟ فوكيس ، فرجينيا ، أتيكى . أين يستقر المقام فى النهاية بالمخلوق المسكين الذى اقتلعت جذوره من أرضها ؟ كلما مرت السنون كانت اللاجئات الأخريات يزددن رسوخا فى تربة أتيكى . كن يعملن على أن تتوطد وشائجهن بتلك الأرض . ينجبن عليها أولادا جددا ، ويدفن فيها موتاهن . وهكذا أخذن يتأقلمن مع الأرض الجديدة ، ماعدا سيدة الأكواخ «السيدة ستاماتولا» كل شىء غير مؤكد بالنسبة لها . فوكيس التى مضت تبتعد وتضحى حلما . أرض أتيكى المحيطة بها والتى سوف تغادرها . فرجينيا إلى حيث الصوت يدعوها . وكان الصوت يهتف بلا انقطاع .

«اطمئنى يا أماه ، إننا نواصل الإجراءات اللازمة لإحضارك ، فى ولاية فرجينيا . كل ما هناك أن الأمر عسير . جمهور غفير يسعى للمجئ إلى هنا ، مما يزيد من صعوبة السفر . حجزنا مكانا . وعندما سيحين دورنا ستأتين » .

وجاءت الحرب العالمية الثانية ، وجاءت الكوارث والاحتلال والدمار . وتغير كل شىء . فرجينيا ، فوكيس ، أتيكى . كلها تغيرت فى محيط القدر : «كل ما هو مكتوب سيكون . كل ما هو مكتوب فليجئ » .

كانت مواطناتها تقلن لها :

– لعلك نسيت البلد البعيد ؟ ليس ثمة سفر إلى أمريكا ؟

وكانت تجيبهن :

- ماذا تقلن ؟ لابد أن أسافر يوما ما ، عندما يجيء السلام إلى العالم. من المؤكد أنني سأذهب إلى حيث تقول ابنتى ، إلى ولاية فرجينيا .
لكن مامن شك أنها لم تعد تؤمن فى قرارة نفسها . لم تعد تؤمن بدورها .

* * *

وهاهو الموعد جاء. ها هو قد جاء الآن وقد أحنّت السنين كاهل المرأة. ثلاثون عاما مضت منذ أن فكرت فى هذه الرحلة أول مرة. هاهى الإشارة قد جاءت ، الإشارة المؤذنة باجتياز المحيط ، وكم تأخر مجيئها. جاراتها كلهن ، اللاتى ذرفن الدمع معها على شاطئ أتيكى الموحش ، قد رحلن تباعا فى الرحلة الأخرى: وهناك خلف التل الصغير ، فى مدفن القرية المقفر لقين الراحة ، وكن فى انتظارها. لم يبق من الصحبة سوى اثنتين. السيدة يانولا . وهاهى تشذ الآن عن النظام ، عن الإيقاع الرتيب. التل الصغير على بعد خطوات من كوخها ، وهى تعرف أنه لم يبق لها إلا أن تحمل إلى هناك فى القريب العاجل إلى جوار صحبتها لترتاح إلى الأبد. لكن فاة الأوان ، وهاهى الآن تضطر إلى أن تغير خط سيرها وترحل إلى تلك الأرض البعيدة ، ولاية فرجينيا ، لتلتقاها تربتها ، فهى تعرف أن هذه الرحلة التى تتأهب للقيام بها رحلة إلى حيث ستوارى التراب .

أخذت صورة ماري جرجس القضية التي جلبتها معها من الشرق وذهبت بها إلى كنيسة القرية الصغيرة وصلت عليها فهي ستصحبها معها . ثم مضت تودع أكواخ القرية كوخا كوخا . عانقت قاطنيها جميعا ، ورسمت علامة الصليب على جبين الأولاد الصغار ، ومنحتهم بركتها . كانت ساعة عارمة موحشة ، ساعة الموت الدانى ، ساعة الوداع أو الوصايا الأخيرة . كان شعور الجميع نحوها كما لو كانوا يقبلونها قبيل أن يضمها تراب تلهم بين ذراعيه . ثم وزعت السيدة ستاما تولا محتويات كوخها على أقرب جيرانها ، ونصحتهم ألا يتخاصموا . فما الذى يكسبونه من الخصام ؟ وحرقت أغصانا من كرمة ، وصنعت منها بخورا لمبخرتها ، واشترت أوقية من اللبان الأبيض لتأخذه معها . كانت تقول إن هذه الأشياء لن تجدها فى أرض الغربية ، هناك فى ولاية فرجينيا .

ولما كان كل شىء قد أعد ، ولم يعد سوى انتظار السفر ، فقد خلت العجوزان إلى بعضهما الليلة الأخيرة . كانتا آخر من بقى من القرية . تجاذبت السيدة يانولا والسيدة ستاماتولا أطراف الحديث . تحدثتا وتحدثتا ثم سكتتا . كان الأمر أشبه بمسرحية جنائزية . وسهرت كل منهما بجوار الأخرى .

ستشرق الشمس بعد قليل . وقالت العجوز الأولى ، كما لو كانت قد اكتشفت شيئا جديداً :

– ها قد طلع الفجر .

وأجابت الأخرى :

- أجل .

وبذلت تلك التى ستبقى محاولة أخيرة ، وإن كانت تعرف أنها تحاول عبثاً :

- بالله أين ستذهبين يا ستاماتولا ؟ ما الجدوى من القيام بهذه الرحلة ؟ كيف ستحتملين التربة فى أرض الغربية ؟

خيم الصمت برهة. ثم أردفت:

- أقول كانوا سيدفنوننا جنباً إلى جنب مع سائر رفيقاتنا، ولن نكون فى عزلة .

وخيم الصمت من جديد ، ثم استطردت تقول :

- هذه التربة أصبحنا نعرفها. لن تكون جد ثقيلة علينا ، لكن من أدراك ما التربة التى تذهبين إليها ؟

وتسلل الموت بينهما، تردد على لسانهما بلا وجل ، وشاع حديثه مثلما تتردد أمور الدنيا القوية البسيطة على ألسنة العامة .

وقالت الأخرى ، السيدة ستاماتولا :

- صائب قولك. من أدرانى ما حال التربة الأخرى؟ لكنك تعرفين بدورك ، لم يعد بالإمكان أن يتغير شيء . هذا ماقلته أيضاً إلى ابن عمنا فرانسيسكو .

كان العجوز فرانسيسكو - وهو ابن عم بعيد - قد جاء إليها أمس
وقال لها :

- يا ابنة العم ، مازلت أقول لك فى هذه اللحظة الأخيرة غيرى
رأيك. اعدلى عن السفر ، فما زالت الكلمة لك .

- أية كلمة لى ، يا ابن العم ؟

- أقول ابقى لتموتى معنا فى هذه التربة التى ألفناها . ما شأنك
أنت بالسفر ؟ الكلمة لك .

- أية كلمة لى ، يا ابن العم ؟

- نشبت حرب جديدة فى ذلك العالم الجديد. يقولون فى كوريا.
ماشأنك أنت بعبور البحر الكبير وقد شبت الحرب من جديد؟ ابقى
لتموتى بيننا .

كان يلقى لها بخشبة النجاة عالما أن البشر فى حاجة إلى أن
يتشبثوا بشيء على الدوام .

لكن ، كلا ، لم يكن بالإمكان العدول الآن ، كل شيء قضى على
نحو لارجعة فيه : الثلاثون سنة التى انتظرت الرحلة طوالها ، ابنتها فى
فرجينيا، التصريح ، التذكرة .

- لامفر ، يا يانولا . لامفر الآن .

- كما ترين ، ياستاماتولا .

وخيم عليهما الصمت ، وأشرق الفجر . ارتسمت التلال وردية ،
واكتست بلون ملائكي . بعد قليل ستمر سيارة الخط التي ستقل السيدة
ستاماتولا ، وتنزل بها إلى الميناء الكبيرة .

– هيه ، حان الوقت .

– حان الوقت .

تطلعت العجوز إلى تلال أتيكي ، وطنها الثاني ، وهي على أهبة
الرحيل إلى الوطن الثالث ، والأخير . عندئذ عرفت أن المرء قد تقتلع
جذوره مرة واحدة، فإذا اقتلعت مرتين فهذا أمر لا يطاق. نظرت إلى
التلال ورأتها هادئة وديعة . وأخذت تبكي بصوت خفيض ، لأنه بعد قليل
ستختفي التلال إلى الأبد .

طائر مقتول

إيليا فينيزيس

نحن إبان الحرب العالمية ، وقت أن وطأ البرابرة أرضنا . كانوا يخبون البلاد ، ويقتلون الناس ، رجالاً ونساء ، وشيوخاً وصبياناً ، حتى يحطموا إيمانهم بالعدل والحرية . ولكن أهل اليونان لم يستسلموا . كانوا يقولون مثل أسلافهم من ربابنة البحار ورعاة اليايسة : " ما الجدوى أن تعيش في الذل والعبودية ، الحرية ساعة خير من أن تحيا العمر كله عبداً " ولهذا كانوا يوقعون الضربات بالبرابرة على الجبال وفي الحضر ، مؤمنين بالإنسان وبالوطن .

في تلك السنين ، كانت تعيش في اليونان أيضاً بنت صغيرة هي ابنة الحرب لأنها ولدت اليوم ذاته الذي أعلنت فيه الحرب العالمية عام ١٩٣٩ ، تلك الحرب التي بدأت مسير من بعيد ، وبعد أن عبرت بلاداً بلاداً ، مخلفة فيها الخراب ، وصلت إلى وطننا وأيضاً . كانت البنت اسمها "أناه" . شعرها في لون سنابل القمح الناضج ، وعيناها في لون أمنا البحر . ولما كانت تعيش في سنوات ضارية يضرب فيها الناس بعضهم بعضاً كالمجانين ، ويمص الواحد منهم دماء الآخر فقد اجتهد والد أناه ووالدتها أن يبسطا عليها كل حماية حتى يجنباها أن تعرف

مدى مايمكن أن يتمادى إليه البشر. لهذا سعيًا أن يزيدا من ألفتها بالطبيعة ، بالشجر الأخضر ، بالطير السارح ، بالسماك وأعشاب البحر. وهكذا تعلمت أناه ألف حكاية وحكاية عن الماء وعن التربة. ومع الوقت عرفت كيف تحس كما لو كانت شجرة أوحصاة صغيرة .

وفى المنتزة الذى كان أبواها يصطحبانها إليه لم يكن ثمة أشجار كبيرة ، لأن الحديقة كانت حديثة مثلها. ولهذا لم تجد أناه عناء. تفاهمت على خير وجه مع الشجيرات التى كانت قامتها فى مثل طولها. كانت تحتضن الأغصان، وترقد فى ظلها وتحكى لها عن أحلامها ، فتقول : «عندما أصبح بدورى شجرة كبيرة ، لاتغضبن منى لن أبقى هناك معكن. أريد أن أرى ماذا وراء البحر الذى تسبح فيه السفن. سأصبح بدورى مركبا وأسافر لاتغضبن منى» .

وكانت الأشجار تقول لها «ماشأئك أن تعرفى ماذا فى البلاد التى وراء البحر؟ ماذا تريدن أن تعرفى عن الديار الغريبة ؟» .

لكن أناه كانت جد صغيرة ، وكان كل شىء معتما فى داخلها ، فلم تكن لتعرف حتى هى ماذا تريد بالضبط. شىء واحد كان مؤكدا فحسب هو أنها كانت تريد أن تعرف وهذا الذى كانت تريد أن تعرفه ظل بالنسبة لها غامضا مجهولا وفى غير مقدورها: فعن الإنسان كانت تريد أن تعرف .

وجاء أيضا آنذاك ، فى سننى الاحتلال والعبودية ، يوم اليونان الكبير ، الخامس والعشرون من مارس الذى يحتفل أهل اليونان فيه بذكرى الحرية. فى عشية ذلك اليوم اكتست الأم بمسحة جادة .

أخذت ابنتها من يدها ، وانتحيتا جانبا ، وقالت لها :

- أناه ، سأقص عليك الآن حكاية مختلفة جداً عن كل ماسمعه من قبل .

فتحت أناه عينيها الزرقاوين ، ونظرت وجلة إلى أمها التي بدت هيأتها جد غريبة ، وسألتها :

- ما الخطب ، يا أماه ؟

- اسمعى ، يا ابنتى .

وحدثتها عن حكاية غريبة واحدة من حكايات اليونان العديدة فلقد جاء - على حد قولها - إلى أرضنا ذات مرة من الشرق غزاة لاحصرلهم ، حطوا رحالهم بها وأشاعوا فيها الخراب. سنين تلو سنين ، لفظ أهل اليونان زفراتهم من القهر الجاثم على صدورهم حتى جاء يوم رسموا فيه علامة الصليب وقبّلوا صورة مريم أم المسيح ، وقالوا : أيتها العذراء لم نعد نحتمل أكثر من ذلك ، سنثور. كان هؤلاء حفاة ، غيرة ، وكان المحتلون كثيرين مثل سنابل القمح ، مثل النجوم فى السماء «لكن ما من سبيل ، سنقاوم» هذا ماقاله أهل اليونان ، وخرجوا إلى الجبال. وعندئذ هدم المحتلون القرى، وطاردوا الشيوخ والنساء والأطفال، وأعملوا فيهم التقتيل. وحتى لاتسقط النساء فى أيديهم كن يأخذن أطفالهن فى أحضانهن ، يقبلن بعضهن بعضا ، ثم يلقين بأنفسهم من على الجبال ويمتن ، أما أزواجهن الذين استبدت بهم الوحشة فقد مضوا يهيمون عراة جياعا من وهاد إلى وهاد ومن بحور إلى بحور يخوضون المعارك

ويقاتلون. وفى عيونهم وميض الإيمان ، وفى قلوبهم اليقين بأن الحق إلى جانبهم ، وأن يوم خلاصهم آت. ولم يخب ظنهم وأتى ذلك اليوم. رحل البرابرة مطرودين من أرضنا ، ونبت الزرع من جديد ، وجاء أطفال جدد محل أولئك الذين اندثروا .

أصفت أناه إلى الحكاية مفتوحة العينين. وسألت :

- ومن كان هؤلاء ؟

وقالت لها أمها :

- كانوا جدك وجدتك. كانوا أجداد وجدات كل الأولاد الذين يذهبون معك إلى المنتزه. هؤلاء كانوا .

ولكى تزيدها أيضاً ، أردفت تقول :

- أتذكرين التماثيل البيضاء التى صفت هناك ، فى المنتزه ؟

كانت أناه تذكرها جيداً ، فكثيراً ما ذهبوا بها إلى هناك ، وكانت تعجب دائماً من السكينة المخيمة على تلك الشخوص ، التى أدت واجبها وانقطعت صلتها بالحياة .

- إنى أنكرها يا أماه .

وقالت الأم :

- هؤلاء كانوا . غداً ، سنجمع بعض الزهور نحملها إليهم .. مثل غد بدأوا حركتهم لطرد الناس الأشرار من أرضنا .

أشرق الغد ، الخامس والعشرون من مارس سنة ١٩٤٣ . أخذت والدته أنهاة قليلا من الزهور صنعت منه إكليلا وضعته فى يد ابنتها ، ومضيتا معا إلى مكان الأبطال. لكن مثل والدته أنهاة استيقظ الآلاف فى ذلك الصباح ذاته ، جماهير غفيرة ؛ أمهات اليونان وفتياتها ، يريدون جميعاً أن يحملوا بدورهم زهوراً إلى الذين جاهدوا فى سبيل الحرية ، ويضعوا الأكاليل فى هاماتهم. إنهم يتحركون مثل الأمواج المتلاحقة متجهين إلى المنتزه . على أن الأم وابنتها أنهاة لاتدريان بالموج المقبل ، وتسيران فى هدوء. ويالها من سكىنة تلك التى تحيط بهما ! من أغصان الشجر الجرداء تتناثر الزهور. إنه الربيع. استدارت أنهاة وأمها عند المنحنى وواصلتا سيرهما فى ممشى الحديقة صامتين ، تتأمل الفتاة معالم الربيع ، وتتطلع المرأة إلى السماء الصافية من السحب. وفجأة سمعتا الهدير بدا أول الأمر مبهما مثل صوت البحر البعيد عندما تلاطمه العاصفة ، ثم أصبح الصوت أكثر وضوحا ، وأمكن للأذن أن تميز فى خضمه بين أصوات الرجال وأصوات الفتيات. كلهم يغنون للحرية ، وينشدون تلك الأغنية القديمة التى تقول إن الصمت كان مخيما على كل شىء ، والكف يضرب الكف تعبيرا عن الأسى .

الأصوات قد خلت من الفرحة ، فهى زفرة شعب وشجنه وإيمانه .

وقفت الصغيرة أنهاة وأمها على قمة الساحة التى صفت فيها التماثيل ، وقد أمسكت البنية بزهورها ، بإكليها الصغير ، وتعلقت عيناها بالجموع النائحة المقبلة. كان يمشى فى المقدمة قرابة الثلاثين من الفتية والفتيات. يمسون بأكاليلهم ويغنون. رأتهم الأشجار من حولهم.

سمعتهم الزهور التى تفتحت على أغصانها لمقدم الربيع ، وسمعتهم أيضا الطيور التى بعثرها الخوف فتطايرت هنا وهناك. كما سمعهم الألمان المتربصون بهم وانقضوا عليهم من خلف الحديقة وأمطروا الشعب وابلا من قذائفهم الملعونة .

استولى على الناس فزع مهول. ولولت النساء وتعالى الصراخ وجرين يختبئن وراء الأشجار العجفاء طلبا للنجاة . امتلأ المكان بالضجيج. وصفر الرصاص وهو يمزق الهواء. أخذت الأم التى استبد بها الذعر ابنتها أنها بين ذراعيها لتحميها بكل جسدها .. وشرعت تجرى بحثا عن شجرة تختبئ وراءها. لم تكن أنها تبكى. وقفت تائهاة. اتسعت عيناها الزرقاوان من شدة الخوف والذهول وظلت مقلتا أنها الصغيرة مضيئتين حائرتين لاتفهمان مما يجرى حولها شيئا. وبعينيهما المفتوحتين ، المفتوحتين تماما ، رأت من خلال ضباب الخوف والموت : الفتيان والفتيات ممسكين بأكاليلهم يلزمون الساحة ، ويتسلقون التماثيل البيضاء بحركات ماضية ، ويضعون أكالهم على هاماتها ، ثم يجرون منصرفين. لكن الجميع لهم ينصرفوا. ثلاثة منهم لم يتسن لهم ذلك. رأتهم أنها يسقطون صرعى برصاص البنادق ، كما لو كانوا شجرا ، شجرا فتيا ، يهوى. بقى الإكليل يتدلى أيضا فى يدي أنها لا أحد يسأل فيه ، لكنه فى اندفاع الفتيان انزلق من أصابعها النحيلة ، وسقط .

فى صباح اليوم التالى سادت السكينة على المنتزه تماما. عاد الأولاد إلى الخروج بعرباتهم، وهم يصيحون ويضحكون ويلعبون. جذبت أنها أمها من يدها. وكل كيانه يتوسل :

- هناك ، يا أماء. لنذهب إلى هناك .

إنها صموت. وإنه لشيء مخيف أن تلزم صبية صغيرة صمتاً مريراً إلى هذا الحد ، حافلاً بالتساؤلات : لماذا؟ لماذا؟ .

وتصل أناه إلى التماثيل البيضاء. أكاليل الزهور التي جلبها الفتيان والفتيات مطاردين جائعين ألقى بها الألمان على الأرض وداسوها بالأقدام وتقدمت أناه من تمثال ، ثم تسمرت في مكانها فجأة. رأت على الأرض دماء لم تكن جفت بعد ، دماء غزيرة. ولقد شردت بعض الزهور المقتلعة من أكاليلها التي وطأتها الأقدام ، وراحت نحو الدماء وارتوت بدماء الفتيان الذين لقوا حتفهم. وتذكر أناه جيداً اللحظة التي رأتهم فيها يسقطون. كانوا - على حد قولها- مثل شجر يهوى .

أناه صامتة بينما تغالب أمها دموعها . همت أناه أن تتقدم ، وعندئذ وقعت عيناها على شيء هناك. وهمهمت :

- إنه طائر !

انحنت . كان طائراً ، عصفوراً صغيراً. وكان مقتولاً. عجباً، كيف أمكن للرصاص أن تصيبه ، وهو جد ضئيل الحجم إلى هذا الحد ؟ لقد مزقته إرباً إرباً. لابد أن الأمر قد حدث أمس .

وتناولت أناه الطائر ووضعتة في راحتها ، ثم مضت بضع خطوات إلى حيث التراب محروثاً. وجلست. ودون أن تلقى بالاً إلى أن ثوبها قد يتسخ وضعت الطائر على الأرض ثم شرعت تحفر بيديها حفرة صغيرة.

وعندما رأت أن الحفرة قد أصبحت عميقة بما فيه الكفاية ، أخذت
العصفور ودفنته ، وهالت عليه التراب. ثم قطفت زهورا برية صفراء
نابتة على مقربة ووضعتها على الحفرة الصغيرة .

عندما فرغت أنها من ذلك انخرطت في نحيب عميق لا آخر له.
ولم تكن أنها هي التي تبكى وحدها ، بل كان يبكى معها الأولاد في
العالم جميعا .

كلا ، لم تعد أنها تريد أن تسافر ، عندما تكبر ، إلى البلد وراء
البحر. ولم تعد تريد أن تعرف. لقد عرفت وهي جد صغيرة الكثير
عن البشر .

أحلام للغد

إيليا فينيزيس

فى اليوم السابق على اليوم الكبير ، وكان النهار يقترب من أخرياته
والليل يرخى سدوله ، قررا أن يستريحا قليلاً ، وقد أنجزا ماكلفتهما به
الجماعة التى ينتميان إليها .

قالت الفتاة : «لنذهب إلى مكان به شجر ، لننعم ببعض النسمات
اللطيفة».

ذهبا إلى المتنزه العام ، وجلسا على أريكة. كانت النجوم قد ظهرت
فى السماء. والليلة صافية الأديم. لم يكن أحد غيرهما هناك. وظلا
صامتين فترة من الوقت .

وفى لحظة سألها: «هل ... هل تخافين من شىء؟»

أمسكت بيده ، وشدت عليها .

قالت بصوت ملؤه الثبات واليقين: «كلا ، لا أخشى شيئاً».

قال الفتى بعد هنيهة: «سيضرب الألمان بشدة غدا . تأكدى من ذلك».

- «إنى لتأكدة».

مضت برهة صمت أخرى .

قال الفتى بشجن: «ستأتى أيام طيبة ، بالنسبة لنا أيضاً . وعندئذ سيكون بمقدورنا أن نهتم بسعادتنا ، بسعادتك وسعادتى " .

ثم تحدثا عن أحلامهما ، عن المستقبل . كانا قد تعارفا منذ بضعة أشهر ، فى ساعة من الساعات العصيبة . تواجدا جنباً إلى جنب فى مسيرة شعبية عبر شوارع أثينا . كانت الفتاة تمشى فى المقدمة ، وقد تطاير شعرها الأسود فى مهب الريح ، كما تطايرت طيات العلم الخفاق الذى حملته بين يديها . وفجأة برزت من نافذة عالية فوهة حديدية لمسدس أحكم أحد الألمان تصويبه إلى الهدف ، إلى ذات الشعر المتطاير حاملة العلم . لكن الفتى بادر إلى جذبها للوراء قبل ثوان قصار من انطلاق الرصاصة مدوية فى الأرجاء . ثم هرول الموكب إلى شارع جانبي وانطلق إلى مقصده من طريق آخر ، وعلى رأسه دائماً اليونانية ذات الشعر المتطاير فى الهواء .

هكذا تعارفا ، كانت تدرس الكيمياء ، أما هو فكان يدرس الهندسة . وكانا يرسمان أحلاماً للغد . عندما سيعود السلام إلى البشر المعذبين ، عندما لن تطفأ أرض بلادنا الجرداء قدم غاصب معتد ، عندما سيصبح للناس الحق فى الحرية من جديد ، ويكونان قد أديا بدورهما دينهما نحو الوطن ، سيشرعان فى بناء سعادتهما الخاصة . وكم سيكون ذلك جميلاً !

سيحصل كل منهما على شهادته ، وسيكون في مقدورهما أن يتزوجا .
سينجبان ولداً أسود الشعر مثل أمه . سيعلمانه منذ الصغر أن يعشق
كرامة الإنسان وحرية ، بل وإذا اقتضى الأمر سيعلمانه أن يكره كل
ما هو من الضروري أن يكرهه لأنهما أرادا أن يجعلوا من هذا الولد
رجلاً حقاً يقول «لا» عندما يكون من الواجب أن يتخذ هذا القرار . لن
يكون هناك غصب وجور ، لن تراق الدماء هدراً ، لن يكون هناك ظلم
يفرق الأرض . لن يكون أولادهم ساهمي النظرات ، أدركتهم الشيخوخة
قبل أوانها ، يتطلعون إلى النجوم بعيون حزينة .

هكذا سيكون ابنهما ، رجلاً بحق .

أخذ يدها من جديد ، وربت عليها ملاطفاً .

قال لها :

- ستأتى ... لاشك فى ذلك ... ستأتى الأيام الحلوة قريباً .

أطلت عليهما النجوم . انحنى الفتاة وقبلت جبينه ، كما لو كانت
تريد أن تطبع عليها بشفتيها الكلمة الكبيرة : «ستأتى» .

* * *

مضى شعب اليونان يزفر تحت عبودية الألمان والطلليان ، وكانت
عبودية لا تحتمل . أعملوا استبدادهم فى البلد الفقير . خربوا . أحرقوا
أكواخ القرى . قتلوا نساء وأطفالاً وشيوخاً . ثم جاءت المجاعة . استولت
قوات الاحتلال على القليل الذى تثمره الأرض ، أنتزعوا الخبز الأسود

من أفواه الأطفال والأمهات ، وجاعت المجاعة فى المدن والقرى كان
الناس يسقطون على الأرض ويموتون. كان الأطفال يلفظون أنفاسهم
الأخيرة على صدور أمهاتهم اللاتى نضبت أثداؤهن ، وبدلاً من أن تحلم
عيونهم الصغيرة بالملائكة كانت تغفو رويداً رويداً ، وتنطفئ شاكية. على
أن الشعب لم يركع رغم كل ذلك. كان يجمع ما بقى له من قوة ضئيلة ،
ويخرج إلى الشوارع صائحاً مطالباً بالحرية .

كما وفدت أنباء بأن غاصباً جديداً وطأت قدمه أرض الوطن من
الغرب، وأعمل التخريب والتقتيل أينما حل. كز الشعب الجائع على
أسنانه ، وقرر أن يخرج إلى الشوارع من جديد ويصرخ بالحرية
والعدالة .

* * *

فى أثينا ، تسير الجموع فى الشوارع الكبيرة ، صامته ، واجمة ،
كما لو كانت تتنزه فى الشمس تتسلى بمشاهدة التماثيل. ما من شيء
ينم عن أن أمراً سيحدث ، أو أن الإعداد له على قدم وساق. ومع ذلك
فإن الصمت المريب وسط البهجة التى تغمر بها الشمس الوضاعة الوجود ،
يجعلك تستنتج شيئاً : شيئاً مثل بركان على وشك الانفجار .

واشتعلت الشرارة .

عندما أعطيت إشارة متفق عليها ، هبت من الشعب الذى يخيّل لمن
يراه أنه يسير فى هدوء ودعة - موجة ضخمة اندفعت تجرى إلى
الساحة الفسيحة أمام الجامعة. ويمتلئ المكان. وتتسلق فتاة تحمل

إكليلاً من الغار تمثال الجندي المجهول وتطوقه بإكليها . ويركع الشعب .
وتنشد كل الأفواه المقروحة نشيد الحرية .

وما لبث أن سمعت في اللحظة ذاتها من آخر الطريق جنازير
الدبابة الألمانية ، الصفراء مثل الموت ، تجرى نحو المكان الذي اشتعلت
منه الشرارة . وقبل أن تطلق الدبابة نيرانها ، اتجهت المظاهرة التي كانت
قد تكاثرت عددها لحظة بعد أخرى إلى شارع آخر . انثنى الحشد وتلوى
مثل كائن حي يقاتل ويصارع بإيمان وثقة .

كل الأفواه تهتف الآن ، كل الحناجر تصرخ وتجار .

- كفانا هذا ! نريد حريتنا ! نريد الحرية !

من قديم الزمن ، ورث هذا الشعب العاطفة العميقة .. ورث حب
الحرية والعدالة . وها هو يطلق العنان لعاطفته الجياشة حتى يسمع
صوته ، بينما شرعت القوات المدرعة من حوله تريق الدماء وتقذف
بالحمم على أناس عزل ، ليس لديهم ما يذودون به عن أنفسهم ، وتمطر
الرصاص على النساء والأطفال .

« كفانا هذا ! كفانا ! ليسقط الطغاة ! »

ها هو الحشد ينزل الميدان الفسيح الآن مثل موجة عالية ، وقد
تعال صرخاته وأناته . وعادت الشفاعة تتمم أول الأمر ، ثم انطلقت
الحناجر بعد ذلك تغني النشيد الملهم للحماسة ، نشيد الحرية ، نشيد
اليونان الأول . وعلى قمة الموجة انبسط علم أزرق أبيض ، تماوج مع

النسمات القليلة ، وتماوجت أيضاً خصلات الفتاة التى حملته بين يديها .
تقدمت بخطوات ثابتة ، شامخة الرأس ، وقد تأجج الحماس فى قلبها
من جديد . وإلى جوارها سار صديقها . كانا يغنيان للحرية ، ويخطوان
قدماً . وأمامهما بقليل ، أمام عيونهما التى ينبثق منها الشرر ، سار
طيف اليونان . وأمامهما سار أيضاً أملهما ، السعادة التى تحدثا عنها
تحت النجوم ، ولد أسود الشعر ، سيربيانه ويعلمانه أن يصير رجلاً حقاً ،
قادراً على أن يقول فى اللحظة الحاسمة «لا» لاعدوان ، ولا دماء
تراق هدرًا .

* * *

ثم توالى الأحداث سريعة كالبرق . ظهرت المركبة المدرعة الألمانية
عند أول الطريق من الجانب المقابل للمظاهرة النازلة ، وانقضت على
ال جماهير المحتشدة ، وأخذت تطلق الرصاص تدوى من مدفعها
الرشاش ، ولكن الموجة المندفعة لم يكن بإمكانها أن تتوقف ، فمضت
فى اندفاعها . وهاهو المدفع يقذف رصاصه الآن على الكتل البشرية
المتراصة . واستقرت الرصاصة الأولى فى جسم يتفجر شباباً ، جسم
الفتاة ذات الشعر الثائر حول رأسها ، حاملة العلم الخفاق بين يديها .
انتفض الجسد قليلاً مثل طائر جريح . ثم مال وسقط على الأرض . وفى
اللحظة ذاتها أقبلت الدبابة مسرعة ، يدوى صوتها الشيطاني ، وأطبقت
على الجسد الجريح المنتفض ، وداست عليها بعجلاتها الثقيلة ، ودخلت
فى الجموع فمزقت شملها وبددتها لحظة ثم مضت مبتعدة .

حدث كل شيء كومضة البرق. وما أن انصرفَت مركبة الموت حتى
عادت الجموع تخرج من جديد من الشوارع الجانبية التي التجأت إليها ،
وهرعت مولولة إلى جثة الفتاة التي احتضنت العلم وبللته بالدماء التي
نزفت من جسدها المهشم .

بعينين مغرورقتين بالدموع أخذها الفتى ، صديقها. حملها بين
ذراعيه. ورفع طالب آخر العلم المخضب بالدماء. ومن أعماق الصمت
البهيم الذي خيم مع انتشار رهبة الموت ، هبت ضارية مثل إعصار
شديد ، صرخة مروعة ، صرخة الجماهير التي تلعن القتلة ، وتنادى
بالانتقام والحرية .

* * *

رسمت أحلاما للغد ... نامى الآن ، أيتها الصبية. ستأتى الأحلام.
لن تأتى إليك ، لكنها ستأتى للأخريات من فتيات وطنك ، ولفتيانه أيضاً.
ستأتى الأحلام لفتيات العالم وفتياته ، العالم كله. وسيذكرك الجميع ،
ويباركونك ، لأن أحلامهم قد تقدست بدمائك .

أليكسى سائق العربة

ذيونيسيوس كوكينوس

عاد العجوز أليكسى ستاليس ، الذى كان يعمل حوذاً فيما مضى، إلى شبابه فى صحبة حفيده. وقد وصل هذا الصبى إلى حياته فى وقت اعتقد فيه العجوز أنه لم يبق له شىء يعمل فى هذه الدنيا. لقد استوفى حقه من مسرات الحياة منذ عديد من السنين ، كما شرب كئوس الحزن مترعة أيضاً ولم يعد ينتظر ما هو أسوأ مما مضى. وقد جاءت المتاعب فى الوقت الذى يتخفف الآخرون من عبئها. جاءت عندما كبر أولاده وأصبح يقترب من الخامسة والستين. كان قد تزوج مرتين. ولم ينجب أولاداً من زوجته الأولى. ثم تزوج من خريسافى ورزق منها ابنيه، ستاثى وفاسيلى، ثم ابنته ماتينا فى النهاية. وليته لم ينجب أحداً منهم ، فقد كان الابن البكر أحرق ، يرافق ندماء السوء ، يسهر الليالى ويرتاد الحانات ، يثير المشاكل ، ويخرج من علاقة نسائية ليتورط فى غيرها ، حتى أصيب بمرض الرئة فمات ، وما لبث العجوز أليكسى أن فقد

زوجته خريسافغى التى مرضت بذات المرض ، وماتت بعد ما يقرب من عامين. ولئن كان الأب قد أرسل ابنه ستاشى إلى ماروسى على أمل أن يشفى هناك ، فقد كان هدفه الأسمى من ذلك أن يعزله عن بقية الأسرة وينقذها من المرض المخيف، إلا أن خريسافغى أصرت على أن تذهب مع ابنها .. وقد بح صوت أليكسى ليثنيها عن عزمها دون جدوى. كانت صلبة الرأس بدورها متشبثة برأيها فيما تراه صواباً ، لكنها كانت أمّاً على أية حال ، ويغفر لها إصرارها على عدم الابتعاد عن ابنها. كانت تريد أن ترافق ولدها المريض حتى لا تتركه وحيداً ولم يكن بإمكانها أن تفهم أن العدوى قد تنتقل إليها وتموت ، فيحرم الجميع من رعايتها وقلبها الحنون. فاليتيم حقاً هو من فقد الأم ، وكيف كان يستطيع أليكسى أن يشرف على بنت بلغت سن النضج الأنثوى ، ويوقظ حديثها الفتنة الراقدة فى الأعماق ؟ ليس ثمة سبيل إلى ذلك إلا أن يقوم دور الحارس ليلاً ونهاراً ليحافظ عليها. لكن أليكسى كان حوذاً يجوب بعربته الأنحاء ليعود إلى بيته بلقمة العيش ، ويدخر من إيراد العربة أيضاً ما يسمح له بتجديدها عند استهلاكها. ولهذا فلم يستطع أن ينجو من النكبة. فبعد وقت قصير أخذت تصرفات ماتينا تثير المتاعب. هربت مع صعلوك لم يكن بمقدوره أن ينفق على قطعة لا على امرأة .. قلب أليكسى الدنيا رأساً على عقب بحثاً عن ابنته ، وفى النهاية عثر عليها فى فندق مشبوه ، أما ذلك العشيق القذر فقد فر ، ولم يبق له أثر ، وهل كان يجدى أن يتعقب أليكسى رجلاً خائباً يجبره على الزواج من ابنته ؟ لو كان قد فعل لماتت ماتينا جوعاً إلى جوار زوجها ، أو ربما دفعها إلى الرذيلة ليعيشا من كسبها ، فقد كانت ماتينا جميلة وطائشة كما أنها

لم تكن بنتاً قاصرة حتى يمكن لأبيها أن يقاضيه بتهمة أنه أغواها وغرر بها ، لقد سارت برضاها إلى أنياب الذئب ، فقد كانت شابة بلغت سن الرشد وتعرف كيف تصون نفسها إذا أرادت. لذلك فضل أليكسى أن يبحث عمن يتزوجها على أن يكون رجلاً جاداً قادراً على أن يحكم امرأة ، إلا أن الوقت لم يتسع أمامه ، فما لبثت ماتينا أن تعرفت فى هذه الأثناء برجل آخر ، كان عاملاً من أبناء بلدة تينوس اسمه يورغى كيفالارى. نزح إلى أثينا من الإسكندرية، ويشغل بمصنع للرخام قريب من بيت ماتينا .. لم يرق كيفالارى لأليكسى ، فقد كان فتى صغير السن لا يكبر ماتينا. ولم يكن يبدو لأليكسى أنه بقادر على أن يكبح جماح فرس تهز ذيلها. كما لم يكن أليكسى يثق فى ابنته ، لقد أتت فعلتها الأولى ومضى يراقب سلوكها بعد ذلك ، فكان يراها دائبة التنقل بين الشباك والمرأة. كان يريد أن يرفض أن يزوجه منها ، إلا أنها فتنت بصانع الرخام وهامت غراماً به ، فاضطر أليكسى إلى أن يزوجه منها خوفاً من أن يخطفها بدوره ويجرى بها هنا وهناك دون أن يكون باستطاعته أن يطالبه بشيء ، مادام سيستطيع كيفالارى أن يرفض ويكون سنده القوى فى ذلك أنه لم يكن أول رجل فى حياتها .

كان العصفور قد طار من العش ، ولم تعد ماتينا لتركز فى بيت ، عاشت مع زوجها فى وئام ما يقرب من عام ونصف أو ربما عامين وأنجبت منه ولداً ، لكن إما لأنها كانت محط أنظار الرجال الذين إذا مالمسوا الطيش فى امرأة ظلوا يلاحقونها ويطاردونها ، وإما لأن الخيانة كانت تجرى فى دمها ، مالبثت أن عادت تعقد الصلات برجال آخرين .

وقد اشتتم أليكسى رائحة تفوح من صاحب كيفالارى المترددين على بيته ، بل ونمت الأخبار إلى علمه فذهب يحذر ابنته .. حاول أن ينصحتها فصدته ، فغضب وهددها بأنه إذا تأكدت شبهاته فإنه سيذهب ويذبح بنفسه ذلك العشيق . وفى النهاية ارتكب حماقة كبيرة بأن قابل كيفالارى وطالبه أن يأخذ حذره من أولئك الصحاب الذين يحيط بهم زوجته ، وأن يقطع صلاته بهم وهو الأمر الذى لم يكن يعره كيفالارى كثير التفات من قبل ، إما لقلة خبرته بالحياة ، وإما لفرط ثقته فى المرأة التى تزوجها عن حب، وبعد قليل وقعت الكارثة ، قتل كيفالارى خارج بيته أحد أصدقائه ، شك فى أن يكون على علاقة بماتينا . على أن هذه المرأة بدلا من أن تحسن سلوكها بعد هذا الحادث المروع ، راحت تعاشر رجلا مالبث أن هجرها بعد بضعة أشهر ، وانتهى بها الأمر إلى التردى فى أحضان رجال كثيرين .

تبرأ أليكسى من ابنته تماماً ، أو بعبارة أدق كان يقول ذلك ، لكن قلبه فى داخله كان يدمى عندما يتذكرها ، وكيف كان يستطيع أن ينحيا عن فكره ؟ لم يكتشف الإنسان بعد طريقة يضبط بها تفكيره مثلما يضبط الساعة ، ويوقفه عن المضى إلى الهواجس التى تعذبه ، وأى عذاب أشد من أن يرى الأب ابنته ينحدر بها الحال إلى درك لا خلاص لها منه ، وكان أليكسى يفكر رغماً عنه فى ابنته تلك الضائعة ، وقد بعث بالأصدقاء والأقارب ليتحدثوا إليها وليوضحوا لها بشاعة الطريق الذى تسير فيه ، وليقولوا لها إنها بتصرفاتها قد أودت بأبيها إلى القبر ،

إلا أن الابنة لم تثب إلى صوابها قط ، كانت تقطع حديثهم تارة وتعرض عنهم ، وتارة كانت تصيح فيهم - عندما كانوا يضيقون عليها الخناق - بأن من حقها أن تفعل ما تريد ، وبأن أباهما لاسلطان له على حياتها بعد أن تزوجت ، وأن حياتها سواء أكانت حسنة أو سيئة فإنها من شأنها وحدها ، وبأنها ليست مجنونة حتى تعود لتحيا بحظيرة تزكم الأنوف فيها رائحة الجياد ، وتارة كان يرق كلام الابنة عندما يثير المحدثون في قلبها الشفقة على العجوز ، لكن الأمر كان يظل بلا نتيجة إيجابية ، وكانت تقول :

- ما الذى يجعلنى أذهب للإقامة عند أبى ؟ وحتى إذا أردت الذهاب لم أعد أستطيع ذلك ، سأسبب له كارثة أكبر مما سبق ذات يوم . إننى أعرفه ، كما إننى أعرف نفسى أيضاً .

كان هذا هو الجرح الكبير الذى لايندمل فى حياة أليكسى ، لقد تركت وفاة زوجته وابنه فى نفسه ألماً ، أما ما آل إليه حال ماتينا فقد قصم ظهره ، وجعله يمضى فى الحياة جثة هامدة . كان يركب عربته شارد الذهن يفكر فى ابنته ، كان الجميع يسخرون مما وصل إليه مزاجه ، فقد صار لايفتح فمه حتى ليلقى بتحية الصباح . قلت جولاته بالعربة ، فالزبائن لايقبلون على حوذى مقطب الجبين ، ارتسم على وجهه الوجوم ، ويفضلون عليه غيره ، ثم يجب عليك أن تكون يقظاً مفتوح العينين حتى تصطاد الزبائن . فهذا العمل مثل إمساك العصافير فى الهواء . وبدأ القدم يدب فى عربته ، وأهمل العناية بها ، وترميم ما بلى من أجزائها ، بل ولم يعد يعمل حساباً حتى لمصاريف استهلاكها . لقد فتر اهتمامه حتى بنفسه .

وجاء عام ١٩١٢ وذهب ابنه الثانى إلى الحرب وفى أكتوبر قرأ أليكسى بكشوف القتلى فى معركة «سارندابورو» اسم قاسيلى. بالشقاء أن يكون لك ابن .. بل وأن لا يكون لك غيره .. وإذا به يقتل .

انتهى .. انتهى .. كل شىء ، كان لأليكسى أسرة ولم يبق منها أحد ، من أجل ماذا يعيش ؟ رأسه ثقيل، كما لو كان قد شرب خمراً رديئة من ذلك الصنف الذى يسمم شاربه ، ويسبب له الألم .. لم يكن بقادر على أن يفكر فى شىء ، ولا أن يدبر شئون عمله .. كانت تدور فى عقله كل هذه الشخصوس الحبيبة التى لن يراها بعد ذلك .. وماتينا ذاتها ألم تكن فى حكم الموتى ؟ وكبر أليكسى فى السن عشر سنوات دفعة واحدة. أحس بأنه مريض ، رغم أن الطبيب لم يكن يجد به أى مرض. لم يكن يستطيع أن ينام ، ودبت الرعشة فى يده ، وتدهور به الحال رويداً رويداً، لم يعد يخرج بعربته، فأجرها لغيره ، ثم نفق أحد جواده ، فباع عربته ، واشترى أخرى يجرها جود واحد ، أجر لها سائقاً كان يغالطه ويسرق الإيراد ، وبدأ أليكسى يعجز عن أن يدبر معاشه ، وشح طعامه ، وسرى النحول فى جسده ، وعندئذ تلقى مظلوماً به خمسمائة دراخمة ، من عملة قبل الحرب ، أرسلتها إليه ماتينا التى علمت بما انحدر إليه حاله فأرادت أن تسدى له العون. بادر أليكسى برد النقود إليها مهددا بأنها إذا عادت وجرأت على إتيان مثل هذا الفعل مرة أخرى ، سياتخذ السوط ويذهب لينهاى عليها ضرباً حتى يدمى جنبها .

على أنه ولئن اعتبر أليكسى ابنته ميتة ، إلا أنها كانت على قيد الحياة فعلاً ومن غير المعقول أن تتركه ينعم براحته ، ذات يوم كتبت له

تخبره أنها ستسافر إلى الخارج - وعندما وصله الخطاب كانت قد سافرت فعلاً مع رجل وعدها بأن يتزوجها .. وطلبت منه فى خطابها أن يذهب إلى أحد البيوت ليتسلم بعض الأشياء العائلية كانت قد أخذتها من بيت أبيها عند زواجها .. وكان هذا جرعة جديدة من السم يجرعها أليكسى. فمئذاً الذى سيعقد قرانه عليها من جديد ، تلك الخشبة النخرة؟ لاشك أنها قد كتبت له ذلك لتبرر فعلة طائشة جديدة. ورغم أنه كان قد وطد العزم على ألا يراها مرة أخرى وكان قد شطبها من حياته ، إلا أنها وقد رحلت من أثينا ذاهبة إلى المجهول ، أحس فى أعماقه ألماً ، كما لو كانت تعيش حتى ذلك الحين إلى جواره ويفقدها الآن إلى الأبد. وبقلب ثقيل ذهب إلى البيت الذى كتبت له عنه .. ليس من أجل الأشياء ، فما حاجته إليها؟ بل من أجل أن يمر بالمكان الذى كانت ابنته فيه حتى أمس ، وذلك دون أن يريد الاعتراف لنفسه بتلك الحاجة الداخلية العميقة. وقد سلمته المرأة التى تركت لها ماتينا رسالتها بعض الحلى الرخيصة من صنع البندقية موشاة بقشور الذهب ، كانت ملكاً لأمها ، عبارة عن زوج من الأقراط الكبيرة وأيقونة خلف غطاءها الزجاجى صورة أليكسى عندما تزوج خريسافغى. ثم رفعت المرأة بين يديها طفلاً ، وأومات للعجوز قائلة :

- إنه حفيدك ، تركته لأسلمه إليك ، وهو لم يعمد بعد .. المسكين .

قطب العجوز حاجبيه ، لم يكن له أحفاد ، فما شأنه هو أليكسى الشريف ، أليكسى ستاليس ، بهذا اللقيط ، ابن الشوارع لكنه لم يكن بقادر على أن يرفع بصره عن وجه الصغير المتورد الذى كان ينظر إليه

بعينيه اللتين تشبهان خرزتين سوداوين ، وأخذ الجليد الذى فى قلبه
ينوب لحظة بعد لحظة ، لم يكن محققاً فى أن يعتبره ابن حرام ، وحسب
فى عقله التواريخ وعمر الصغير ، لابد أنه يبلغ الآن سنة ونصف ووجد
أنه لا يمكن إلا أن يكون ابن كيفالارى ، وقد كان بحاجة إلى ذلك ليبرر
ذلك الحنان الذى أحس به نحو طفل ابنته ، الذى ليس له معين. وقال
لنفسه : «يالى من متحجر القلب أن أترك ابنها» .. ظل بعض الوقت
صامتاً ، يفكر ثم حمل الطفل بين يديه وانصرف .. جعل أليكسى من
نفسه أمّاً ومربية وأباً للولد ورباه ، عمّده وسماه ستاماتى على اسم امه
ماتينا. ومضى الولد يكبر ، ويصير صبياً متين البنیان ممشوق القوام ،
يتفجر حيوية وذكاء. ومع نمو الصبى دبّت الحياة فى الجد العجوز ، كما
لو كان يستمد من حيوية الصبى قوى جديدة ، أصبح يشعر الآن أن
لهم هدفاً يسعى إليه ، الأمر الذى لم يكن قد عرفه مع أولاده. فى ذلك
الحين كان يشغله العمل بالحياد ، والزبائن ، أما الآن فلم يكن يشغله
سوى ستاماتى. ترى هل كانت الهموم والآلام هى التى جعلت قلبه
يفيض بالمحبة؟ الذى كان يعرفه أليكسى أنه لم يحب أحداً قط ، مثلاً
أحب هذا الولد. كان حياته .. ورويداً رويداً أصبح معلمه أيضاً ، معلمه
فى أمور الدنيا وظواهر الطبيعة الكبيرة التى كانت أول ما أثارت
فضول الصغير ، كان يصطحبه إلى ميدان الحى وحديقته ، وكان
يحادثه ويريه ماحولهما ، على أنه ذات يوم اضطر إلى الإجابة على
تساؤلات مريكة أثارها الصغير ، كان يرى للأولاد الآخرين آباء وأمهات ،
فسأل عن أبويه ، فأجابه العجوز :

- ماتا ..

- ومتى ماتت أمى ، يا جدى ؟

- بمجرد أن ولدتك .

وفعلاً ، كانت ماتينا قد ماتت ، عندما قال له العجوز ذلك .. بلغ هذا النبأ إلى العجوز ، وكانت قد ماتت أسوأ ميتة ، فقد هجرها عشيقها وتخلي عنها . ومن يدري فى أى مستشفى دفعت ثمن خطاياها ، إن لم يكن قد نهشها الجوع والمرض على أرصفة باريس .

- وأبى ، يا جدى ؟

- رحل . اختفى . قيل إنه ميت بدوره .

وهلى كان يكذب عليه ؟ كان كيفالارى فى السجن . تمكن فى المحاكمة أن يقدم الأدلة على خيانة زوجته ، لكن النيابة العامة أثبتت أن القتل لم يكن على صلة بتلك المرأة . كان القتل من أجل الشرف ، لكن كيفالارى كان قد قتل رجلاً بريئاً ، لم يكن هو عشيق ماتينا . فحكم عليه بالسجن ثمانى سنوات .

وباللهجة التى رد بها أليكسى على الصغير ، قصد أن يفهمه أن هذه المسائل لا يلىق به أن يستفسر عنها . فلم يكن الأمر ثقيلاً على الصغير فحسب بل وعلى العجوز أيضاً . فقد كان يجاهد ليقصى عن فكره وذاكرته تلك الحقبة الحزينة من حياته مثل مقبرة لم يكن يريد أن يراها . وكان يعيش على ذكريات الأيام الطيبة وعلى اللحظة الحاضرة .

وهكذا أتاح لجرحه العميق أن يلتئم. وأصبح صحابه يسمعون منه أطرف الأحاديث وأكثرها مرحاً .

يا لها من أيام تلك التى كان يقف فيها بعربته أمام فندق بريطانيا العظمى. عربته التى كانت أكثر عربات الأجرة أناقة فى أثينا. لم تكن لتقل عن تلك العربات ذات الخيول الثمانية التى كان السفراء وعلية القوم يدخلون بها إلى الفندق الفخم ويخرجون بها منه. كان معطف أليكسى الطويل من الصوف الأزرق. ويلمع عليه صفان من الأزرار النحاسية الكبيرة. وكان قفازاه الأبيضان نظيفين وحذاءاه يلمعان مثل المرآة. أما جواداه فقد كان يحسده تسيرونوفيتش عليهما ، ويعرض عليه أن يضمهما إلى الحظائر الملكية. ومن ذا الذى كان لايعرف آنذاك زيغرو وكورنيو وكاليفا وتيموليوندا فيليمونا. كان عالما بأسره. ناهيك عن لامبسى. لقد أوصل ثيوتوكى أكثر من مرة إلى تريكوبى. كيف يمكن للمرء أن يذكرهم كلهم. خذ جرائد تلك الحقبة ، خذ قائمة الأسماء التى كانت تذهب إلى حفلات الرقص الملكية. وستجد هذه الأسماء. فى حفلة قران ولى العهد ، عندما لم تكف العربات الملكية لنقل كل الأجانب الذين دعوا رسمياً ، استؤجر أليكسى للقيام بتنقلات دوق إسيكس وفى مرة أخرى استقلت عربته من فندق «بريطانيا العظمى» سيدة أجنبية ممشوقة القوام ، ترتدى ثوباً أسود وتغطى وجهها بغلالة رقيقة وطلبت إليه أن يقوم بتوصيلها إلى القصر. وصعد إلى جواره أحد مستخدمي الفندق ، نزل عندما وصلوا إلى القصر ، وقال شيئاً لأحد موظفى البلاط. وما لبث أن رأى أليكسى الملك قد حضر وتوجه إلى السيدة التى كانت تنتظر فى

داخل العربة. أجل ، الملك جورج بنفسه. وقد قبل يد السيدة ثم تأبط ذراعها ورافقها إلى داخل القصر. هل تعرفون من كانت؟ أوجيني ، أول إمبراطورة لفرنسا. وذات ليلة ، قام أليكسى بتوصيل بلانش إلى فيلاتون. وانتظر فى الخارج حتى الثالثة والنصف. وعندما غادرت بلانش الفيلا، ظهرت فى السماء نجمة الليل الأخيرة. ألا تعرفون بلانش؟ امرأة فرنسية مغمرة ، لكنها رائعة الجمال - وقد كتبت الصحف الأجنبية عند زيارتها لأثينا الكثير من التفاصيل عن علاقتها بناظر الخاصة الملكية الذى تعرف بها فى أيكس ليبين . أمور غريبة، كان يعرف شخصيات أثينا وأحداثها فى ذلك الوقت كما كان يمكن أن تمر أمام سائق عربة تحدث إلى بوابى الفنادق الكبيرة والقصور ، وإلى ركاب سكارى يحلو لهم أن يثرثروا، كان يعرف شخصيات أجنبية يحيطها الغموض ، وبيوتاً اتخذتها شخصيات معروفة أمكنة للقاء اتها. وكان يعرف أيضاً كيف تكونت بعض الثروات الكبيرة ، وقصصاً عن مغتصبى أراض أصبحوا من مشاهير القوم وعمداً للمجتمع ، وتركات تخفى وراءها جرائم قتل مروعة .. من ذلك الصنف من الجرائم الذى لاتطوله يد القانون ، ثم فضائح كثيرة تمس شخصيات مشهورة فى أثينا. وبالرغم من ذلك ظلت مستورة وخافية ، صفعات عند مدخل الفنادق ، مبارزات لم يعرف كثير من الناس دوافعها الحقيقية ، لاتصدقوا أن عقول النساء قد خفت هذه الأيام ، لقد كن هكذا على الدوام .. كل مافى الأمر أنهن كن ينجحن فى تدبير أمورهن على نحو آخر. كن يرتدين ثياباً كثيرة على أنهن ظللن من الداخل كما كن ، ولم يتغيرن ، كان أليكسى يروى الكثير لكنه كان

يتخرج من ذكر الأسماء ، كان يكتم السر الذى يصل إلى سمعه أو بصره ، فقد علّمته المهنة ذلك جيداً ، ذات يوم كان يجلس فى مقهى الحى الصغير الذى يقيم فيه ومرت أمامه سيدة مسنة فى صحبة فتاتين ورجل ، فانفلتت من بين أسنانه الشتائم :

– أيتها المرأة القذرة !

وسأله الحاضرون :

– من تشتم يا شيخ أليكسى ؟

ونظر إلى النساء فى الطريق ، كانت الفتاتان فى ميعة الصبا حقاً ، لم يكن أليكسى يعرفهما . واستدرك قائلاً كمن يدافع عن نفسه :

– أنا شتمت أحداً ؟ لم أقل شيئاً .

– قلت أيتها المرأة القذرة .

وأجاب :

– تذكرت الخادمة التى لم تسق الجوادين هذا الصباح .

لكنه كان يكذب ، كان قد لفظ بالشتائم فى حق المرأة العجوز ، كانت معروفة إلى أهل الطبقة الراقية ، وكان أليكسى يعرف أموراً كثيرة فى حياتها . وعاد يتحدث عن أسرار المجتمع فى زمانه .

وكان يضيف إلى كلامه ملاحظات اجتماعية وأحكاماً على قدر تصوره وعقليته ، وبميوله التأملية التى نمتها الحنكة والتجربة وعقليته

البسيطة المحدودة شيد وجهة نظر شاملة إلى أمور الدنيا .. هذا المجتمع يتحرك على عجلتين : حب المال واللهفة إلى الثراء. إن الناس غير قادرين على أن يجدوا راحتهم .. إنهم يعيشون ليلحقوا الضرر بالآخرين وبأنفسهم أيضاً وذلك لسببين كبيرين ، أولاً وقبل كل شيء ، إنهم لا يستطيعون التفاهم فيما بينهم ، ما الجدوى من الألسن ؟ ما أشبه هذا العالم ببرج بابل .. ذات مرة عندما استأجر إنريكو سليمان أليكسي مدة أسبوع ليقله بعربته كل مساء إلى كيراميكو قال له سليمان بلغة يونانية ركيكة :

- لا يريدون أن يفهموا إنتى أحب اليونان .

وكان أليكسي يقول لأصحابه :

- جاء سليمان ليعطى هذا البلد كنوزه التى يأكلها التراب ، فقالوا

عنه إنه مغامر أفاق .. لعمرى. إنتى أتساعل : لماذا ؟

لكن حتى أليكسي هذا ، الرجل البسيط ، من فهمه ؟ بعيداً عن

جواده ، لم يكن يعرف أحداً يستطيع أن يتفاهم معه. وكان يقول :

- الجياد. الجياد فحسب .. هى عزائى !

كان جواده المسكين يحسان بأحاسيسه. كان يهز اللجام

ويصفّر. ويأتى صوتاً معيناً بشفتيه ، وإذا بهما يمضيان بالعربة

إلى حيثما يجب الذهاب ، كانا يقفان ويتحركان وينحرفان كما لو كانا

يقرآن أفكاره .

اما السبب الكبير الآخر الذى كان يعزو إليه أليكسى نكبة البشر ، فهو أنهم لا يستطيعون أن يفهموا أنهم عابرون فى هذه الدنيا ، يخطرون فيها لحظات ويرحلون ، فما الجدوى إذن أن تزعج جارك ، أن تسرق منه زوجته ، أن تتسبب فى أن يولد ابنك فى بيت غيرك ، أن تطمع فى أن يكون لك كل شىء ؟ إنك راحل غداً . لقد رحل كاليغاس . لقد رحل رويندیس ، ونيقولاوس روسياس ، وثون ، وتسيرنوفيتش - على أنه لم يكن يشير إلى أفراد أسرته قط : إلى زوجته وأولاده الذين رحلوا بدورهم - الجميع يرحلون . لماذا لا تمر نظيفاً من هذا الدرب الصغير دون أن توسخه ؟ إن حياة الإنسان قطرة ماء ، ما أن تقع حتى تجفها الشمس فتتبدد بخاراً ، ثم تعاود الوقوع قطرة أخرى وتتبخر من جديد . إنها قصة للتسلية ، ما الداعى أن تجهد نفسك من أجل أفراح وأحزان عابرة ؟ لم يعد لأليكسى الآن شىء .. حتى العربة ، والجوادين اللذين كان يحسده عليهما المشرف على حظائر القصر .. لم تعد له . كان مازال يرتدى حذائه العالين القديمين ، وسترته من بقايا المعطف الصوفى الأزرق .. آخر معطفه السابقة ، لم يعد يملك سوى عربتين يجرك كلا منهما جواد يصرف عليهما ويؤجرهما لغيره ، عربتين لم يكن يجروا أحد أن يظهر بهما أمام الزبائن فى تلك الأيام الخوالى الجميلة . ولم يكن يحدوه إلى تشغيل هاتين العربيتين سوى لقمة عيشه ولقمة عيش ستاماتى .

ومع ذلك أحس أليكسى أنه أحسن حالاً من أى وقت مضى .. وعزا سكينه قلبه وصفاء مزاجه وتجدد شبابه إلى حنكته وخبرته بالحياة ، وإلى قدرته على مواجهتها بروح فلسفية ، ونسى أن كل هذه النعائم قد

جلبها له ذلك الصبى ، فى الوقت الذى كان قد بدا فيه يتهدم مثل عربته القديمة .

وفجأة ظهر الرجل الذى كان قد اعتبره أليكسى غير موجود . كان يطرأ على باله مثل هذا الخاطر من وقت لآخر ، إلا أنه كان يحاول فى كل مرة أن يطرد هذه الفكرة باعتبارها أقل الأمور احتمالا .

ذات صباح سمع خطوات رجل .. خطوات ثقيلة فى الفناء ، ورأى بالباب ستاماتى وقد وقف ينظر وجلاً إلى ذلك القادم ، فخرج العجوز بدوره ليرى من يكون ، رأى كيفالارى يقف عند باب الفناء يتطلع إلى الصبى . وعندما رأى كيفالارى العجوز تقدم إليه ، فأفسح له الطريق ليدخل ، تمتم كيفالارى بتحية الصباح ، لم يستطع أليكسى أن يجيبه ، إلا أنه بعد هنيهة تغلب على العقدة التى كانت تطبق على عنقه وقال له :
- اجلس .

وأشار له إلى مقعد بجوار المنضدة ، إلا أن العجوز ظل مقطب الحاجبين ، وبقي وجهه ينم عن أثر هذه المفاجأة غير السارة ، وقال له كيفالارى :

- لاتضايق نفسك. لن أبقى .

وأجابه العجوز :

- هيا اجلس ، هل تريد فنجانا من القهوة ؟

جلس كيفالارى وهز رأسه علامة النفى ، لم يكن يريد شيئاً . خيم الصمت برهة .

وسأله أليكسى لمجرد أن يقول شيئاً :

– أهى زيارة عابرة ؟

– أية زيارة عابرة ؟ جئت ليلة أمس من «أغينا» أمضيت الثمانى سنوات كلها فى السجن . الحمد لله أنتى خرجت حياً . الحمد لله .

لم يكن كيفالارى يعرف أحداً فى أثينا يتوسط للعفو عنه ، كما يفعل الجميع ، حتى أشدهم إجراماً . كان أهله ومعارفه فى الإسكندرية ، وبعد هنيهة أضاف لائماً :

– شكراً للأقرباء الذين جاعوا لزيارتى فى السجن وجلبوا ابنى معهم لأراه .. ولو مرة واحدة .. يبدو أن «أغينا» بعيدة من هنا بُعد المحيط .

كان كيفالارى محبوساً فى سجن «أغينا» وكان اللوم موجهها إلى أليكسى . الذى أجابه قائلاً :

– إذا كانت تقصدنى بكلامك ، فما الجدوى من مجيئى ؟ ألم تسلم كم كلفتنى كل تلك الأمور ؟ كان لى بنت وفقدتها .. أرجو ألا نجتر أحزاننا الآن .. ما حدث ، حدث وقضى الأمر .. ثم عندما حضر شريكك بوستولى فى المرتين وسأل عن أحوال الصبى قلت له إنه إذا كان هذا مايشغلك ، فليطمئن بالك .. إنه هنا فى بيته .

وخيم الصمت من جديد ، ثم التفت كيفالارى نحو الصغير الذى كان يقف خارجاً فى الفناء قرب الباب ، وسأل :

– أهو هذا ؟

وأجاب أليكسى بالإيجاب ، ثم طلب من الصبى أن يخرج ليلعب فى الشارع ، فبادر إلى الانصراف :

وقال له كيفالارى :

– لا تصرفه. قل له إننى أبوه. ادعه للحضور .

بدا التردد على أليكسى ، فكرر عليه كيفالارى الطلب :

– هيا ، ادعه للحضور إذن .

خرج أليكسى ونادى الصغير ، وقال له إن ذلك الرجل فى الداخل هو أبوه الذى كان قد اختفى .

– لقد عاد ، وسيسافر من جديد ، تعال قبل يده .

وأدخل الصغير معه ، تلفت الصغير مرتباً وقد أمسك به من كتفيه ، وجذبه إلى حجره ، ومال وقبله. خيم الصمت من جديد ، لمعت الدموع فى عينيى الرجلين ، ارتعش فكا السجين السابق برهة ، ودارت حدقتا عينيه تحت أجفانه الكثيفة ، وتقلص جبينه ، كان كما لو أنه يغالب نحيبه. دس يده فى جيبه وأخرج علبة سجائره وأشعل سيجارة. تنحى الصبى جانباً ، فقال له أليكسى وهو يجذبه :

- اذهب الآن ، والعب .

وقال له كيفالارى بصوت أجش :

- لاتذهب بعيداً .

توجس أليكسى خيفة منذ الوهلة الأولى ، على أن معالم الخطر
أخذت تزداد وضوحاً . وقال العجوز :

- حسنا ، حسنا ، إنه لا يذهب بعيداً ، والآن .. ستبقى لتتناول
الغداء معنا .

ومضى أليكسى على سجيته يتحدث إلى كيفالارى حديثاً نابعا
من القلب :

- سأرسل صينية من المكرونة إلى الفرن ، ويمكنك أن تقيم بالبيت
إلى أن تتدبر أمور معاشك ، وتجد عملا ، عندي مرتبة وحمامان وبيت كافي
أن تنصب لنفسك منها سريراً ، وعندما تجد عملا ، وتريد أن تستقلا ،
الإقامة ، يمكنك أن تذهب بمعونة الله حيثما تشاء .

ورد عليه كيفالارى قائلاً :

- كلا ، إنى راحل إلى الإسكندرية غداً ، جئت من أجل الصغير .

قال له أليكسى :

- إذن ، ابق معنا إلى غد ، لترى الصبي قليلا ، وبعد ذلك سافر
على بركة الله .

قال كيفالارى :

- جئت لآخذه .

رفع أليكسى رأسه ونظر إليه ، كانت عيناه كما لو أصيبتا بحول مفاجئ. وظل فمه مفتوحاً لاينبس بكلمة .

كرر كيفالارى عليه القول :

- جئت لآخذ الصبى .

وسأله العجوز كما لو كان لم يفهم :

- من ؟ من ستأخذ ؟

- الصبى .

حرك أليكسى بيده علبة كبريت كانت على المنضدة. ثم تصنع الابتسام ، وقال :

- خل عنك ذلك. عد إلى صوابك ، ودعك من هذا الكلام. الولد على مايرام هنا.

على أن كيفالارى عاد يقول :

- اسمع ، لقد شرحت لك مقصدي بكل وضوح : جئت آخذ ابنى .. ورفع أليكسى صوته وقال :

- ما الذى يجديك من أخذ الصبى ؟ لاتبدو صحتك بخير ياولدى. ثم إنه لن يريد أن يذهب معك .. تعود على الحياة هنا معى .. ولايعرف غيرى .

وأجاب كيفالارى قائلاً :

- لا أستطيع أن أخوض معك فى أحاديث كثيرة .

فاعتدل أليكسى فى مقعده ودق بقبضته الغليظة على المنضدة ،
وصاح قائلاً :

- مثل هذه الأعمال الخرقاء هى التى ضيعتكم وأطاحت بحياتكم
معا ، صفيتم بيتكما ، تبادلتما الطعنات ، ودب فيكما العطن والفساد ،
وزحف عليكما الخراب. ثم ها أنت تعود .. لم يمض على خروجك من
السجن يوم واحد ، ولا تعرف أين تسند رأسك .. تعود لتطالب بالصبي ..
أليس ثمة قطرة من الحياء ؟!

ثم أضاف مخفضاً صوته :

- اسمع يا جورجى .. مازلت فى شبابك ، فحاول أن تثوب إلى
رشدك .. ماهذا الكلام الفارغ الذى تقوله لى عن سفرك إلى الإسكندرية ؟
لن ترحل من هنا ، ستبقى فى أثينا ، وهاهو بيتى تحت أمرك تقيم به
إلى متى تشاء .. دعك من هذا الكلام . أنت بحاجة إلى نقود ، ويبدو
عليك المرض ، اذهب ليفحصك الطبيب ، هذا هو الكلام المعقول ،
أما ستاماتى فكف عن الحديث عنه ، وهل يذهب إلى الإسكندرية من ولد فى
أثينا ؟ سيبقى هنا ليكبر ويصير رجلاً ، كان يجدر أن تحضر امتحانه
العام الماضى فى المدرسة ، إنه فى الثالثة الابتدائية ، وهو الأول بين
الطلبة وأحسنهم سلوكاً ، بل إنه قدم مشهداً تمثيلاً مع اثنين من زملائه
فى حفلة المدرسة ، أه ، لو رأيت كم كان ظريفاً وهو يؤدي دوره. سأل

الكل من يكون هذا الصبى ؟ كما أن خطه رائع الجمال .. ليتك ترى كيف يكتب الحروف مستديرة نظيفة وأنيقة بلا أدنى خطأ. ألم نذهب نحن أيضاً إلى المدرسة ومع ذلك فما زال توقيعى مثل نبش الدجاج ، رغم أنني لم أكن طالباً غيباً - أما هذا الولد فهو جد مختلف عنا. إيه ، هذا العفريت سيدخل الجامعة. سترى ذلك. اجلس هنا الآن ، حتى أذهب لأقول للخادمة أن تعد الأكل ، وترسله إلى الفرن ، وسنذهب بعد ذلك إلى الصيدلية حيث أعرف صيدلياً صديقاً لى سيصف لك مقويًا .. دواء وارد الخارج ، معبأ فى زجاجة جاهزة ، ستتعاطاه نقطاً فى قرح من النبيذ ، قد يكون ثمنه مرتفعاً قليلاً ، لكن مفعوله فعال ، ويبيث الحياة فى العظام الرميمة ، ستتعاطاه ولن يمر أسبوع حتى تسترد عافيتك ، وبعد ذلك سننظر فى أمر البحث عن عمل لك ، وبالنسبة إلى أى مبلغ من المال تحتاج إليه - كما سبق أن قلت لك - ستجدنى رهن إشارتك. الحمد لله ، الخير موجود .

كان يلوح على كيفالارى أنه مريض حقاً ، فالهزال باد عليه ، وجلده قد اكتسى بلون التراب من جراء الحياة فى السجن ، لقد مرت عليه السنوات الثمانى كما لو كانت عشرين عاماً .

قال كيفالارى :

- لست مريضاً ، ولست بحاجة إلى نقود. بعث أهلى إلى من الإسكندرية ، لأذهب إليهم. لا أستطيع أن أترك ابنى هنا .

نهض أليكسى غاضباً وقال :

- ليس لك أية صلة بهذا الولد ، لقد انجبتماه ولم تفكرا فى أمره ،
والا لما قتلت أنت من قتلت ولما فعلت أمه مافعلت ، هل كنتما جديرين بأن
يكون لكما ولد ؟ الابن فى كنفى أنا . إنه لى وحدى . أخذته مسكيناً بائساً ،
لف فى أسمال بالية ، مثل حثالة ألقى بها فى المجارى ، أرضعته
وربيته .. وها أنت قد رأيته ولداً قوياً متين البنيان ، مثل جحش فى
حظيرة وفيرة الطعام ، وتريد الآن أن تأخذه منى ، محال ، انزع هذه
الفكرة من ذهنك .

ورد عليه كيفالارى بصوت ينم عن العزم والإصرار :

- ما الجدوى من كثرة الكلام .. ألا تعرف الأصول ؟ أنت عجوز ..
كيف تريدنى أن أكون مستريح البال بعيداً عنه . ثم إننى أريده .. أأست
والده ؟

رنت عبارة «أنت عجوز» فى أذنى أليكسى بشدة ، ربما كان
كيفالارى على حق .. لم يكن يستطيع أن ينازعه فى هذا الأمر .. كان
كهلاً ، طاعناً فى السن جداً ، يبلغ من العمر الخامسة والسبعين . ثم أن
ذلك الرجل كان أباه بطبيعة الحال ، وكان عليه أن يتوقع أن يحدث هذا
يوماً من الأيام ، نهض أليكسى وأخذ يجوب الغرفة بخطواته البطيئة
الثقيلة مستغرقاً فى التفكير .. ثم قال بعد قليل :

- من رأى ألا نقطع فى الأمر اليوم ، فلنرجئه إلى غد ، ونعاود
الحديث فيه ، ثم عليك أن تترك الولد الآن حتى يكمل سنته الدراسية

ويؤدى الامتحان فى الصيف ، وسأوفده إليك ، فكثير من المسافرين
يأتون من الإسكندرية .

أصبح أليكسى الآن يبحث عن حل وسط ، يقنع به الأب برفق
وهواده حتى يؤجل فراقه للصبي بعض الوقت وبعد ذلك ربما جاء الفرج،
لكن كيفالارى نهض وقال له :

- ناد الولد وجهزه للسفر ، لأنى لا أستطيع البقاء وقتاً أطول من
ذلك ، ولا أستطيع أن أعود اليك غداً .

ولما لم يحرك العجوز ساكناً أضاف كيفالارى قائلاً :

- ستناده ، أم أذهب وأخذه وحدى ؟ وإذا أثرت المشاكل ، فيجب
أن تعلم أننى سأضطر على أسوأ تقدير أن أرجئ سفرى إلى الأسبوع
المقبل ، وسأنتزعه منك عنوة .. بأمر النيابة .

وخرج من الباب وصاح :

- ستاماتى .

جرى أليكسى إليه وقال له :

- لا تفزع الولد. انتظر .. سأحضره، سأكلمه. لا تتصرف على هذا
النحو. ستأخذه ، طالما تريد ذلك. جازاكما الله على ما اقترفتما ..

وخرج إلى باب الفناء ، وأحضر ستاماتى ، وقال له :

- سيأخذك أبوك معه ، لماذا تنظر إلى هكذا ؟ إنه أبوك ، كنت
تصدع رأسى دائماً سائلاً عما إذا كان سيعود ، ها هو قد عاد ، هيا،

الآن ، إنه مكان طيب حيث ستذهب .. الإسكندرية مدينة أجمل من أثينا .. وهناك أيضاً نهر عريض ، مثل بحر تتدفق أمواجه ، ألم تر فى حياتك نهرا ؟ سترى إذن ، وهناك جيار .. جيار أصيلة .. جيار عربية .. وهناك قرود أيضاً .. إنك ترى هنا أناساً وتقول عنهم إنهم قرود ، لكنك هناك سترى قروداً حقيقية ، وستكتب لى من الإسكندرية ، ستجلس بالليل وتحرر لى خطاباً ، بتلك الأحرف الكبيرة المستديرة التى تخطها فى الكراسة التى تكتب فيها دروسك ، وسأبعث اليك بالرد ، وتكتب لى من جديد .

وبعد ذلك ، جهز أليكسى حاجيات الصغير بنفسه ، وربطها فى لفافة ، وأعطى لوالده بعض النقود ، وقال له :

– هذه للصغير .

عندما رحل كيفالارى برفقة ستاماتى ، لم يستطيع أليكسى أن يصحبهما إلى باب الفناء إلا بكل صعوبة ، كانت ركبته المتحجرتان قد دب فيهما الخوار ، ولم يقو أن يقول سوى هذه الكلمات :

– رافقتكما السلامة .. سفر طيب .

عاد إلى الغرفة بخطى بطيئة ، لكنه قبل أن يدخل من بابها خر واقعاً على الأرض .. جرت خادمة الحظيرة واستدعت الطبيب . جلطة .. ومنذ ذلك الحين لم ينهض أليكسى من الفراش .. وزحف الشلل إلى جسمه رويداً رويداً ، لكنه كان سمحاً فى مرضه ، كما كان فى أيامه الطيبة .

لم تبدر منه أية شكوى من أى شىء ، كان يتمتم محادثاً نفسه
فحسب ، ومضت حالته تسوء يوماً بعد يوم ، وأخذ لايتعرف على من
يقترّب من فراشه ، وأصبح صمته متصلاً .

كانت خادمة الحظيرة تقول لبقية النسوة اللاتي كن يتجمعن عند
باب الفناء :

- كم يتعذب المسكين ، منذ أسبوعين تقريباً وهو يرى ملاكه وفى
بعض الأحيان ترتسم الابتسامة على شفّتيه ، لم يكن رجلاً شريراً .
وهكذا لفظ أليكسى أنفاسه الأخيرة ، بينما كان يرى ملاكه طيلة
أسبوعين ، لكن ماذا كان هيئة ذلك الملاك حتى يبتسم له أليكسى ؟ أكان
يشبه أولئك الأشخاص الذين أحبهم ، وأخذ الموت منهم بعضهم ،
وأخذت الحياة منه البعض الآخر ، أم كان يشبه جياده ، تلك المخلوقات
الوحيدة التى استطاعت أن تفهمه ولم تحزنه قط ؟ .

صداقة

ليليكا ناكو

نيكو أذنامى ، كان هذا هو اسمه .. وجدوه عند مفرق الطريق بعد
بضع خطوات من البنك الأهلى ، وجدوه ملقى على الأرض يبكى . وقع
منه عكازه فى الطين ، وساقه عارية مثخنة بالجراح .. كان يناهز الحادية
عشرة من العمر ، لكن الجوع قد طمس معالم سنه ، ذلك الجوع الذى
يصبغ الشعر والبشرة بلون مبهم غير محدد . إلى جوار الصبى وقف
كلب يلحق رجله ، وكان الناس الذين تجمعوا يحاولون أن يطردوا الكلب
ويرمقون الصبى بنظرات الإشفاق ، لكنه كان يصيح بين الفينة والفينة
«إنه كلبى .. ! لاتضربوه» ومهما أمعن الناس فى طرد الكلب ، لم يكن
يبتعد عن الصبى .

هذا ما أخبرتنا به فتاة طيبة القلب ، أحضرت أذنامى إلى
المستشفى فى عربة .. عربة يد رديئة الصنع .. من تلك العربات التى
كانت تصنع آنذاك من قطع الخشب المهملة ومن صناديق تركب تحتها
عجلتان ، وكانت تستخدم لكل أغراض النقل .. كانت عربة من تلك

العربات وليدة الفقر والحاجة ، التى كنت تراها فى شوارع أثينا محملة بالأجولة والبشر والجثث .

وضع أذنامى فى عربة من هذا القبيل ، كان عاجزاً عن المشى بسبب ساقيه المقروحتين ، فقد كان يعانى نقصاً شديداً فى التغذية وتدهوراً عاماً فى صحته .. عربة اليد فى المقدمة ، يدفعها صبي آخر من ماسحى الأحذية ، والكلب وراءهما . ثم الفتاة بعد بضع خطوات .. هكذا وصل الموكب إلى المستشفى صبيحة يوم من أيام الربيع .

كانت الفتاة تستعجل الانصراف ، لأنها كانت تعمل فى أحد المكاتب ، أخرجت من جيبها نقوداً ودفعت ثلاثمائة وخمسين دراخمة أجره العربة من «أومونيا» إلى «رازاريو» وكان ذلك المبلغ يعتبر ثروة كبيرة فى تلك الأيام ، كان العرق يتصبب من جبينها لأنها كانت تعدو طوال الطريق لتلحق بالصبيين .

قالت الفتاة لرئيسة الممرضات :

- لم يكن بوسعى أن أفعل غير ما فعلت ، وأترك الصبى ملقى على الرصيف .. كانت كمن تريد أن تبرر تصرفها هذا .. وأضافت تقول :

- لم يقدم أحد على رفعه من الأرض ، كل الناس ينظرون إليه ولا يصنعون شيئاً .. كانوا يهزون رؤوسهم ثم يمضون لحال سبيلهم .

ثم أخفضت صوتها وقالت لرئيسة الممرضات التى يبدو أنها كانت تعرفها من قبل .. قالت لها كما لو كانت تعترف لها على حين غرة :

- وأتى هذا الصبى بإشارة من يده مفعمة باليأس والضياع ..
إشارة مثل تلك التى أتاها أبى بيده قبيل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة !
فانتابنى شيء هنا فى قلبى .

هذا ماقالته الفتاة ، كان اسمها ليليك - على ما أذكر - كانت
تعطى دروساً فى العزف على البيانو ، على حد ماقالته لنا .. وأضاعت
درساً الليلة حتى تنقل أذامى إلى المستشفى ..

يبدو أن الصبى كان قد راق لها أيضاً وأرادت أن تأخذه فى كنفها .
ربما كان قلبها يفيض بالركة والحنان ، فقد كانت ماتزال شابة .

قالت له : « ابق هنا يانيكو ، وعندما أحضر غداً سأجلب لك حلوى
.. اجتهد أن تسترد عافيتك . أن تأكل ، وتتقوى وعندما تشفى ، سأعثر
لك على عمل ، حتى تصبح ذات يوم رجلاً صالحاً وشريفاً . هل تريد ذلك
حتى لاتجوب الشوارع وتألف التسول فيها؟ » .

كان نيكو أذامى يسمع كل هذا الكلام ، ويهز رأسه ، ولكن عينيه
كانت - على ملاحظت - منصرفتین نحو الباب . كان جالساً على المقعد
الخشبي هناك فى غرفة الاستقبال بالمستشفى . إنى أذكر ذلك جيداً .

سألته الأنسة ليليك التى لاحظت نظراته : « هل تريد الانصراف ؟
أين ستذهب ؟ لعلك تعودت أن تهيم فى الشوارع » .

وأجاب أذامى قائلاً : « كلا لا أريد الانصراف . لكن هل أترك
كلبى خارجاً ؟ » .

وقال له ممرض عابر استوقفه الحديث بين الصبى والفتاة : « كليك ؟
لاتشغل بالك بالأمر كثيراً . سيتخذ تجار السوق السوداء اللّازم فى شأنه !
سيبيعونه على أنه حمل صغير .. وبدلاً من أن يأكل .. سيؤكل » .

ضحك الجميع من فطنة الممرض وسرعة بديهته . وقد كانت نكتته
من النكات التى تستهوى الذوق فى ذلك الحين . على أن نيكو أدرامى
لم يضحك قط . طأطأ رأسه وزادت نظراته انخفاضاً . لا أعرف ماذا فعل
بوجهه فبدت عيناه محاطتين بمئات التجاعيد كما لو كان عجوزاً طاعناً
فى السن . أجل لم يضحك . بل استغرق فى التفكير ، وعاود التطلع
إلى الباب .

فى تلك الساعة دخل أحد الأطباء . نظر إلى نيكو ، وفهم من أول
نظرة مما يشكو .

قال : « بيلا جرا »

وهذا أيضاً مريض من أمراض العصر الذى نعيش فيه . يعانى
الجلد أول الأمر ثم يتشقق وتظهر الجروح . لكن إذا بادر المرء إلى أكل
البيض وزيت الزيتون ، وشرب اللبن ، يشفى وتندمل الجروح .

لكن منذ الذى كان بقادر فى تلك الأيام على أن يشرب لبناً ، ويأكل
بيضاً وزيتاً ؟ زيتاً من أشجارنا ! ومن أين لأدramى المسكين أن يجد هذه
الأشياء ؟ كان هو الآخر من « بيريه » ومن كانت تقذف بهم بيريه إلى أثينا
كانوا أشد جوعاً وبؤساً .

ومضت رئيسة الممرضات فى أسئلتها المألوفة :

- والدك ووالدتك ؟

- فقدتهما .

- إخوتك ؟

- ليس لى أحد .

- بيتك ؟

- كنت أبيت تحت أطلال عشة فى صحبة كلبى ، الذى يمنحنى
الدفء ، ويؤنس وحدتى .

- حسنا ، إذن .

ولم تجد رئيسة الممرضات ما يمكن أن تسأله عنه غير ذلك .

- اجلس هنا .. سيأتون ليحلقوا لك رأسك ، وتستحم ، ثم يحملونك
إلى السرير ، ويحضرون لك الطعام .

وقالت له الأنسة ليليك :

- ستصبح نظيفاً . لاتحاول الفرار من هنا حتى تلتئم جراحك . هل
تسمع ما أقول لك ؟

وأوماً أذرامى برأسه موافقاً ، وقال :

- حاضر .

لكن نظراته مالبثت أن اتجهت إلى الباب .

قلت لنفسى «لابد أنه يفكر فى كلبه » وعندما مررت فيما بعد من الممر أمام الطابق الأرضى رأيت كلباً أبيض من كلاب الشوارع ينتظر إزاء الباب مثلما ينتظر الإنسان .

كان يتلفت حوله قلقاً ، وقد لمع الذكاء فى عينيه ، ليرى من يدخل ومن يخرج. وكلما فتح الباب حاول أن يمرق إلى الداخل ، لكنه سرعان ما كان يطرد ، فيعود إلى وقفته المترقبة .

قلت لنفسى بسرعة ، لابد أنه كلب أذامى ، رفيقه الذى أمضى معه فصل الشتاء ، ذلك الشتاء المخيف قارص البرد الذى لم تر أثينا شتاء مثله من قبل. ومر الاثنان بخاطرى : الصبى والكلب يقضيان ليالى الشتاء الضارية متعانقين فى العشة المهدمة التى كان يدخل إليها البرد والريح من كل مكان. ومثل أمام ناظرى المشهد خارج بيريه كما أعرفه ، قاحل ، كئيب ، وعلى مبعده ، بضعة تلال حجرية جرداء ، وبضعة مصانع معدمة ، وأبعد من ذلك بكثير فى اتجاه «مارى جرجس» البحر الذى كان يهدر بدوره فى أعماق الليل والخلاء. وهذان المخلوقان من مخلوقات الله فى عزلتهما تحت أطلال عشة مهدمة فى الظلمة. يصفعهما ريح الشمال ، فيحتضن أحدهما الآخر بشدة ويلتصقان حتى يواجهان معاً البرد والخوف. مخلوقان من مخلوقات الله : أحدهما نيكو أذامى والثانى كلب من كلاب الشوارع .

ألقى الكلب هناك وقتاً طويلاً ومضى ينتظر. عندما مرت مرة أخرى من الممر - بعد أن قضيت بعض الأعمال في الجناح الآخر من المستشفى - رأيته مازال واقفاً لم يبرح مكانه. كان ينتظر. لم يكن يريد الانصراف .

لعل الكلب مضى ينتظر وقتاً طويلاً بعد ذلك. لعله انتظر ثم استبد به اليأس ، فصديقه لم يعد له أثر. ربما قرصه الجوع ، فمضى يجر خطاه منصرفاً، ربما هام محنى الذيل من شارع إلى شارع إلى أن ينزوى بدوره ذات صباح وحيداً مهملاً وبلا أمل في أحد الأركان ويموت. كان هذا مصيره ، كما هو مصير كثير من الكلاب ، وكثير من البشر أيضاً. أن يموتوا مهجورين مهملين في أحد الأركان. كم من كلب وكم من إنسان رأيناهم يموتون في ذلك الشتاء على قارعة الطريق ! وكانت عيون الكلاب مفعمة بالانتظار وهي تترقب الموت ! لايطرف لها جفن ولاتضطرب ، عدا الفخذين ، فربما ارتعدتا قليلا من البرد. وعلى مقربة منها في الطريق يتدفق الخضم الرحيب من جموع البشر الذين يهرعون مضطربين وقد ارتسمت على قسماتهم إمارات القلق ، يحاولون العثور على طعام يشترونه ، ليأكلوه هم وأولادهم ، قبل أن يتكوموا بدورهم في ركن من الأركان وينتظروا الموت .

ولئن كان كلب أذامى قد عاش حتى الآن ، ولم ينفق جوعاً مثلما نفقت كل الكلاب الأخرى في أثينا وبيريه ، فلأن الصبى الصعلوك أذامى كان سيده ، وكانا يتقاسمان معاً لقمة العيش كل يوم ، أما الآن فمن ذا الذى سيعطى لـ كلب أذامى ما يأكله ؟

ربما دارت كل هذه الأفكار فى ذهن نيكو أدزامى ، عندما كانوا يحلقون له شعره ويعيدونه للاستحمام. هذا ما كان يقلبه أدزامى فى رأسه .

«ماذا أريد هنا وسط الزفرات والصياح وعويل الأطفال الذين يستحمون ؟ عما أبحث وسط هذه الجلبة ، والناس الأغراب بمقصاتهم وقطع الصابون فى أيديهم ؟ وبالليل من سيكون إلى جوارى يسلينى؟ «وبوبى» ، ماذا سيفعل وحده ؟ وإذا عاد الإنجليزى الذى أعطانى الكلب ، بوبى، وطالبنى به ماذا سأقول له ؟ لقد أكلت عيشاً كثيراً عنده. كنت أنظف له حذاءه. كان صندوقى مازال معى. لم يكن قد سرقوه منى بعد. وعندما رحل ترك لى الكلب وقلت له «أول رايت ، يس ! سافر مطمئن البال ! سأحافظ على كلبك ، لأنى أحب الحيوانات !» .

وتم الاتفاق بين الإنجليزى والصبى بالرغم من أنهما لم يكونا يعرفان لغة مشتركة يتحدثان بها .

طاف كل ذلك بذاكرة نيكو أدزامى أثناء حلاقة رأسه ، بالآلة الصغيرة ذات الموسيقى الحادة. طاف كل ذلك بذاكرته رغم تأمله أثناء الحلاقة ، لأن رأسه كانت بها قروح ، وأطلق الصرخات .

كم كان أولئك المشرفون على المستشفى لايحسنون عملهم ! بدلا من أن يعطوه طعاماً ليأكل أجلسوه وحلقوا رأسه . ألم يكن ذلك سبباً ليذب النفور فى قلب صبى التقط من الشارع وجيء به إلى حيث قيل له إنه سيكون أحسن حالاً ؟

دب النفور فى قلب أدزامى بدوره وخاف ، كما أرقه القلق على كلبه . وصار كالحيوان الحبيس يترقب اللحظة التى ينطلق فيها هارباً . ولعن فى سره تلك التى غررت به وأتت به إلى هنا . وفى لحظة كان الجميع من حوله منشغلين عنه وذلك عندما تركه الحلاق ليتولى أمره الممرض الذى سيغسله ، اختفى أدزامى عن أنظارهم ، وبخطوات عرجاء أفلت منهم .

مضى يتخبط بعكازيه ملتفتا يمناً ويسرة ، ينهش الخوف قلبه خشية أن يروه . وخرج إلى فناء المستشفى الذى كان غاصاً بالناس يتدافعون ويصيحون ويستجدون مكاناً وسريراً بالمستشفى . فى خضم هذا الصخب لم يكن أحد لينتبه إلى أدزامى .

وقال أدزامى لنفسه : «هاهى فرصة طيبة لأهرب ، وأخرج من هنا !» . عند الباب فحسب صاح فيه البواب قائلاً : «أنت يا ولد ، أين تذهب ؟ ألم يسمحوا لك بالبقاء؟» .

وأوماً الصبى برأسه علامة النفى ، وأسرع بالإفلات من الباب المفتوح إلى الشارع الرحيب . ستسألوننى كيف وجد أدزامى فى نفسه القوة الآن ليمشى على قدميه بينما لم يكن له هذه القدرة عندما أحضرته الأنسة ليليكاً محمولاً على عربة ؟ هيه ، هذه أَلغاز تعودنا عليها نحن الذين نتعامل مع الأحداث المشردين . فضلاً عن مكرهم الشديد .

وفضلاً عن رقادهم وادعائهم المرض ، عندما يريد أحد أولئك الصبية أن يهرب من المستشفى ، فإنه سيجد لنفسه الوسيلة حتى لو كان على شفا الموت ! إن الخوف ينبت للخائفين أجنحة .

وعندما نزلنا نحن المرضيات لنأخذ أذنامى كان فص ملح وذاب !
بحثنا عنه هنا وهناك ، لكنه كان قد اختفى !.. نادينا عليه وخرجنا
إلى الفناء ، لكن لم يكن ثمة جدوى .

وقال أحد المرضين ضاحكاً « لا بد أنه هرب مثل ذلك الصغير الآخر
الذى جلبوه على نقالة بين الحياة والموت » ثم تمتم يقول لنفسه : « هل
تحبس العصافير فى القفص بسهولة ! » .

وعندما جاءت الأنسة ليليكاً بعد الظهر ولم تجد الصبى كان حزنها
لا حد له . « راح تعبى ، والدرس الذى فوته على نفسى من أجله » .

وصاحت رئيسة المرضيات :

- أهذه أحوال تسر فى هذا المكان ؟

وأردفت تصيح من جديد .

- أهكذا إذن ترعون الأولاد ؟

وهمهم المرضيون قائلين :

- كأنه أول ولد أو ثانى ولد يهرب منا ، ألا تعرف أن أولاد
الشوارع من الصعب أن ينصلح حالهم ؟ لماذا تصيح ؟ ألف هؤلاء
الصبية حياة الصلابة .

وانتهز الحلاق الفرصة ليروى كيف أن أحد الصبيان فر من يديه
ذات يوم وهو يحلق له . فر فى اللحظة التى استدار يتناول فيها المقص ،
وأقلت برأسه نصف مملوكة .

راح إذن أدزামী. وضحكت إحدى المرضيات المكلفات بغسل الأولاد وقالت :

- ماذا تنتظرون من صعلوك مثله؟ .

كان يمكن أن تنتهى حكاية أدزামী عند هذا الحد. تنتهى هكذا بكل بساطة ، مثل كل حكايات الناس والحيوان أيضاً ، التى تصل إلى نقطة ما ثم تتوقف . وتمضى فى طريقك ، وتنصرف إلى حياتك وتنساها . لكن فى بعض الأحيان وبلا أدنى سبب ، تتذكرها فجأة فينتابك الشجن لما تقصه تلك الحكايات الحزينة عن الحيوان وعن البشر ، ثم لا تلبث أن تحاول نسيانها من جديد حتى تقوى على الحياة ، وتنجح فى نسيانها . على أن القلب يظل ثقيلاً ويزداد ثقله كلما تقدم به الزمن .

لكن حكاية أدزামী لم تكن لتنتهى بعد . ذات ليلة ، فى ساعة متأخرة ، كنت عائدة من عملى وحيدة ، أذرع الشوارع المظلمة مسرعة ، بل كنت أجرى . كنت أجرى فى الظلمات المخيمة على شوارع أثينا . وكانت تدوى فى أذنى تلك الصيحات المخيفة التى كان يطلقها الجياع والتى كانت تشبه مواء القطط . كنت أسمع عبارة «أنا جوعان» تنطلق من الأفواه فتزلزل أعماق القلب ، ويتراعى البشر يهيمون مثل أشباح فى الجحيم كتبت عليها اللعنة ، يئنون ويتخبطون فى مشيتهم كالسكارى ثم يسقطون فجأة على الأرض ويصمتون .

أجل ، فى ليلة مثل هذه أثناء عودتى من المستشفى ، وكنت أحذر فى مشيتى أن أرتطم بجسد إنسان ملقى على الأرض ، وأمسك فى يدى

مصباحى موقداً ، رأيت مشهداً غريباً ، هناك على عتبة كنيسة القديس
ذيونيسى .

صبي منكس الرأس يبكى بحرقة ، وقد ضم شيئاً إلى صدره ،
وقلت لنفسى لعله يحتضن طفلاً ، لكننى عندما اقتربت منه وصوبت ضوء
المصباح إليهما تبينت أن الصبى غارق فى الدماء وأن الذى فى حضنه ،
واعتقدت أنه طفل ، كان كلباً .

كان الصبى حزيناً لا يعزيه شيء . وكان الظلام من حوله دامساً
وشعوره بالعزلة مريراً ، وهو يذرف الدمع مدراراً فى أعماق الليل
البهيم . كان كل شيء أليماً موجعاً يمزق القلب .

وقفت وسألته :

- هل بك ألم ؟ هل ضربك أحد ؟ لماذا تبكى ؟

لكن الصبى لم يجب ، واشتد نحيبه . وأصررت على السؤال .
وأجابنى الصبى فى النهاية دون أن يرفع رأسه .

- لم أضرب أنا . صدموا كلبى ! . ومضى فى النحيب .

- قتلوا كلبى ! ألا ترين ؟ مر موتوسيكل منذ قليل ، وصدم كلبى !
آه ، لوكنت سمعته كيف كان يعوى ! جريت وأخذته بين يدي .. لكن
ها هو الآن قد صمت ، لا بد أنه مات .

وعاود الصبى البكاء والتشنج .

قلت له :

- تعالى معى .

لم أتلق أية إجابة من الصبى . كان ماضياً فى البكاء منكباً على الكلب المسك به فى أحضانه .

- وماذا ستفعل الآن ؟ .. هل ستظل متشبثاً بالكلب هكذا ؟ دعه ، وتعال معى .. رفع عينيه ونظر إلى . لكن عندما تبين لباس المستشفى الذى كنت أرتديه خاف وهم بالابتعاد .

أمسكت به من يده ، وقلت له :

- انتظر . لا تنصرف . أعرف أنك أذامى ، لن أذهب بك إلى المستشفى .

تعالى إلى بيتى ، معى . دع الكلب فى ركن من الأركان ، ماذا ستفعل به ؟ لقد مات . ألا ترى ؟

لكن الولد ما أن سمع ذلك حتى زاد انفعاله ، وصاح :

- أبداً ! أبداً ! لن أدعه ، لن يلقي إلى الشارع ولن يرمى فى القمامة . سأذهب لأدفنه فى المنتزة الكبير حيث نمنا أمس . وحيث كنا ننام مؤخراً متعانقين ، تحت إحدى الأشجار .

وخنقت العبرات صوته ..

ثم أردف يقول :

- وكل ليلة سأذهب لأنام هناك ، حتى لا أتركه وحيداً .

نطق أذنامى بهذه الكلمات على عجل ، لاهثاً ، كما لو كان قد جرى شوطاً بعيداً ، وبغضب أيضاً. وقد ارتسم على وجهه تعبير من اليأس الوحشى ليس بإمكانك أن تتصوره على وجه صبي صغير مثله .

ثم نزع نفسه من يدي بعنف واختفى فى ظلمات الليل محتضناً كلبه المقتول متشبهاً به . اختفى من أمامى كشبح صغير من أشباح الجحيم. وكان من الصعب العثور عليه بعد ذلك .

ظلم صارخ يجرى

نيقوس كازندزاكى

أمضيت سنى حياتى الأولى مثقلاً بهوم الصبا . استيقظ بداخلى وحشان كبيران ، نمره رقطاع هى الجسد ، ونسر نهم ينهش أحشاء الإنسان ، وكلما زاد مايلتهمه زاد جوعه ، وهو العقل .

عندما كنت لا أزال جد صغير ، أبلغ من العمر ثلاث سنوات أو أربع ، تملكنتى رغبة شديدة فى أن أزيح النقاب عن لغز الحياة. مضيت أسأل أمى. مضيت أسأل خالاتى: كيف يولد الأطفال ؟ كيف يدخلون البيت فجأة ؟ من أين يجيئون ؟ كنت أفكر فى الأمر ، لابد من أن هناك بلداً أخضر ، وربما كان هو الفريوس أيضاً ، فيه ينبتون: مثل زهور برية حمراء. أجل ، ينبت الأطفال هناك. ومن وقت لآخر، يدخل أحد الآباء إلى الفريوس ، يقطف إحدى هذه الزهور ، ويحملها إلى البيت. قلبت هذا الفرض فى ذهنى ، لكننى لم أكن أميل إلى تصديقه كثيراً . وكانت أمى وخالاتى لايعرنتنى التفاتاً ، أو يقلن لى بعض الأساطير التى ماكانت بدورها تشفى غليلى إلى المعرفة. كنت أعرف على أى حال أكثر مما كن يعتقدن ، وما كنت أصدق شيئاً مما يقال .

وعندما ماتت ذات يوم من أيام تلك الحقبة جارتنا السيدة كاتينا ، وكانت لاتزال شابة ، رأيتهأ تحمل راقدة على ظهرها ويخرج بها حاملوها هكذا من باب بيتها ، ويتبعها أناس كثيرون. ويميلون مع الزقاق الضيق ، ثم يختفون. استبد بى الخوف ، وسألت «لماذا أخذوها ورحلوا؟» ثم عدت وسألت «إلى أين يذهبون بها ؟» لكن ما من أحد شرح لى معنى ذلك. انزويت فى ركن من أركان البيت خلف الأريكة ، وضعت وسادة على وجهى ، وشرعت فى البكاء لا عن حزن ، ولا عن خوف ، بل لأننى لم أكن أفهم. لكننى بعد بضع سنوات ، عندما مات مدرسى كراساكيس ، وجدت أن الموت كان قد كف عن إخافتى ، كما لو كنت قد فهمت ماهيته ، وما عدت أسأل .

هذان الأمران ، الميلاد والموت ، كانا بالنسبة لى السريرين الأولين اللذين ألقا روحى أيام الصبا. كنت أدق بقبضتى الغضة هذين البابين المغلقين ، كى يفتحا. وقد تبينت أن ما من عون أستطيع أن أنتظره فى هذا من أحد. كان الجميع يلزمون الصمت إزائى، أو يسخرون منى. وأيقنت أن مايعن لى أن أتعلمه سوف أتعلمه وحدى .

ورويداً رويداً ، كان الجسد بدوره يستيقظ ، مملكتى تلك التى كانت مكونة من سحب وتوقعات ، أخذت تتماسك. كنت أسمع شتائم الشارع ، ولم أكن أدرك بوضوح ماذا يقصد بها ، لكن خيل لى أن بعض هذه الشتائم حافلة بدلالات محرمة خفية. لذلك صرت ألتقطها وأصنفها فى عقلى ، وكنت أرددها بداخلى كى لا أنساها. على أنه ذات يوم أفلتت منى إحدى تلك الشتائم. تلفظت بها بصوت مسموع ، وسمعتها أُمى ، فانتفضت مرتعبة. صاحت فى قائلة :

- من قال لك هذا الكلام السيئ ؟ لاتنطق به مرة أخرى .

دلفتُ إلى المطبخ ، وأحضرتُ فلفلاً مسحوقاً ، دهنتُ به شفتى .
أطلقتُ الصراخ ، فقد التهب فمى كله ، لكننى أقسمت لنفسى - لقاء
إصرارها غير المبرر فى نظرى - أن أردد هذه الأقوال سرّاً ، لأن
الفرحة التى كنت أستشعرها ، وأنا أنطق بها كانت كبيرة .

ولكن منذ ذلك الحين ، صار كل قول محرم يحرق شفتى ، وتصعد
إلى أنفى رائحة الفلفل. وذلك حتى الآن ، بعد كل هذه السنين ، وبعد
ارتكابى العديد من الخطايا .

فى تلك الحقبة القديمة ، كانت المراهقة تستيقظ فى بلدتنا جد
متأخرة ، وقد استبد بها الخجل ، ساعية إلى الاختفاء وراء العديد من
الأقنعة. وقد كان قناعها الأول بالنسبة لى هو الصداقة. وقد توطدت
أواصر ملتبهة بينى وبين تلميذ عادى من رفاق المدرسة ، ربما كان أقلهم
أهمية ، بديناً ، قصيراً ، معوج الساقين ، ذا جسم رياضى ثقيل ،
وبلا أدنى فضول روحى. وقد بدت لى صحبة صبى مثلى أكثر ملاءمة
وأقل خطورة من صحبة صبية. كنت أشعر بنفور غريب مشوب بالخوف
متى قابلت امرأة. وعندما كانت تهب ريح فتزيح حافة ثوبها ، كنت أشيح
بوجهى فجأة ، وقد احمر وجهى خجلاً وعناء .

مع صديقى هذا ، وزميل آخر من زملاء المدرسة ، نحيل العظم ،
قليل الكلام ، ذى عينين زرقاوين خضراوين ، أسسنا فى إحدى

الإجازات الصيفية جمعية سميناهما «جمعية العدل». كنا نجتمع سرّاً
ونتبادل قسمًا تلو قسم ، ووقعنا فيما بيننا موثيق ، حددنا فيها الهدف
الذى سنعيش من أجله : أن نحارب طوال حياتنا بلا قيد أو شرط -
نحارب الكذب ، والعبودية ، والظلم. بدا لنا العالم كاذباً ، ظالماً ،
شريراً. أخذنا على عاتقنا ، نحن الثلاثة ، أن ننقذه. انفصلنا عن زملائنا
فى المدرسة ، ومضينا نسير ثلاثتنا على الدوام معاً ، نستعرض خططاً
توصل إلى أهدافنا ، ووزعنا على كل منا المجالات التى سيحارب فيها.
ساكتب أنا ، هكذا قلنا ، أعمالاً مسرحية ، وسيصبح صديقى ممثلاً
يؤدى أنواراً فيها ، أما ثالثنا الذى كان متيماً بالرياضيات ، فسوف
يصبح مهندساً ، كى يخترع اختراعاً كبيراً ، يثرى بدخله خزائن «جمعية
العدل» وبذلك يتسنى لنا جميعاً أن نساعد الفقراء والمظلومين .

والى أن تأتى هذه اللحظة الكبرى ، كنا نفعل كل ما بإمكاننا حتى
نظل أوفياء لما أقسمنا عليه. تحاشينا الكذب ، وكنا نضرب فى الأزقة
المهجورة كل من نلتقى به من أولاد المحتلين الأتراك ، وخلصنا الياقات
وأربطة العنق ، وارتدينا سترات ذات خطوط بيضاء وزرقاء ، وهما لونا
العلم اليونانى .

على أننا فى ليلة شتائية ، رأينا فى الميناء حملاً تركياً عجوزاً ،
انزوى فى ركن يرتعد من البرد عارياً. كان الظلام قد أرخى سدله ،
ولم يعد يرانا أحد. خلع أحدنا سترته ، وخلع الآخر قميصه ، وثالثنا
خلع صدريته. وأعطينا للحمال العجوز ملابسنا. أردنا أيضاً أن نعانقه
لمواساته ، ولكن لم نجروء على ذلك. انصرفنا خجلين ، وقد أثقل الحزن
قلوبنا ، لأننا لم نؤد نحوه واجبنا كاملاً .

اقترح صديقى علينا «أن نرجع ونبحث عنه».

قلنا «هيا!». .

عدنا أدراجنا نجرى. بحثنا عن الحمال العجوز ، كى نأخذه بالأحضان ، نواسيه ونشد أزره ، لكنه كان قد رحل .

وذات مرة أخرى ، علمنا أن محامياً كبيراً من بلدة مجاورة كان قد خطب فتاة غنية ، وتقرر أن تجرى مراسيم القران يوم الأحد التالى ، ولكن فى هذه الأثناء جاءت من أثينا فتاة فقيرة ، على غاية من الجمال ، كان المحامى يعاشرها عندما كان طالباً يدرس بالعاصمة ، وكان قد وعدّها بالزواج. وما أن وصل إلى علمى نبأ هذه الفضيحة ، دعوت «جمعية العدل» لالانعقاد. واجتمع ثلاثتنا بغرفتى ، عندنا فى بيت الأسرة ، وقد عمنا السخط ، فإن هذا الظلم ماكان بإمكاننا أن نسكت عليه. تناقشنا ساعات فيما يجدر أن نقوم به من إجراء إزاء ذلك . وفى النهاية ، اتخذنا قراراً بأن نقابل ثلاثتنا أسقف البلدة ، ونطلعه على هذا العمل غير الأخلاقى. كما أرسلنا خطاباً موقعاً منا باسم «جمعية العدل» إلى المحامى ، وهددناه بأنه إن لم يتزوج دوروثيا - كان هذا اسم فتاة أثينا - فسوف يلقى حساباً عسيراً من الله ومنا .

ومن ثم ارتدينا أفضل ثيابنا ، ومثلنا أمام الأسقف. كان عجوزاً نحيفاً ، مصدوراً ، على غاية من الدهاء ، تتقطع أنفاسه أثناء حديثه ، لكن عينيه كانتا تومضان مثل جمرتين متقدتين. على مكتبه وضعت صورة المسيح ، كان مسيحاً متورداً الوجنتين ، ممتلئ الجسم ، وشعره

مفروق عند الوسط ، وأمامه أيضاً وضعت صورة كبيرة من أعمال الحفر
للقديسة صوفيا . نظر إلينا الأسقف بدهشة مشوبة بشيء من الانزعاج .
قال :

- ماذا حدث ، يا أولاد ؟

شرعنا نتحدث إليه معاً مبهورى الأنفاس ، وقد عمدنا إلى الصياح
كى نتشجع على الكلام .

- ظلم صارخ ، ظلم صارخ يجرى .

سعل الأسقف ، وبصق فى منديله الصغير . ثم قال ساخراً .

- ظلم صارخ ؟ وما شأنكم أنتم به ؟ أستم تلاميذ ؟ التفتوا إلى
دروسكم .

- ياسيدنا المبجل .

وبذلك شرع يتكلم صديقى الذى كان أكثرنا بلاغة ، وقص عليه
الفضيحة الاجتماعية كلها . واختتم صديقى قائلاً :

- لن يكون بإمكاننا أن نذوق طعم النوم ، ياسيدنا المبجل ، لن
يكون بإمكاننا أن نلتفت إلى دروسنا إن لم يرفع هذا الظلم أولاً . يجب
أن يتزوج المحامى من دوروثيا .

سعل الأسقف من جديد . وضع نظارته على عينيه ، ونظر إلينا
طويلاً . بدا لنا وجهه ، وقد انسكب إليه نوع من الإشفاق الغريب . ترقبنا
كلامه متوترين . وفى النهاية فتح فمه وقال :

- إنكم شبان ، لا زلتم صبياناً . ترى ، هل سيمد الله فى عمرى كى أرى بعد خمسة عشر أو عشرين عاماً كيف ستكون نظرتكم إلى الظلم ؟ صمت . ثم بعد هنيهة ، تمتم قائلاً ، كما لو كان يحدث نفسه :
- كلنا نبدأ هكذا .

وعندئذ تكلمت ، فقد بان لى أن الأسقف يريد أن يغير مجرى الحديث . قلت له :

- سيدنا المبجل ، ماذا نفعل كى نمنع وقوع هذا الظلم ؟ مرنا . صديقائى وأنا على استعداد أن نلقى بأنفسنا فى النار ، إذا قلت لنا القوا فى النار بأنفسكم . يكفى أن ينتصر العدل .
نهض الأسقف ، ماداً إلينا يده لتقبلها :

- اذهبوا فى رعاية الله . واجبكم أديتموه . يكفيكم هذا . أما الباقى فمن شأنى أنا .

انصرفنا مبتهجين .

صاح صديقى قائلاً :

- تحيا «جمعية العدل» !

وبسط ذراعيه ، وضمنا إليه ، واحداً على يساره والآخر على يمينه .
يوم الأحد التالى ، عقد بالكنيسة قران المحامى على الفتاة الغنية . وعلمنا فيما بعد أن الأسقف كان يروى لأصدقائه قصة زيارتنا له ، ومبلغ جزعنا على العدل ، وكان وهو يروى لهم ذلك لا يتما لك نفسه من الضحك .

معجزة لقاء الإنسان للإنسان

تاتيانا ستافرو

سألت الأخت الكبيرة بعصبية :

- والآن ، ماذا تريدان أن تفعل ، بعد كل هذا ؟ ستدافعين عن شرفك مثل تلك البطلات القديسات فى الحكايات القديمة !.

وبدلا من أن تجيب الأخت الصغيرة ، همت أن ترتدى قلنسوتها ، لكنها لم تكمل حركتها .. سقط ذراعها ثقيلين إلى جنبها .

- وهل كان يتصور أحد أن تحدث أمور مثل هذه ، أمور كتب لنا عنها منذ قرون وقرون طويلة ، أعنى ، أن يترك المرء ، أقرب أقربائه ، ذلك الذى يحبه ، يتركه للخوف المهول ، للموت ، للسجن ، بينما كان بالإمكان أن ينقذه لو لم يخش التضحية فحسب .. لو لم يخش أن يصاب بالأذى فى جسمه .

- استحلفك بحياتك ، ياهلينى ، اسكتى . لاتمضى فى هذا الحديث ، طالما تعرفين أننى لن أترك فرصة مثل هذه تضيع .. وهى أملنا الوحيد .

انطفأ وميض القلق الغاضب فى النظرات السوداء ، واغرورقت
عينها المرأة بالدموع الحارة .

- آه ، لو كان بإمكانى أن أخلصك من هذه التجربة لما ترددت فى
ذلك .. بلا أدنى شك .

- وهو منفر ومخيف إلى أقصى حد ... جبل لاحس فيه .. جبل من
الجثث المسودة .. يداه وحدهما مكتنزتان بشحم يزيد فى مقداره عن كل
اللحم الذى بجسدى .. وذلك الصوت الممطوط الذى يخرج من أنفه .

أتت الأخت بحركة يائسة ، قذفت بخصلات شعرها الغزير إلى
الوراء ، ودفنت وجهها بين راحتيه ، ثم قالت بصوت عذب خفيض ،
يكاد يسمع :

- حتى تكون تضحيتك أشد وقعاً ، حتى يكون الثمن المدفوع لقاء
حياتهما أغلى .

وفى ومضة ارتدت مارو النحيلة القد معطفها وقلنسوتها بعزم أكيد ،
كما لو كانت قد تلقت العون من قوى غامضة غير محدودة ، وقد بدا فى
نظراتها القلق والعناء والألم بكل وضوح .

- ربما تكونين واهمة أيضاً ، ربما لاتدور هذه الأفكار بخلد
الرجل .. لقد قبل أن يساعدنا ، ما أن طلبت منه ذلك ..

أخرجت الفتاة الورقة دون أن تجيب بشيء ، وعادت تقرأها . ترام
رقم ٧ . محطة إيفانجيليزمو . شارع رافينييه .. أما بقية ما كان مكتوباً
فكانت تذكره دون حاجة إلى قراءة «الباب الرابع ، على اليسار ،

حديدي ، تنزلين درجتين ، وفي الخلف تجدين باباً صغيراً مختبئاً في أحضان الزرع الأخضر» ، كان قد انغرس في أذنيها الصوت المملوط وهو يقول «في أحضان الزرع الأخضر» - ذلك الصوت الرفيع الخارج من الأنف الكبير بنبرة مضحكة ، مضحكة .

- لماذا يحدد للمقابلة بيته المنعزل ، بدلاً من أن يحدد لذلك محلاً عاماً ظاهراً للعيان ، لو لم تكن لديه مثل هذه الأفكار الخبيثة ؟

خطرت هذه الفكرة ببالها ، لكنها لم تنبس بكلمة. إن الكلمات تزيد ما في النفس من مرارة ، ثم أن الكلمات زائدة عن الحاجة ، وغير مجدية في الموقف الرهيب الذي كانت توجد فيه .

عندما وصلت الأختان إلى الباب الخارجي تعانقتا في يأس. «من ذا الذي كان يتصور مثل هذا الأمر ؟ من ؟» تأوهت الأخت الكبيرة ، وندت منها هذه العبارة ، ناسية في لوعتها كل ما كانت تقوله من قبل .

- ماذا يهم وسط كل هذه التعاسة أن تتجعد الوردة .. أي دور ألعبه ، أنا نملة الأرض الصغيرة .

لم تكمل ما أرادت أن تقوله. وأسرعت الخطى دون أن تلتفت وراءها .

كان الوصف الذي أعطاه «سيادة المدير» على غاية من الدقة حتى أن الفتاة لم تلق مشقة في الوصول إلى العنوان ، بل إنها لم تجد نفسها بحاجة حتى إلى الرجوع لتلك الوريقة. هاهو الباب ذو الأعمدة الحديدية ، وقد وجدته موارباً ، هاهي الدرجتان و «أحضان الزرع الأخضر» ، كل

شئ فى مكانه ، وبالإضافة إلى ذلك بلل مطر رطيب متقطع ، الياسمينه البرية ، غسلها من التراب ولكن عيني مارو لم تريا مع ذلك فى ضوء الشتاء شيئاً .

- أهلا بك .. وسهلا .. الجو دافئ هنا بالداخل .. أرجو ألا تكونى قد لقيت عناء فى المجئ يا طفلى !

- أوه ، على الإطلاق ..

كان قلبها يهدر بشدة فيمنعها من أن تسمع جيداً . تسمرت قدمها هناك عند المدخل ، إلى جوار المدفأة العالية السوداء التى يشع منها الدفء ، ولم تقدا على خطوة أخرى .

على أنه بدوره لم يدعها إلى ذلك - قال وهو يرتدى معطفه وقبعته : لنذهب ، لنذهب بسرعة ! ثم فتح غطاء المدفأة الصغيرة ، وألقى ضحكاً نظرة على الجمرات المتقدة ، وأغلق الغطاء . أجال بصره فيما حوله . أدار مفتاح النور ، وأطفأه . بقى الاثنان برهة صغيرة جنباً إلى جنب يغمرهما الدفء والضوء الخافت ، وفى السكون المخيم كاد يسمع قلب المستخدمة الشابة وهو ينتفض .

وشعرت بيده الثقيلة على كتفها :

- لنذهب ، ولنبتهل أن يأتنا بمقابلته ، وأن يكون مزاجه رائعاً أيضاً .

رنت المفاتيح عندما سقطت فى جيبه ، وجلجل الباب الخارجى الحديدى عندما أغلق وراءهما ، إلا أنهما عندما خرجا إلى الشارع الصغير المهجور لم تر الفتاة أية غضاضة فى أن تمسك اليد الغليظة

المكتنزة «بشحم يزيد مقداره عن جسمى كله» ، تمسك بذراعها وتساندها فى المسير. بل إنها شعرت بالرضاء فيما بعد ، خلف عمائر المستشفى الذى لم يكتمل بناؤه ، حيث يتسلل الهواء بين جنباته داخلا خارجا مصفرا ، شعرت بالرضاء لوجود الرجل إلى جوارها ، ينود عنها العزلة ، ويبعث الدفء فى أوصالها .

سارا مسرعين. وفى كل خطوة كان يسمع صليل المفاتيح فى جيب الرجل. وقالت مارو لنفسها «يُفصل التريزية الجيوب حسب عرض السروال .. ترى كم حجم جيبه ؟ .. لابد أنه فى حجم المخلاة ، أو ربما أكبر من ذلك . لكنه ليس ثقيل الظل .. يبدو فى المكتب بمظهر آخر .. كلا ، إنه ليس ثقيل الظل» .

- أحياناً ، فى مثل هذه الأحوال ، يتدلى النجاح من خيط رفيع .. طلبت منك أن تأتى معى ، لكن عليك أن تطبقى فمك ، ولا تتكلمى ، تمالكى نفسك بأنفة .. إنه شخص شديد البرود ، صموت ، ومتعال .. أرجو فحسب أن يستقبلنا ، وألا يكون قد انصرف .

ندت منها صيحة قصيرة خائفة ، بددت السكينة المخيمة :

- لكنه جاء اليوم فحسب !

- لاتصلح التخمينات .. لا يعرف أحد متى يأتى ومن أين يأتى ، متى يسافر ، وإلى أين .. إنه شخص غريب الأطوار ، منطو ، صموت .. مامن طريقة تمسكيه بها .. لا أحد يعرف فيما يفكر .. ما هى مشاعره .. هل دخل الحزن قلبه قط ؟

أدركت أن الأمر لم يكن هيناً بالنسبة لرئيسها. ولئن كان قد قبل أن يتوسط في هذه المسألة الشائكة ، إلا أنه كان يشعر بالخرج في قرارة نفسه من أن يلتمس طلباً ، وعلى الأخص طلباً مثل هذا ، من ذلك الألماني العنيد. وإذا كان رئيسها يمضى إليه الآن فالتردد والشك يملآن قلبه. كانت تشعر بذلك ، وتشعر به بكل وضوح ، كما لو كان ينقل هذا الشعور إليها نبضات جسمه القريب منها. كان يفعل مايفعله من أجلها بدافع من الطيبة والمشاركة القلبية. أجل ، بدافع من ذلك ، ولاشئ أكثر منه. كانت مخطئة ، لم يكن ثقل الظل ، ولا فظاً ، مثمما كانت تراه من قبل. لم يكن كذلك قط .

لم تتبين في أى درب دخلا بعد أن اجتازا الميدان ، ولا إلى أى طابق صعدا في ذلك المبنى المظلم. لم تشعر إلا برنين الجرس يتردد صداه ويتكاثر في أحشائها ، ويسرى الانحلال في ركبتيها .

جازاه الله خيراً ، فقد سندتها مرة أخرى اليد الغليظة ، يد الرجل المفعممة بالدفء ، بل وحدث شئ لا يصدق ، أحست بالرضاء واليد تضغط عليها. لم يكن الأمر سيئاً على الإطلاق .

فتح عامل الباب الذى يرتدى زياً عسكرياً ، الباب على مضض ، لكنه لم يلبث أن انتصب في وقفته ، ما أن تبين وجه الرجل .

- والآن ، تشجعى ، يا صغيرتى .

تمتم المدير بذلك ، نفذت كلماته إلى قلب الفتاة ، وأدخلت عليها السكينة. بدا لها صوته الرفيع الممطوط ، وهو يخرج من أنفه بطيئاً متثاقلاً ، مفعماً بالطيبة والعطف ، وبالقلق أيضاً .

وفى غرفة الاستقبال خافتة الضوء ، وقفاً جنباً إلى جنب من جديد ، لايجرآن على الافتراق ، لأنهما أحسا فجأة بأن كلا منهما يجد الحماية فى قربه من الآخر. وعندئذ ، فى السكون المخيم ، فتح بجلبه واحداً من الأبواب الكثيرة من حولهما ، ودخل «الممثل الاقتصادى للرايخ» أحست مارو بعينييه الذهبيتين تخترقانها كما لو كانت جسماً زجاجياً ، لكن دون أن تريها ، فلم تتوقفا حتى لحظة قصيرة عندها. لكن اليد المجاورة شدت على يدها ، دون أن تقشعر من هذه اللمسة التى كانت تكرهها من قبل ، والتى كان مجرد التفكير فيها يثير مخاوفها .

كثيراً ما تبدو الأمور مختلفة عن ذى قبل ، عندما نعاينها عن كثب، تبدو جد مختلفة حقاً .

ظلت مطرقة العينين ، خشية أن تعرقل مجرد النظرة الجهاد الشاق الذى يخوضه المدير ، وقد أيقنت أنه بكل جوارحه لها فى تلك اللحظة. كان يحكى الأحداث التى وقعت أثناء الجنازة فى «ترابيزا» ، كيف جرت الاعتقالات ، وكيف خيم الحداد على المدينة كلها فى أقل من ساعة ، ثم لهفة كل امرئ إلى تخليص نويه من المطاردة الجائرة ، وربما من الموت .

كان يتحدث عن زوج هيلينى ، وعن الأخ فاسو ، عن الاثنين معاً. كان فاسو شقيقهما الأصغر ، وكان طيب القلب ، لايجتج عندما تضربه أخته مارو الأكبر منه. لم يكن يغضب عندما كانت تطبق قبضتها وتهوى بها على ظهره. بل كان يعقد ذراعيه عندما كبر ، ويحنى كتفيه ، ويقول معتزاً بنفسه ضاحكاً : اضربى ، اضربى ماشئت ، حتى تكلى ، حتى توجعك يدك ، يا أختاه .

والآن ، تتعرض هاتان الكتفان الشجاعتان ، وهذه الرأس الشابة ذات الخصائل الغزيرة لأن يثقبها ذات صباح رصاص البنادق الأوتوماتيكية التي تشرعها فرقة الحراسة ، تتعرض الآن لأن تسقط ، وتخر صريعة .

وسقطت هي ذاتها في هدوء هناك بين أقدام الرجلين ، حتى ظل الاثنان دهشين لحظة. ثم حملها الألماني ، وهو أكثر شباباً وخفة ، وأرقدتها برفق على الأريكة .

ومضى الألماني يقول ، وهو يتفحص ويتفحص رسغ الفتاة النحيل قاصداً أن يعثر على نبضها الواهن .

- ماذا حدث لها ، ما الذي أصابها ، هل تحتاج إلى طبيب ؟
بدا مرتبكاً ، مبطل الخاطر ، وقد غلبت عليه إنسانيته ، ولم يبدو على الإطلاق صموتا ، ولا غريب الأطوار .

- وضّح لها من فضلك أنني لن أغفر لنفسي قط سهوى .. تركت سيدة واقفة .. لن تغفر لى حتى هي ذلك أبداً .

ويبدو أنه نسي تماما مقامه العالى ، ومنصبه الكبير ، فقد جرى «الممثل الاقتصادى لألمانيا» وأحضر ماء عطرياً وبلل جبينها بمنديله الناعم الثمين :

- هل تشعرين بتحسن ؟ ماذا أصابك ، ماذا أصابك ؟
وعلى الرغم من أن الفتاة لم تكن تفهم الكلمات ، فقد أحست بمعناها تماما .

- ماذا أصابنى ؟ تسألنى ماذا أصابنى ؟ إن ما أصابنا مخيف إلى درجة أننا لم نعد نحيا منذ ذلك الحين .. انتزعوا منا رجلين ، نفسين ، مخلوقين حبيبين .. منذ ذلك اليوم ، وأما لانتقام فى سرير ، إنها ترقد بالليالى على الأرض ، على البلاط ، حتى تتعذب بدورها مع ولديها .. ولا ننصب مائدة للطعام ، لأننا لا نتحمل أن نواجه مكانيهما الشاكرين .. ومن فرط القلق لانستريح .. إننا نجرى مثل المجانين ، عاجزات عن أن نعرف ماذا نفعل .. كيف نسدى العون .. والخوف من الموت يطاردنا؟ .

كانت تتكلم وهى تشد يديها على فمها حتى تحول دون ارتعاش شفثيها. كانت تريد أن تسكت ، ولكنها لم تعد بقادرة على الاحتمال. يبدو أنه كان محتوما أن تقول كل هذا الذى لم تفتح به فمها وتبوح به لأحد من قبل. كان من المحتوم أن تقال الكلمات التى كانت تغلى وتتدافع وتخرج ممزقة الأحشاء مثل الطفل عندما يولد .

وهناك ، إلى جوارها ، فى هدوء ووضوح مثل آلة موسيقية مصاحبة رافق الصوت المملوط المضحك - صوت المدير البدين - باللغة الأجنبية كلام الفتاة المتدفق وفى تلك اللحظة - وهو الأمر الغريب حقا - بدا ذلك الصوت وكأنه الصوت الوحيد فى الوجود القادر على أن يعبر بتلك الطلاقة عن الألم الممض وراء تلك الكلمات المفرطة .

تلقاهما الليل مكدودين ، متعبى الفكر من عناء الانفعال ، وبالثهما السماء برذاذ خفيف لا يرقى إلى مرتبة المطر. توقفوا برهة ليستردا أنفاسهما ، ولم ينبسا بكلمة واحدة ، حتى ابتعدا بما فيه الكفاية عن المبنى الأسود .

- أصر على أن يفرج عن هذين الشخصين فوراً .. لا يمكن أن نبذر الشقاء والدموع أينما مررنا .. إنهما بريئان ، إنى لتأكد من ذلك .. متأكد .. أرسلوا ملفيهما هنا حالا .. حالا .. لا أستطيع أن أحتمل أكثر من ذلك .

عادت هذه الكلمات إلى ذاكرة السيد المدير. ردها وهما يحتميان من رذاذ المطر تحت شرفة خفيضة وقد التصقت بطنه المطاطية الضخمة بجسم الفتاة النحيل الصغير الذي يرتعد عذاباً وأملاً. وكم كان جميلاً الإحساس بأنه يشد من أزرها عند ذلك الحائط الغريب ، ويدفئها مثل حضن أم رءوم ، ويمدها بالقوة على تحمل وطأة السعادة الطارئة .

.. أماه .. هيلينى .. كان كيائها كله ينتفض مثل طائر يصفق جناحيه .. أماه .. هيلينى .. غداً !

كانت هذه الكلمات .. هذه الكلمات دون غيرها .. تجول فى دمائها سريعة .. وحيدة .. لارقيق لها .. وقد اكتست معنى جديداً ومخيفاً أيضاً .

.. غداً ! غداً ! توالى النبضات فى القودين ، عند الأسنان المطبقة تراحمت مقاطع الكلمات ثم وئدت خشية أن تخرج فتغمر سماء الليل .

غداً ! كم من الساعات غير معقولة الطول ستمر حتى صباح اليوم الجديد ، أو حتى الظهيرة ، أو المساء فى نهاية الأمر ، طالما أن المساء الطويل يمكن أن تحسب ساعاته ويستوعب من خلال ذلك « الغد » السحري .

سرى إليهما من المقهى المجاور إحساس بالألفة. كان يفتح الباب بين الفينة والفينة وينسكب شريط أصفر من الضوء يلطف من كثافة الظلمة التى تفرضها الحرب .

ومع ذلك الشريط الأصفر تسالت سحائب دخان وشذرات من
أحاديث ، اختلطت بأنفاس عبققتها روائح القهوة ولفافات التبغ. كلما
انفتح باب المقهى انسكب إلى الطريق دفء حبيب ، الدفء المعزى الذى
يصاحب التقاء الإنسان بالإنسان .. وفى ذات الوقت مضت شفتا الرجل
المكتنزتان تلاطفان على مهل جبين مارو الرطيب ، ثم جفنيها الرقيقين ،
الواحد تلو الآخر ، ثم شفتيها المرهفتين ، بحذر وحب وخشوع .

وقد تقبلت الروح الجزعة من أعماقها مثل بلسم متلفه إليه ، تقبلت
ذلك الحب المختلط بالرغبة ، وتلك المرارة .

وفيما بعد ، عندما عادت بهما سيارة مثل مركب أسود خرب إلى
الباب الضيق ، هناك « عند أحضان الزرع الأخضر » ، بدت الأمور
مختلفة عما كانت قد جرعت منه مارو .

آه ، يا للغرابة ، لم يكن الأمر سيئاً ! آه ، لم يكن الأمر سيئاً قط ..

جارتان

ماريا روسيا

فى الخامسة من مساء كل يوم كانت جارة السيدة ماريغو تنزه
كلبها الصغير ، فكانت تروح به وتغدو تحت نوافذ جارتها . وقد كان كلباً
مرفهاً كثير الحركة ، يحمل فى عنقه ، رغم هزاله ، طوقاً ثميناً .

كان يمرق كالسهم ثم لا يلبث أن يستدير بغتة ويقبل على سيدته
مندفعا ، ثم يبتعد عنها من جديد هازاً ذيله ويقف فى انتظارها فإذا ما
لحقت به مضى يتشمم الأركان حتى يختار البقعة التى تروقه ليرفع
ساقه عندها . وعندئذ كانت تنتظره هى . ثم لاتلبث وكلبها أن يدخل باب
العمارة ويفيها عن الأنظار .

وبعد قليل كانت تتصاعد الأنغام من بيانو هذه الجارة . كانت تتكلم
وتغنى بصوت لايتفق مع مظهرها وعمرها ، شأنها فى ذلك شأن بنات
جنسها .

وعندما كانت السيدة ماريغو تسمع تلك الأنغام مصحوبة بغناء
جارتها الساحر كانت خطواتها تتحول إلى خطوات راقصة . فإذا
ما تشابكت الأنغام وتعقدت وقفت مرفوعة القدم مبهورة الأنفاس .

وعندما تنتهى الأغنية ، كانت السيدة ماريغو تعود إلى عملها خفيفة
لينة متهادية .

كان هذا شأنها كل يوم. هاهى الشهور والسنون قد مرت
وارتبطت حياتها بحياة جارتها ، رغم أنهما لم يتعارفا ، ولم تتلق
السيدة ماريغو منها تحية الصباح قط ، ولا تعرف شيئاً عنها سوى
اسمها. اسمها ميسمير .

كانت السيدة ماريغو تقرأه فى نزولها وصعودها ، فقد كان
هذا الاسم مكتوباً على اللافتة البرونزية المثبتة بمسمارين لولبيين
على باب شقتها النظيف ، ذلك الباب المغلق على الدوام فى وجه
جميع سكان العمارة. وكم كانت السيدة ماريغو تود لو تخطو إلى
عتبة جارتها .

وذات أصيل خرجت السيدة ماريغو إلى شرفتها كعادتها لتتنسم
الهواء ، فوق بصرها على جمع من الناس ينجذب إليه المارة انجذابهم
إلى مغناطيس .. ووقفت السيارات عند الجمع أيضاً. وسرعان ما اكتظ
الشارع ، وتعطلت حركة المرور .

كان الجميع يومئون مشيرين فى حزن ، ويهزون رءوسهم فى
اكتئاب وقد تهدلت أذرعتهم ، بل أغمى على امرأة ، واحمرت وجوه
الرجال حنقاً .

وأقبل الشرطى فى النهاية يجرى ، ويسط ذراعيه العريضتين
مفسحاً الطريق مما مكن السيدة ماريغو أن ترى كلب الجارة الصغير
مكسور الساقين غارقاً فى دمائه ، وقد اندلقت أحشاؤه .

وفى خطوة واحدة وجدت نفسها فى الشارع :

- كيف وقع له ذلك ؟ كيف أصيب ؟

- ضربه أولاد الجيران الأشقياء .

وزحف الكلب إلى قدميها ، كما لو كان قد عرفها ، وأسلم الروح ،
وهو يئن فى صوت خفيض .

- يا للمسكين !

وسألها الشرطى :

- أهو كلبك ؟

- إنه كلب جارة لى .

- إذن ، ابتعدى عنه ، ياسيدتى .

وصاحت السيدة ماريغو قائلة :

- أريد الطوق لآخذه إليها .

وحدجها الشرطى بنظرة من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها ،
واقتنع ، فقد كانت تبدو بنت ناس .

- تفضلى ، لكن احترسى من أن تلوثك الدماء .

وانحنى يساعدها بنفسه ، ثم جذب الجثة إلى جانب ، وقد تركت
بقعة حمراء وسط الشارع. ولما تفرق الناس بقيت السيدة ماريغو إلى
جوار الكلب المقتول ، ووقف على مقربة منها اثنان أو ثلاثة من الأشقياء ،
صبيان خبثاء شاحبو الوجوه طوال السيقان .

– لماذا قتلوه ؟

أجل ، لماذا ؟! الأولاد أنفسهم ماكانوا يعرفون. كي ينتقموا. كانت عملية انتقام إذن. ممن ؟ من ميسمير .. من النظام المسألة معقدة جداً . ونهرتهم السيدة ماريغو قائلة :

– وماذنب ميسمير ؟ بل وماذنب الصغير الأبيض ذى النقط البنية – أجل ، هذا الكلب ، ماذنبه يا أرذال ؟

وانسحب الأولاد الأرذال منكسى الرؤوس. ثم تركت السيدة ماريغو الجثة ودلفت إلى باب العمارة.

كان السلم حجرياً مظلماً رطباً .. واجتازت ماريغو الدور الأرضى مسرعة، وصعدت إلى الطابق العلوى. كان باب ميسمير مغلقاً كالعادة. وفى الضوء الخافت كانت تلمع مقابض الباب واللافتة التى تحمل اسمها . وقرأته السيدة ماريغو مرة أخرى مقطعاً مقطعاً : مسز ميرفور ميسمير .

كان هذا اسماً صعباً .. وامتدت يدها إلى الجرس ، لكنها سحبتها فى الوقت المناسب. ووقفت تتذوق كل ذلك الهدوء السائد المتدفق من ثقب الباب. ثم أتت حركة سريعة محنكة صفقت بها شعرها، ورتبت «بلوزتها» ، ودقت الجرس .

وتجمع من ثما إلى علمهن من الجارات فى شقة السيدة ماريغو بانتظار معرفة أخبارها ، وقد خيم عليهن شجن غريب ، تماماً كما لو كنت تنتظر أحداً فى الظلام ، ولا يجىء .

وكن يقلن من وقت لآخر :

- لقد تأخرت .. أجل تأخرت .

ثم سمع صرير المفتاح فى باب الشقة بفتة. وبدأت ماريغو عند المدخل وقد تغير حالها ، وانتابتها رعدة من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها ، وألقت على أسماعهن أكثر الكلام غرابة :

- طردتنى .

- طردتك ؟ كيف طردتك ؟ وضحى. ولم تدل ماريغو أول الأمر بأى إيضاح ، بل دخلت وخرجت منفعة ، وتناولت ملعقة من المربى ، وشربت جرعة من الماء ، ليهدأ اضطرابها. ثم مضت تحكى مغامرتها .

كانت تقص قصتها - كما تفعل النساء - بطلاقة وإطناب معرجة إلى تلميحات عارضة ، مضيئة إلى حديثها حفنة من السخافات ، مدخلة الكثير من عندياتها فى روايتها .

بدأت قائلة :

- ماذا كنت أريد أن أقول ؟ .

ولم تنبس الجارات بشيء حتى لاينقطع الخيط ، وتضيع منهن جزئية مثيرة ، تركوها تتكلم ، كما لو كانت وحدها وأرادت أن تعيش ماحدث لها من جديد .

- قلت سأوفق باعتبارى امرأة. لكن أولئك الأجنيات يعجبهن أن يخالطن الرجال فحسب. فتحت لى بنفسها بكل برود دون تحية أو أى شيء .

وجه جامد خال من كل إحساس. أنف سوى. ياله من أنف ذلك الذى لهذا الشعب ! الشئ الوحيد الذى أحسدها عليه هو الأنف ، ومع ذلك يجب ألا نهزأ بالأنف الدميم. لأنهم يقولون إن الله قد تعب كثيراً فى خلق أنف الإنسان .

وخيم الصمت من جديد. ثم أردفت ماريغو قائلة :

- ولما رأيتهأ أمامى باردة كالثج ، لاحتكة فيها ، واضعة يدها على مقبض الباب فكرت : ربما كان سبب الحالة التى بدت عليها حزنها على كلبها ، فلممت كل ما أعرفه من لغتها وشرحت لها الأمر .

وعندئذ أومأت لى أن أدخل دون أن تنبس بكلمة. هذا فضل منها على أى حال ، لأنى تذكرت فجأة أنك لو لم تعرف هؤلاء القوم بنفسك فإنهم لا يكلمونك فأنحيت لها قائة :

«أنا .. السيدة ماريا أرملة إيبا مينوندا .. جارتك بالطابق الأسفل .. أعمل كاتبة المراسلات بالغرفة التجارية. كيف حالك ؟ أحوالى أنا سائرة قدر الإمكان. الحمد لله. عالية تارة .. ومنخفضة تارة. ماذا نفعل؟» .

امتلات عيناها دهشة ، وتذكرت مرة أخرى أن على أن أردد كرجع الصدى : كيف حالك ؟ وألا أمضى فى الكلام ، بل أنتظر إجابة. ومن ثم سكت ، وأخذت أجول ببصرى فيما حوالى .

منذ أمد طويل والفضول يملكنى أن أدخل بيتها ، فمن غير المعقول ألا يقرئك جارك تحية الصباح عشر سنوات. إننا نقول : ترى فى الصباح جارك ، قبل أن ترى الشمس .

كان الفضول مستحوذاً على حقا ، لأن الدخول إلى بيت المرأة هو السبيل لمعرفة أى صنف من النساء هى ، ولكنى أعتزف بأنى لم أتبين شيئاً عندما دخلت بيتها. لا أنكر أن كل شئ كان نظيفاً مرتباً ، إلا أن الفضل فى ذلك يرجع إلى الخادم .

كان هذا واضحاً. إنها تنتقده أجراً طيباً ، كما تتغاضى عما يختلسه من المصروف ، أو ربما كانت غافلة حقاً عن ذلك. وهكذا تحصل على راحتها .

ويبذل الأسود قصارى جهده لإرضائها ، ويجعل من نفسه تراباً تدوسه قدمائها. يفعل المال كل شئ ، ويتكفل الخادم بكل المهام حتى إحضار الورد ، ورد مما يحتمل طويلاً ، يوضع فى آنية نحاسية لا تنكسر ، فأولئك القوم يريدون كل شئ عملياً ومتيناً .

كانت ميسمير التى التقيت بها فى البيت غير تلك التى نعرفها ونراها كل يوم فى الشارع. كانت شخصاً آخر مضحكاً للغاية. أعنى ، حتى لاختلف ، لو كانت من بنات جنسنا لبدت مضحكة. أما هى فقد كان ماترتيده منسجماً عليها. كان الثوب فى لون المشمش ، وقد عقدت رأسها بشريط أخضر. وكان شعرها لامعاً ذلك اللمعان الجميل الذى تتميز به الشقراوات. وثبتت باقة من البنفسج الصناعى على خصرها .. أما الحلوى فكثيرة : أقراط وأساور وخواتم ودبابيس. وكانت ذراعها عاريتين حتى الإبط .

وسألتها فى أدب :

- هل تتأهبين للخروج إلى حفلة راقصة ؟.

فأجابتنى بالنفى فى جفاء ، كما لو كنت قد أخجلتها ، ففكرت فى أنه ربما كان لديها ضيوف. وحتى لا أعطلها أوضحت لها أنهم قتلوا كلبها ، وأنى التقطت طوقه وأحضرتة إليها .

فقلت لى بصوت خالٍ من الاكتراث :

– أرى ذلك. أرى ذلك .

ولم تبصرنى عيناها إلا عندما وضعت الطوق على المنضدة ، لأن تلك العينين كانتا تنظران إلى من قبل دون أن تبصرانى. وانطلقت بخفة مثل صبى ، وأحضرت لى صورة عزيزها «بيلى» وكان «بيلى» اسم كلبها المقتول .

كانت الصورة تتدفق حيوية كما لو كانت ستتكم. وكانت ميسمير جذابة وهى ممسكة بالصورة ، وتنظر إلى بعينين حلوتين مبللتين ، مثل نافذتين مفتوحتين على بحر بلادى .

وسألتها :

– أليس لك أحد فى الدنيا ، ياعزيزتى ؟

فأجابت غاضبة :

– ماذا ؟

وسرعان ما أغلقت النافذتان الحلوتان .

– لى إخوة ، وأهل ، وزوج .

– لك زوج ؟

- بالطبع ، لى زوج .

- لابد أنه فى ساحة القتال .

- أولاده فى ساحة القتال ، أما هو فقد تزوج مرة أخرى .

قالت ذلك ببساطة كما لو أنه لم يكن فى الأمر شىء ذو بال.
واستطردت موضحة :

- معيشتنا تختلف عن معيشتكم ، لسنا مثلكم. أنتم شرقيون ، كل منكم ملتصق بالآخرين ، والجميع ملتصقون بالأسرة. أما نحن فأحرار. رجال ونساء على السواء. يصنع كل منا حياته كما يشاء .

- أغناني الله عن حرية من هذا القبيل ، تحرمنى الولد ، وكل قريب حبيب. وتنهدت رغماً عنى. ففهمت. ومهما قلت فهي امرأة .

وبخفتها السابقة مضت وأحضرت لى صورة أخرى. كانت هذه المرة صورة إنسان. شاب ذى أنف سوى وعلى غاية من الوسامة. وكانت الصورة عتيقة بالية .

- أهو ابنك ؟

واستاعت من جديد ، كما لو كنت قد وجهت إليها إهانة. إنه نجل أحد أبناء عمومتها .

واستطردت تقول :

- ربما كان الآن فى ساحة القتال !!

وأغرورقت عيناها بالدموع .

- هونى عليك ، ستتتهى الحرب وتزول .

- ولومات ، فما الجدوى ؟!

واغرورقت عيناي أنا أيضاً بالدموع . كلا ، لا تقلن إنى تذكرت ابنى أنا إنى ماتت إلا لها . إنى امرأة ، وأعرف مايعنيه ذلك .

وتذكرت أننا عندما كنا نذهب إلى المخبأ ، كان فى صحبتنا أولادنا ، وهى فى صحبتها كلبها . وكنا كلنا نخاف على أولادنا ، بينما كانت هى تخاف على كلبها . وإذا سرت فىنا الرعدة ، فخشية على من نحب . أما هى فقد كان لها كلب تحبه ، وهاهو الآن قد قتلوه .

ولهذا ذهبت تخرج صورة فوتوغرافية قديمة بالية لصبى قد يكون قد شب وصار رجلاً ، رجلاً فى منتصف العمر . أو ربما فتك به مرض فمات صغيراً ، ولم تعرف هى بالخبر وظلت ترتعد خوفاً عليه ، لأنها كامرأة فى حاجة إلى أن ترتعد . أن ترتعد حباً حتى يكون لحياتها مبرر . ربما كان يحدوها أمل . فيم ؟ إنها لاتعرف . كلنا نشبه بعضنا بعضاً . إننا نأمل ونأمل أن ثمة من هو فى حاجة إلينا .

انجذبت نحوها ، وفاض قلبى بحبها ، وأردت أن أعبر لها عن شعورى ، أن أفعل شيئاً من أجلها ، شيئاً صغيراً ، شيئاً يفصح لها عن عواطفى نحوها . وخطر لى أول الأمر أن أقبلها . على أن من الخير أنى لم أفعل .

وتذكرت بغتة الحمص الذى كان معى فسدست يدي فى جيبى وأخرجت القرطاس :

- هل تسمحين لى أن أقدم لك شيئاً من هذا ؟

ولترين الآن ماذا حدث. هل تعتقدن أنها قالت لى كلمة شكر ،
أو أنها أخذت منى الحمص ، ثم إذا لم يرق لها لفظته ؟!

كلا. لقد نحت القرطاس بيدها جانباً ، وقالت مطبقة الأسنان :

- نحن لانألف هذه الأشياء .

استأت من ذلك ، لكنى لم أنبس ببنت شفة. وما لبثت أن أردفتُ
قائلة :

- طابت ليلتك .

- ماذا ؟

- أقول طابت ليلتك. لا أستطيع أن أستقبلك وقتاً أطول من ذلك ،
فقد حانت ساعة الجلوس إلى المائدة .

لم يكن عندها ضيوف ! كانت تطردنى ! كانت ستتناول العشاء
بمفردها ! غارقة فى زينتها ووحدها !

وقالت إحدى الجارات المغرورات :

- لعمرى ، إنها متعجرفة !

وصاحت جارة أخرى :

- العادة سجن. سجن هى العادة .

على أن ماريغو استرسلت فى خواطرها :

- وذلك بدلا من أن تقولى لى : تفضلى ولو لمجرد المجاملة. وهل كنت أقبل أنا الدعوة ؟ لقد هممت أن أقول لها آنذاك : ونحن لم نألف هذه التصرفات عديمة الذوق .

- ولما لم تقولى لها ذلك ؟

- لا تكثرى بها. وطنها مجلل بالضباب ، معزول ، بيوته مغلقة ، إنه بلد شحيح .

أما نحن فقد نشأنا نشأة مختلفة فى فيض الشمس ، ورخاء الطبيعة ، عند ملتقى العالمين ... جو آخر .. وطباع أخرى .
وتمت السيدة ماريغو :

- وما الجدوى ؟ ألم أتلق أنا إهانتها ؟

الكسلان

يانيس مانجليس

كان أنطوناكيس خانوس رجلاً منكمشاً ، هادئ الطبع ، لين العريكة. لم يكن يعجبه الصياح والضحك والكلام الكثير. كان صموتاً. وربما كان صمته راجعاً إلى مزاجه أو ربما كان يعزى إلى تعاسته. كان متوسط القامة ، مترهل البدن ، خائر العزيمة ، ليس فيه من الرشاقة شيئاً ... عيناه بلون كستنائى فاتح ، ترتسم فيهما نظرة وجلة شاكية .

وكانت حرفته راكدة مثله. فى غرفة صغيرة عند طرف السوق ، فى مواجهة الميناء تماما ، على لافتة برونزية صغيرة باهتة كتب : «خياط البلدة : أنطونيوس خانوس» لكنه لم يكن فى الواقع خياطاً ، بل مجرد مرقع ثياب ، يحيك من وقت لآخر سراويل للصيادين والعمال ، أو يقلب حلة على هدى من ذات خطوطها القديمة .

مسكين ، إذن أنطوناكيس خانوس ، مغلوب على أمره. أخنى عليه الحظ ، كما أخنت عليه الطبيعة .

ولكن مثل كل أهل الجزر ، كان له بيت صغير. فى الخارج عند طرف المدينة ، حيث تبدأ الحقول ، كان له بيت زوجته الذى ورثته أباً عن جد .

كانت زوجته نحيلة قصيرة ، ذات عينين ملتهبتين موجهتين ، وقد فوضت أمرها وأسندت كل آمالها إلى الله. لم تكن ترى المسكينة أن ثمة ملاذا غير ذلك. وكانت لها بنتان كبيرتان ناضجتان للزواج : لينيو ، شقراء ، ذات عينين زرقاوين ساذجتين ، فى الثالثة والعشرين من عمرها ، وأرغيرو ، وكانت تصغرها بسنتين ، شغالة فى حقول الغير ، حقول العنب والزيتون .

كانت الأم التعسة تدرك بكل جلاء أنه لارجاء لهم فى انصلاح الحال ، فقد كانوا يعملون جميعاً من الصباح الباكر إلى الليل من أجل لقمة من عيش الشعير. والبنتان ، ماذا سيكون مصيرهما ؟ هل ستبقيان شقيتين وحيدتين ، هكذا ؟

كانت الأم تقول لنفسها «هو المسئول عن ذلك ، هو الخائب الكسلان ، فاتر العزيمة. إنه لايتكلم ، ولايفكر. هذا الشقى تبلدت حواسه تماماً. عليك يا قديستى ، يافانيرومينى ، عليك عقدت الأمل» .

كانت تخطئ فى فهم الصمت الذى عقد لسان أنطوناكيس ، وتؤوله على أنه عدم اكتراث. لم تستطع النسوة الثلاثة أن يفهمن قط العذاب الأخرس الذى يعانيه ذلك الإنسان الوديع ، ولم يدركن أفكاره الخفية ، وخفقات قلبه .

أراد الله أن يخلقه فقيراً بائساً ، وأن يعزله نفسياً عن العالم كله ، مادام لم يشعر أحد بعذابه الحى .

ومع ذلك ، فقد شقى كثيراً. كان يمثل فقره أمام ناظرية بكل جلاء ، وتتجلى له تعاسة أسرته ، وينتاه تكبران ، وتذبلان قبل الأوان .

كثيرا ما كان يقول أنطوناكيس دامى القلب محدثاً نفسه «أه ، لو أرفع لينيو عن كاهلى ، حتى تتنفس أسرتى الصعداء قليلا» لكن الآمال التى كان يعلقها على كفايته الشخصية كانت جد قليلة ، وكان يعرف ذلك. فكان مثل زوجته يعلق كل آماله على كنيسة القديسة العذراء فانيرومينى القريبة من بيتهم .

على أنهم كانوا ينتظرون العون من هناك ، عبثا. وفى كثير من الأحيان كان أنطوناكيس خانوس فى لحظات صمته يدرك ذلك .

كان يفكر فى أن القديسين كلهم ، الذين اختارهم السيد الرب عاشوا جائعين ، مرضى ومشردين .

كان لابد إذا أراد أن يفلح ، ويؤمن بنتيه فى غدوهما ورواحهما ، أن يفعل شيئا ، أن يتحرك وينشط .

ولكن ماذا يفعل ؟ لم يكن يعرف حرفة أخرى. ولم يكن عنده مال. لو كان عنده مال ! إيه ، كان سيعرف بالطبع ماذا سيفعل. كان قد درس الأمر ، كان سيعطى فورا ميخائليس سكومبوروداس السمكرى العشرين ألفا التى طلبها للزواج من لينيو ، ولفتح دكان بقالة صغيراً لأرغيرو التى كانت قادرة على تشغيله ، وتعرف قليلا من القراءة والكتابة ، وبذلك كانت ستجمع بائنتها رويداً رويداً تلك المسكينة ، بدورها .

هذا ما كان يفكر فيه أنطوناكيس خانوس طوال اليوم ، الآن وهو يضع الرقع على ما أبلاه البحر من سراويل ريتسينا. وبالليل كثيرا ما كان يستيقظ هذه الأيام ، ويقول لنفسه من أعماقه ، وقد غلبته المرارة «يجب أن تقتصد مالا ، يا أنطوناكيس. يجب أن تقتصد مالا. عليك

التزامات كبيرة ، يا أنطوناكيس ، قبل القديسة فانيروميني العذراء ، وقبل أسرتك .»

وهكذا صارت هذه الفكرة قراراً استقر عزمه عليه. يجب أن يدبر مالا. لكن كيف ذلك؟ كان يفكر فى هذا الأمر ، ويفكر فى ذاك ، دون جدوى. لم يكن هناك سوى وسيلة واحدة يعرفها. وسيلة واحدة ، وليس ثمة غيرها. لكنها كانت جد مخيفة ، حتى أن أنطوناكيس الوديع كان يقشعر من مجرد التفكير فيها .. وفى النهاية ، اتخذ قراره ، سيشغل غطاساً ، وليحدث ما هو مكتوب له .

والحق أن هذه المهنة كانت تثير فيه الذعر منذ صغره. كان ينظر بخوف إلى الغطاسين السكارى ، الغطاسين البشوشين الوسيمين ، يملأون دروب الجزيرة الهادئة بظلالهم المتعانقة ، وقد احمرت وجوههم من الشراب ، يتصايحون ، ويتبادلون النكات الخارجة ، ويتدافعون بخشونة. ثم كانت تلك الخוזات الباردة المخيفة تجمد الدم فى عروقه .

أما الآن ، فما العمل ؟ ماذا كان بوسع الأب المسكين أن يفعل ؟

تنهد بمرارة . وقال «هذه مشيئة الله. لتكن مباركة مشيئته» ورسم علامة الصليب .

ثم فكر من جديد «سأذهب مع قافلة تصطاد فى المياه الضحلة على بعد عشر مسافات أو اثنتى عشرة مسافة. وهكذا لن أتعرض لمخاطر جسيمة ، وسأنجو بجلدى. وهكذا سنحصل حالا على العشرين ألفا. وفى أول صيف ، سنزوج لينيو. وفى الصيف التالى سنشتري دكان البقالة الصغير. ولكن ، إذا حدث لنا شئ ؟ إيه ، سيكون مكتوباً لنا

ذلك. ستأخذ البنتان التعويض. الأربعين ألفاً. وبذلك أيضاً نزوج لينيو ونشترى الدكان الصغير. حمداً لك يارب» وضحك أنطوناكيس المسكين بمرارة .

قال ذلك ونفذ ما قال. كان فليفاريس فى أخرياتة ، فانضم أنطوناكيس خانوس إلى فرقة القبطان ميخاليس زفيجوس ، وقبض مقدماً ، بكل سماحة ، كما يقول صائدو الأسفنج ، خسمة آلاف ، أما الباقي فقد كان سيقبضه فى آخر الصيف .

وفى الليلة التى أبرم العقد ، بعد تناول العشاء ، رفع أنطوناكيس عينيه العذبتين المتألمين ، ونظر إلى زوجته وابنتيه وقال فى هدوء :

«اتفقت مع القبطان ميخاليس زفيجوس. فى منتصف الشهر القادم ، بإذن الله ، سنخرج إلى البحر» لم يفتح فمه بكلمة من قبل ، ولم يبح بأفكاره الحزينة .

نظرت إليه زوجته وابنتاه ، وارتسم الذعر فى عيونهن .

قالت الزوجة ، وهى تذرف الدموع الساخنة من عينيها الموجوعتين :

- لماذا فعلت هذا ، يا أنطوناكيس ؟ تريد أن تجعل منى أرملة وتيتم بنتيك ، وتتركنا ، ونحن نسوة ضعيفات على قارعة الطريق ؟

خيم الصمت على البننتين ، واستغرقتا فى التفكير .

تنهد أنطوناكيس من أعماق قلبه فى سكون الغرفة الحزين. ثم أردف يقول بعد هنيهة :

«هذه مشيئة الله. ماذا بإمكاننا نحن أن نفعل ؟ عندما يريد هو
أمراً لا يبقى لنا سوى أن نرسم علامة الصليب ، ونحنى الرأس صابرين
ونقول حمدا لك يارب» .

ورسم علامة الصليب راضياً .

ورسمت زوجته بدورها علامة الصليب ، وقالت نائحة «أيتها
العذراء ، مدى لنا يد النجاة. ألم تغفر ذنوبنا بعد ؟ إلى متى سنسأم
العذاب » .

ورسمت البنتان الوجلتان بدورهما علامة الصليب .

كانت الأيام تمر. واقترب شهر مارس من أخرياته. وذات ليلة
تحدث ميخائيس زفيجوس إلى طاقم السفينة :

- أيها الفتيان ، فى الفجر عندما ستهب الريح المواتية ، سننقلع.
كونوا جميعاً على أهبة الاستعداد عند المرسى. أفيقوا. حذار أن يأتى
أحدكم ثملاً ، ويدنس مركبى لأننى سأهشم له جنبه .

قال القبطان ذلك بصوت غرد ، وهو يلوح بذراعيه الغليظتين مهدداً .

عندما لاحت تباشير الصباح كانوا فى عرض البحر. كان
أنطوناكيس هو الوحيد بين أفراد الطاقم الذى كان متمالكا حواسه أما
الباقون فقد كانوا لا يكادون يفيقون من فرط سكرهم. مضى القبطان
يصيح فيهم غاضباً «أيها القذرون ، الكسالى ، الجاحدون سأخرجكم
من الماء مثل بالات القماش .. سترون عندما نبدأ العمل» وصار يركلهم
فى بطونهم بلا رحمة .

كان أنطوناكيس يسمع ذلك ، ويتملكه الخوف ، كان يقول لنفسه :
انظر ، يالها من قسوة ! بأى احتقار يتكلم عن حياة الإنسان. هذا القبطان
الذى لا يستحق ما كان يوليه له من احترام. وجراً أنطوناكيس أن يقول له :

– إيه ، خل عنك أيها القبطان ميخاليس. هذه ألعيب صبيان. هم
فتيان لم ينضجوا بعد. دعهم يستمتعون بحياتهم ، هؤلاء المساكين. من
يدرى كم منهم سيعودون أحياء سالمين ؟

أجابه القبطان بلهجة ضارية :

– اسكت أنت ، يا أنطوناكيس وفر وصاياك لدكانك. أما هنا فأنا
الذى أمر .

وفى غمرة غضبه ضغط بشدة على دفة القيادة .

من أغوار الأفق ، كان يفد ضوء شاحب ضعيف يكسو الأرض
بجمال عذرى. ورويداً رويداً ، كان الضوء يزداد سطوعاً ، ويعلو ،
ويصبغ بلون قرمزي ولؤلؤى كل الأرجاء القريبة والبعيدة ، ويضفى
جماله على الطبيعة كلها ، وعلى البشر جميعاً .

كانوا قد خلفوا الجزيرة بعيداً وراءهم ، واقتربوا الآن من بعض
الجزر الصغيرة الجرداء ، غير المسكونة .

رطبت برودة البحر فى الصباح جباه السكارى ، فأفاقوا أو كادوا
من غيبوبتهم ، وجلسوا شعث الشعور على سطح السفينة الشراعية
بقمصانهم الصوفية السمكة المبرقشة ، يحملقون صامتين إلى البحر ،
بعيون معتمة .

تعالى صوت القبطان فجأة ، بلهجة أمرية :

- القوا المرساة ، حتى نبدأ العمل .

ثم استدار بغتة إلى أنطوناكيس :

- هيا يا أنطوناكيس ، ارسم علامة الصليب. إن هؤلاء الأوغاد لا يبصرون ماحولهم من فرط سكرهم .

نهض أنطوناكيس وجلا ، وألقى بنظرته الوديعة إلى البحر .

يا إلهى ، كم كان البحر مظلماً ! كم كان عميقاً ! اقشعر بدنه. كيف سينزل إلى هناك ؟

أصاب الدوار رأسه. ضغطت على قلبه قبضة جليدية صارمة ، وطردت الدماء من عروقه. ساعده رجلان فى ارتداء الرداء المشمعى الجاف. شدا السيور على يديه وقدميه ، حتى لا تتسرب مياه البحر وتخنقه. ربطا الحبل حول وسطه ، وأحكما وثاقه حتى لا يتسلل الهواء إلى ساقيه فيملاً الرداء ويقلبه. وألبساه الحذاء الثقيل المصنوع من الخشب والحديد، طوقا رقبتة بالطوق الحديدى ذى الاثنى عشر مسماراً الذى يركب عليه غطاء الرأس. ووضعاً على كتفيه كتلتين من الرصاص السميكة. وبعد أن تمت هذه الطقوس، علقا فى يده اليسرى الشبكة الطويلة التى سيودع فيها الأسفنج. كان غطاء الرأس أمامه ، على الأرض وكان بارداً مخيفاً .

وما أن انتهى من الارتداء ، نادى القبطان غطاساً آخر :

- ميتسو ، ارفع غطاء الرأس .

أمسك الميكانيكى به بين يديه القويتين ، وأخذ القبطان يلقي تعليماته بصوت هادئ خفيض :

- انظر إلى هنا ، يا أنطوناكيس ، وانتبه أيها الشقى ، حتى تفهم ما أقوله ، إنك خائب. انظر. أترى ما فى الجانب الأيسر من غطاء الرأس ، هذا الصمام ؟ من هنا ينزل إليك الهواء النقى ، كثيراً نظيفاً. وسيمضى الميكانيكى يضحك لك الهواء بانتظام وبلا صعوبة ، وستحس كأنك على اليابسة تماماً .

ولكن إذا امتلأ غطاء الرأس بالهواء وانتفخ الرداء ، فإن الهواء الذى هو أخف من ماء البحر سيدفعك ويرفعك إلى أعلى. ولن يصيبك من ذلك ضرر ، طالما كنا بالقرب منك ، ولم يكن ضغط الماء شديداً. لاتضيع وقتك فى هذه الأمور. كما تفتق ذهن صانع هذا الغطاء أن يزوده بصمام آخر. ها هو ذا. إذا ضغطت عليه خرج الهواء الفاسد والزائد عن الحاجة تَوّاً .

والآن ، سأربط فى يدك حبلاً. وإذا عثرت على صيد وفير شددت بقوة الحبل ثلاثاً ، وسنفهم نحن ، ونلقى العلامة حتى لاتفقد المكان .

أما إذا شددت الحبل مرة بقوة ثم أعقبتها بثلاث شدات متتاليات ، فسيعنى ذلك : ملأت الشبكة. أرسلوا إلى غيرها. وإذا رأيت سمكة تهددك بالخطر شد الحبل تباعاً مرات عديدة .

هيه ، هذا كل شىء. هيا ، تصحبك السلامة الآن. ارسم علامة الصليب ، ولاتخف ، وتذكر : إذا وجدت صيداً وفيراً شد الحبل ثلاثاً .

ورفع القبطان غطاء الرأس ليلبسه لأنطوناكيس ، لكنه قال :

- انتظر ، نسيت أن أخبرك عندما ستتزل البحر. حذار. سر بخطوات وثيدة. لا تقفز من صخرة. فالتقفز المفاجئ خطر للغاية ، قد يودى بحياتك ، وقد يحطم عظمك، فتصاب بالشلل طول حياتك. هيه ! هيا ، الآن ، وسر بخطوات وثيدة .

أصغى أنطوناكيس لما يقال. كانت كلمات القبطان تطن فى رأسه كخلية من النحل. وقد وعى بعضها ، ولكنه لم يع أغلبها .

وقد جعلته ضربات قلبه يسمع ويفهم غير ما يقال له. رفع يده المرتعشة ، ورسم علامة الصليب. وأخذ فكه يرتعد فى نوبة عصبية .

راه القبطان وهو يرتعد لكنه صمت ، وقال لنفسه «إنه مبتدئ». عندما سيغطس بضع مرات سيألف الأمر وينصلح حاله». رفع الغطاء وأدخل فيه رأس أنطوناكيس ثم أخذ يدير الغطاء نحو اليمين كي يلف المسامير ويربطها .

وبين الفينة والفينة ، كان الغطاء يئن من ضغط المسامير فيبعث القشعريرة فى نفس أنطوناكيس الذى أحس بسكين يقطع قلبه .

وعندما انتهت كل هذه العملية ، رفع القبطان عقيرته حتى يسمعه أنطوناكيس :

- هيه ! مبروك ، يا أنطوناكيس ، واملأ لنا الشبكة أسفنجاً .

دار سير المضخة فجأة دورات منتظمة ، وعلا صوتها فى ضربات منتظمة ، مرسلة الهواء إلى لباس الغطس. جذب أنطوناكيس إلى أسفل من ثقل الرداء الذى يحوطه ، وقد شل من شدة الخوف الذى ركبه.

جر قدميه ببطء على أرض السفينة ، وأمسك بالسلم الصغير متأهباً للنزول .

ومن خلال منظار الغطاء ، رأى أنطوناكيس البحر العميق مرة أخرى ، وأحس بالعرق يتصبب من جسده كله .

تمتهم قائلاً «يا إلهي ، لاتأخذني ، دعني أعيش قليلاً» ولكن هذه الكلمات ترددت في أعماقه كدقات طبل أجوف ، ولم تزوده بأدنى قوة. ومن شدة خوفه ، ظل متشبثاً بالسلم لا يريد أن يفارقه .

انطلقت الشتائم من فم القبطان بصوت هادر : «أيها الكلب القذر ، لم تمنع عندما قبضت نقودك مقدماً» .

انبطح أرضاً في غمضة عين عند حافة السفينة ، وأمسك بعنف يدي أنطوناكيس ، وألقى به إلى البحر .

أخذ الهواء يخرج من الصمام الأيسر ، وبدأ الغطاس يغوص في اللجة . وكلما أوغل في الغوص غطى وجهه البحر بفقايع صغيرة ، لاتبث أن تنكسر هائجة عند السطح .

وفوق ، كانت المضخة تعمل بلا انقطاع ، وكان سيرها الجلدي يدور دوراناً شيطانياً ، مزوداً الغطاس بالهواء. وعند حافة السفينة وقف أحد العمال يرخي الحبل بحذر كلما شد الحبل .

أما صبي السفينة فقد جلس متربعاً ، ومضى يرخي الخرطوم بلا انقطاع وهو يرقب الساعة ، ويصيح بلهجة منغمة مشيراً إلى الثواني التي انقضت على نزول الغطاس إلى أعماق البحر :

ثانية ، ثانيتان ، ثلاث ثوان ، أربع ثوان ...

وشاركة عامل آخر ، ومضى فى الصباح بدوره فى لهجة غنائية ،
وقد انعكست فى صوته المعاناة التى يلقاها زميله حيثما نزل .

عشر ، إحدى عشرة ، إحدى عشرة ، إحدى عشرة .

مضت عشر دقائق ثم إحدى عشرة دقيقة ، ثم اثنتا عشرة ، ثم
ثلاث عشرة. ومن تحت من أعماق البحر لم يرد نبأ ، ولم يشد الحبل قط.
رفع العامل المنظار الزجاجى . غسله بما البحر ، رجه بشدة ، ونظفه
جيداً . ثم وضعه على سطح البحر ، ودس رأسه فيه ، ودقق النظر منه .

كانت شمس الصباح مازالت واهنة ، تلاطف أشعتها الجذلة وجه
البحر. وقد بدأت تكتسى بالقوة على التسلل إليه وإضاءة جوانبه .

وتحت ، كان قاع البحر مليئاً بالطحالب الكثيفة الطويلة ، مما كان
يزيد القاع قتامة وسواداً. ولهذا لم يتمكن العامل من أن يبصر الأعماق
بجلاء. فرفع رأسه ، وقال بصوت ثقيل : الظلمة حالكة تحت ، أيها
القبطان. لم يشتد نور الصباح بعد. وجذب المنظار خارج الماء. واصل
الصبى العد بلاتوقف :

أربع عشرة ثانية ، أربع عشرة ثانية ، أربع عشرة ثانية ... وفى
لحظة قال القبطان أمراً :

- اجذبوه ، لنخرجه ، فهو مبتدئ .

عقب العامل قائلاً :

- مبتدئ ، لكنه إنسان عزيز النفس .

أمسك الميكانيكيان بالخرطوم والحبل وشرعا يشدانهما .

قال القبطان :

- لو ملأ هذا الأحمق رداءه بالهواء رويداً رويداً ، لقذف به إلى أعلى ، على مايرام ...

بعد دقيقتين أو ثلاث دقائق أخرجوه إلى سطح البحر ، لكن أنطوناكيس لم يمد ذراعيه ليمسك بالسلم الصغير ، ويصعد .
ظهر للعيان مثل لفافة كئيبة ، طويلة أحكم وثاقها .

قال القبطان بصوت شرس .

- لعنة الله عليه. ماذا حدث له ؟

انكفأ على الأرض وانقض عليه. ممسكا به. تلقفه اثنان أو ثلاثة من الآخرين وجذبوه .

لم يقف أنطوناكيس على قدميه. مال رأسه جانباً داخل الغطاء. واصطبغ وجهه بلون أسود مخضر وتناثرت عليه بقع حمراء ، هنا وهناك. واختفى من عينيه اللتين كانتا نصف مفتوحتين كل أثر للسواد .

صاح القبطان :

- أوكسيجين .. حالاً .. أوكسيجين ... حتى لا يضيع الرجل .

حملوه وألقوا به إلى البحر من جديد. أنزلوه إلى نصف قامته ، وعلقوه هكذا. كان السير يدور الآن بسرعة أكبر ، فيزيد عدد دوراته. كان الهواء يمر في الخرطوم نقياً متدفقاً .

وبفضل هذا الذى يسميه الميكانيكيون «أوكسيچينا» يشفى كثير من المقعدين، وأنصاف المشلولين تماماً ، وآخرون أيضاً يتحسنون إلى الحد الذى يمكنهم أن يحركوا أيديهم ويجروا أقدامهم ، ورويدا رويدا على مر السنين ، ينقض عنها الخمول حتى يصير باستطاعتهم أن يتنقلوا بطلاقة لابأس بها ، وإن كانوا يعرجون فى سيرهم أو يجرجرون خطواتهم .

استبد القلق بكل الذين على السفينة . وكان القبطان يتأجج حنقا ، وتقذح عيناه شررا . وكان يبدو بذراعيه الغليظتين المفتوحتين اللتين يلوح بهما يمنا ويسرة مثل وحش ضار .

كان الوقت يمر، نصف ساعة ، ثلاثة أربع ساعة .

صاح القبطان من جديد :

– هيا ، اجذبوه .

اندفع الطاقم كله إلى الخراطيم والحبال .

عندما رفعوه ، لم يقف أنطوناكيس على قدميه ، وصار الآن أسود مثل مسوح الرهبان. سنده اثنان من البحارة ممسكين به من إبطيه ، وشرع القبطان يفك غطاء الرأس. وعندما تحرر الرأس مال وسقط جانبا . تناول القبطان الوجه بين يديه. وقال :

– ياللعنة ، مازال دافئا . لابد أنه حى . املأوا الدلاء من البحر حتى نجعله يفيق .

لكن إلى أن يخلعوا عنه الرداء المطاطى ، دبّت البرودة فى جسد أنطوناكيس ، وتخشب. وفجأة توقفت المحاولات وماتت الآمال .

وقال أحد الحاضرين ، وهو يرسم علامة الصليب :

- فليرحمه الله .

رسم الجميع علامة الصليب منكسى الرعوس، لم يتحرك أحد فى المركب، ارتسمت الرهبة على قسّمات الرجال، وتسمرت عيونهم على الجسد الذى دبت فيه زرقة الموت .

همس أحد الموجودين قائلاً :

- مسكين ، يا أنطوناكيس ، ماذا كان فى انتظارك .

وخيم الذعر على الجميع. مضوا يهزون رعوسهم فى حزن ، وينظرون إلى الجسد المسجى ، ويتفكرون أن المصير ذاته بكل قسوته لهم بالمرصاد أيضاً .

مزق صوت القبطان السكون الحزين ، قائلاً بقوة :

- هيا ، رأساً إلى الميناء ننقل الجثمان .

أداروا المحرك. مضى المركب يشق المياه الساكنة بمضاء. صعدت الشمس فى السماء ، واتقدت حرارتها، وأصبحت أشعتها المتكاثرة تشق غلالة البحر الشفافة .

شردت أنظار الجميع صوب الجزيرة ، وسرحت أفكارهم بعيداً ، بعيداً ، لا يدرى أحد إلى أين .

وفى لحظة ، ألقى القبطان على الجثمان نظرة تقطر كراهية. وتمتم قائلاً :

- لعنة الله عليك ، أيها النكد المنحوس. دنست مركبى. وناهيك عما
ستسببه لى من متاعب ، وما ستحملنى به من تعويضات .
تسللت هذه الأفكار إلى خاطره ، فصعد الدم إلى عينيه .
مضى المركب يداعب المياه الزرقاء الخضراء ، ويجرى خلى البال ،
مقتربا من الجزيرة .
أما الشمس التى تزايد دفئها فكانت تلاطف برقة البحر الراقد ،
فينتشى وتسرى الرعشة فى مياهه .

العودة إلى الميدان الصغير

بيتروس خاريس

كان قد وصل إلى الميناء على السفينة الإيطالية التي تعمل على الخط الملاحى قبيل التاسعة. لكن لم يفده شيئاً سعيه الحثيث لكى يكون فى مقدمة النازلين من السلم الذى ألقى به من السفينة. فعندما انتهى موظف الجوازات من فحص أوراقه ، وفتشت حقيبته فى الجمر ك ، دقت الساعة الثانية عشرة ظهراً. ثم مضت نصف ساعة أخرى وأبوه وأخته الكبيرة يذرعان بخطى قصيرة متلهفة الرصيف الذى كان ينتظره عليه أقارب آخرون وأصدقاء من الخارج. ولم يصعد الدرجات إلى بيته إلا ساعة القيلولة ، وقد غرق أهل أثينا فى نومهم المتعب ، وتصيبوا عرقاً من شدة الحر الذى عرف به شهر يوليو .

عاد الشاب من قيينا ، وكان ينظر إلى أهله فخوراً. قضى أربع سنوات فى العاصمة الكبيرة ، التى ولئت كان قد ولى مجدها الغابر ، إلا أنها كانت لا تزال تحتفظ بمكانتها فى بعض فروع الطب. وقد جلب الشاب خبرة كافية ستجعل الناس فى أثينا يقبلون على طلبها كلما مرت الأيام. كان جده وأبوه من بعده طبيبين معروفين ولهما زبائنهما.

وقد قدما الكثير من الخدمات لثلاثة أجيال متلاحقة فى أثينا القديمة ، ولكنهما لم يزورا أية عاصمة من العواصم الأجنبية ، رغم أنهما استشعرا فى بعض اللحظات الحاجة إلى مثل هذه الزيارات. وقد لمح أبوه على الأخص فى عيون بعض مرضاه أنهم كانوا يفضلون لو أنه كان قد قام برحلات إلى الخارج ، ويتابع تطورات «العلم»! ولهذا ، ما أن نال الابن شهادته ، حتى أرسلته أسرته إلى قيينا ، ولم تستعجل عودته فى أى خطاب من خطابتها إليه. «سأيك بالمعرفة كلها، لا تكثف بمعرفة مبتسرة مثل أولئك الذين يثيرون سخريتنا » .

استغرقت الأسئلة الأولية ساعتين ونصف. أفراد الأسرة كلهم من حوله ، يستفسرون ويشبهون فضلوهم ، منصتين إليه كل الإنصات. وقد روى لهم عن حياته العصرية فى قيينا. أما هم فلم يكن لديهم الكثير يقولونه له. والقليل الذى حكوه له كان ترديداً لأحداث ليس فيها جديد ، لا فى بيته ولا فى أثينا كلها ، وهكذا كان هو أول من كف عن توجيه الأسئلة فقد أحس بأنه يقف على الأرض ذاتها ، على الأرض التى عرفها ، وسكت. ولم يلبث أفراد الأسرة أن سكتوا بدورهم. كانوا قد دققوا النظر فى عينية ، فلم يطرف له جفن ، وتأكدوا من أنه لم يكن يخفى عنهم أخبار التردى فى مغامرة غرامية أو فتنة من آلاف الفتن ، تلك الأخبار التى يحذر الشباب البوح بها فى الأيام الأولى بعد عودتهم من العواصم الأوروبية. قرعت الأسرة الكئوس مرة أخرى ، وهم أفرادها بالانصراف عن المائدة. وعندئذ قال الأب :

– انتظرونى لحظة .

وخرج من غرفة الطعام .

وصاحت الأخت الصغرى ضاحكة :

- اللافتة ! سيحضر اللافتة !

نهرتها أمها قائلة :

- اسكتى !

وانسكبت فى وجهها ألوان تتدفق حيوية وتأثراً شديداً .

لمح الابن التغير الذى طرأ توأ ، وسأل فى قلق .

- هل حدث شىء ؟

وأجال بصره فيمن حوله جميعاً .

بدا عليهم أن ثمة أمراً يعرفون ويترقبونه .

- لا شىء. سترى ، الآن .

لم يتسع الوقت حتى يقولوا له المزيد. فقد عاد الطبيب العجوز يحمل لافتة صغيرة من ذلك النوع الذى يضعه الأطباء والمحامون والمهندسون على أبوابهم .

اقترب أبوه منه ، وأراه إياها ، ونظر إليها بوقار. أخفى بصعوبة بعض الانفعال ، وقال له :

- كلفت بصنعها عندما كتبت لى تنبئنى بعودتك. انزع اللافتة القديمة التى تحمل اسمى وحده ، وضع هذه مكانها .

وأعطاهها له. كانت لوحة من المعدن الرقيق حفر عليها اسمان. اسم الأب أولاً يليه اسم الابن. وتحت الاسمين كتبت مهنتهما : الطبيبان .

تابعت الأسرة كلها المشهد بتأثر مكبوت. كان الأب يعرف أن هذه اللحظة آتية ، وكان يعد لها. كان الجميع ينتظرونها بدورهم ، وهامهم يحيونها فى النهاية ، كما لو كانت حدثاً يمثل نقطة تحول فى تاريخ الأسرة .

أخذ الطبيب الشاب اللوحة المعدنية بين يديه ، وتأملها بضع لحظات ، ونظر فى عيني أبيه ، ولم يقل شيئاً. ثم انحنى وقبل يديه .

عندما انتهى الحفل ، كانت ساعات الظهيرة الحارة قد انصرمت ، فبدأ الجيران يستيقظون من نومهم الثقيل الذى يحتمه شهر يوليو ، ويفتحون نوافذهم التى ماعدت الشمس تسلط سياطها عليها .

وعندما وجد الشاب العائد نفسه وحيداً فى غرفته ، أخذت الذكريات تصحو فى قلبه من جديد. كل شىء فى مكانه ، كما لو كان هذا المكان الذى أمضى فيه طفولته وصباه قد أصبح متحفاً ، فلم يسمح أهل البيت بنقل أى شىء من موضعه. هاهى المرآة المربعة الصغيرة معلقة أيضاً فى مكانها القديم ، الذى احتلته منذ أن بدأ يحلق ذقنه أمامها عند بلوغه السادسة عشرة والسابعة عشرة من عمره. وعندما وقف أمامها تحولت إلى مرآة سحرية ، مرآة الحواديت والحكايات الخرافية. تدافعت فى هذا الإطار المربع حياة بأسرها. كانت تبتسم وتثرثر ، ومن فرط عنفوانها بدت كما لو كات ستكسر اللوح المصقول. ولم يكن الشاب ليبتعد عن المرآه، ولم يكن ليشيخ ببصره عن الحياة التى كان يراها تترى أمامه. حاول أن يحلق ذقنه ، لكنه لم ير فى المرآة وجهه وحده. كم من أشياء اتسع لها ذلك المربع الصغير ، وكم من أشياء كانت فى طريقها إليه. صبيان ، بنات ، صداقات ، أولئك الذين أحبهم

وأولئك الذين نفر منهم ، ألعاب مجنونة ، الرحلات الأولى إلى خارج المدينة ،
ويمانئى عن سيطرة الكبار ، وكل ماصاحب تلك الرحلات من لهفات كبيرة.
انصرف الأولاد ، والفتيان ، والصبايا من أمامه ، وجاءت وجوه أخرى
فرحة ، غاضبة ، حزينة ، ثم زالت هذه الوجوه بدورها لتظهر غيرها
أيضاً محلها مثل دوامة من الرقص لاتهمد حركاتها. على أن ثمة منظراً
واحداً تسمر فى مكانه ، ولم ينمخ من لوحة المرأة. اكتسى بألوان عديدة
، لكن شكله لم يكن يتغير. منظر ميدان صغير ، ينبض بحياة خفية ،
رغم مساحته الضيقة ، بل كان يبدو أكثر انحصارا بسبب الأشجار التى
تحيط به ، وتفىء عليه بظلالها الظليل .

لم تستغرق الحلاقة منه كل هذا الوقت قط. ومع ذلك فقد كان يريد
أن يفرغ منها سريعاً ، كى ينزل إلى الشارع ، ويسير فيه ثلاثمائة
أو ثلاثمائة وخمسين متراً ليصل إلى المكان الذى ظل منظره منطبعاً على
الدوام فى مرآته الصغيرة المربعة. كان يبدو أنه حقيقى أحياناً ، ويبدو
أنه لوحة من «الأكواريل» أحياناً. كانت لاتفارقة الحياة تارة ، وكانت
تضيئه الذكرى تارة أخرى. كانت هذه الذكرى تشدد ، ويزداد نورها.
وتصير كتلة خالصة النقاء ، على مر الأيام. أصبح يرى الآن الميدان
الصغير ، وقد ارتسم أمامه فى المرآة بوضوح. كان ميداناً مستديراً كما
لو كان قد رسم بالبرجل. يحوطه كثير من أشجار الصنوبر والفلفل
الباسقة. وفى وسطه أحواض منسقة حافلة بأزهار معتنى بها ، لاتشكو
عطشاً. وقد تناثر فى الميدان بعض الأرائك هنا وهناك ، وعدد من أعمدة
التليفون ، أغلبها من الخشب ، وقليلها من الحديد ، هى من بقايا نظام

الإضاءة القديم فى العاصمة. وفى أحد الأطراف مقهى صغير وبضع
مناضد. ميدان عادى بسيط ، هو متنزه الحى المحيط به كله .

تذكر الطبيب الشاب أن ميدانهم كان يصيبه التشويه فى بعض
الأوقات. فقد كان إلى جوار المقهى أرض فضاء غير مزروعة. وكان
رجال البلدية يكدسون فيها رمالاً وحصى كلما جاعوا ليعبدوا واحداً من
الشوارع المجاورة. عندئذ كان أهل الحى يبعثون بشكاواهم إلى المحافظ ،
ويدجون عرائض ضافية يثقلونها بالعديد من التوقعات. وكان من نتيجة
ذلك عدم بقاء الرمل والحصى أياماً عديدة. كانوا يريدون ميدانهم نظيفاً
ومعتنى به. وكان الجميع يزودون عنه ، ويسهرون عليه ، ويحمونه من
الأخطار المتنوعة التى كانت تتهدده. كان الميدان منذ سنوات عديدة مقفلاً
هادئاً مثل قلب بيت عتيق لا يحتمل إدخال تعديلات عليه. وكان يحمل اسم
حاكم من الحكام القدامى .

ولكل من الرجال ، بل ومن صبيان الأمس ، قصة مع هذا الميدان.
ففيه تم أول لقاء بين أغلب فتيان الشوارع المحيطة وفتياتها. وكل منهم
عند مروره بالميدان وحيداً ذات ليلة من ليالى الأسبوع أو الشهر
أو السنة فى أوبته إلى بيته يذكر ناحية لم يكن بالإمكان أن يجد مثلها فى
وقت ومن الأوقات بأى شارع ، أو ميدان ، أو مدينة ، لم يكن يجد مثلها
فى غير هذا الميدان. ولقد وجد الطبيب الشاب فوراً على صفحة المرآة
المربعة ساعته ومكانه هو. رأى مكانه تحت شجرة ضخمة من أشجار
الصنوبر فى الجانب الشرقى من الميدان ، فى ليلة من ليالى الخريف.
إنها الآن قد تزوجت ، ورحلت بعيداً عن الميدان ، وعن شجرة الصنوبر ،

ومضى بها الزمن بعيداً عن تلك الليلة ، لكن ربما لم تكن تلك الحبيبة نائية إلى هذا الحد ، ربما لم تكن قد بعدت خطوة واحدة .

صاحت به والدته من الممشى :

– عجباً ! أمازلت تحلق ذقنك ؟ كان الله فى عونك .

فرغ الآن من الحلاقة. لكن هذه الحلاقة قد استغرقت خمساً أو ستاً أو سبعة من السنوات ، استغرقت صباه كله .

نزل إلى الشارع وأخذ يسير على غير هدى. كان يريد أن يستنشق بعض الهواء قبل أن تبدأ الزيارات التى لاتنتهى. فعندما أمر أبوه بعمل اللافتة الجديدة ، أبلغت أمه الخبر إلى الأقارب والأصدقاء. وسيغص البيت الليلة بالقبيلات والاستفسارات وإمارات الفضول والسخافات الصغيرة ، من تلك اللاتى يحطن كل من يعود من الخارج بعد سنوات من الدراسة أو المغامرات. بعد قليل ستملأ الظلال الميدان المجاور الذى مالبث أن عاد إلى المثول فى مخيلته من جديد. هاهو الآن خارج غرفة طفولته وصباه ، وخارج مرآته السحرية ، وها هو ذا الميدان يغريه بقوة للذهاب إليه. أوسع خطاه وانفتح قلبه برجاء حار. لا يريد أن يلتقى ولا بأعز أحبائه ، ولا بأجمل فتاة فى أثينا ، حتى يصل إلى هناك حراً وحيداً .

بعد قليل سمع امرأتين يتمتمان بشيء ، وتناهى إلى سمعه :

– انه ابن الطبيب يا شيخه !

تظاهر بأنه لم يسمع. ومضى قدماً ، حتى وصل إلى نهاية الشارع. وقف هناك ، دون أن يدرك ماحوله. أين هو ؟ أين الميدان ؟ بل وأين كان

ذلك المكان وتلك الساعة ، وذلك الخريف ؟ أجال بصره من حوله ، وتردد .
قدح ذهنه ، حاول ، لكنه لم يتعرف إلا بصعوبة ، كما نتعرف على صديق
قديم . تغيرت قسّمات وجهه وعلاها التعب .

ربما لم تنقص أشجار الصنوبر واحدة . كما كانت غالبية أشجار
الفلّ في مكانها . أما الأحواض الصغيرة ، فقد بدت كما لو كانت قد
ولت هاربة أمام خطر داهم ، فلم تخلف وراءها سوى آثار باهتة : بعض
من شبّك الأسلاك ، وبعض الخطوط الشاحبة جعلت من الميدان سهلاً
مقسماً إلى حقول جرداء . وعند الطرف في مكان المقهى الصغير ، قام
الآن مبنى أبيض صغير ، هو محطة للبنزين ، ألحقت بها «ورشة» ضخمة
للسيارات . وتناثرت من حولها سيارات للنقل ، بعضها كبير والآخر
صغير ، بعضها جديد والآخر خرب . فقد استخدم المكان «جراجاً»
مكشوقاً للعربات .

تسمر الطبيب الشاب في مكانه . وجال بصره وجال ، وبعد قليل
تذكر أن ميداناً آخر في جهة منعزلة كان قد استحال قبل سفره إلى
موقف لعربات «الكارو» لكن هذا الخاطر لم يدخل شيئاً من العزاء إلى
نفسه . وجاب الميدان بخطوات بطيئة حزينة ، تلاحقه همسات لا يسمعوها
إلا قلبه .

السيارات ورائحة البنزين في كل مكان . وشعار الورشة في كل
الأنحاء . كان مثل ديك على السطح ، فوق المبنى الأبيض ، يأمر ، ويصيح ،
وينفر ، ويطرد كل من يجيء بخطوات بطيئة ، وكل من تصيبه رائحة
البنزين بالدوار .

أخذ الليل يرخى سدوله. وبدأت تفد عربات نقل أخرى ، وآلات أخرى كانت تزفر وتتهدد بمجرد أن تقف ، عجالات أخرى كانت تن وتلول بمجرد أن تكف عن الدوران. كانت الظلال تتكاثر، لكن الطبيب الشاب لم يبرح المكان. بقى إلى أن همدت كل الآلات ، وخيم الصمت على الميدان الصغير. وكان سيبقى وقتاً أطول ، لكن ضوءاً قوياً أيقظه ، وبذل حاله ، أمسى شعار الورشة الآن عيناً كبيرة شديدة الحمرة ، تلقى ضوءاً قوياً ، وتصب عليه لهباً .

سار بضع خطوات بطيئة أخرى ، بضع خطوات قليلة ، قليلة جداً. استدار. ورأى من جديد العين الحمراء الضخمة ، وانتابه الذعر. رأى هذه العين ، لم ير شيئاً غيرها .

كان قد ابتعد الآن ، عندما استدار ليلقى نظرة أخرى. لكنه لم ير شيئاً جديداً. كان الميدان الصغير قد اختفى. كان قد مات .

النورس

إيليا فينيزى

الجزيرة الصغيرة فى شمال «ليزفو» الواقعة بين «بيترا» و «مواليغو» جرداء ومهجورة. ليس لها اسم ، والصيادون الذين يعملون فى مياه تلك النواحي يطلقون عليها «الجزيرة» فحسب دون أدنى إضافة. وباستثناء شجيرات الحسك والشوك التى تغطى أديمها ليس بالجزيرة شجرة واحدة. تلوح على بعد ثلاثة أميال جبال «ليزفو» وادعة متألفة الخطوط والألوان والحركة. وبإزاء تلك الوفرة التى تكتسى بها الأرض المقابلة تبو الجزيرة العارية بخطوطها الصارمة أكثر عزلة ووحشة .

ولكن من جزيرة الأرض المستطيلة هذه ، بإمكانك فى الصيف أن ترى الشمس تسقط فى رحاب اليم المترامى الأطراف. وعندئذ تصطبغ المياه بشتى الألوان ، وتمضى متغيرة فى كل لحظة كما لو كانت تذوب فى الأمواج الزاهية. وعندما تكون الأمسيات صحوة والسماء صافية ، يمكنك أن تميز جبال أثور تبرز من البحر الرحيب ، على أنها لاتلبث أيضاً أن تخبو مع الليل الذى يخطو قدماً. فى هذه الساعة ، سوف يأتى العم ديمترى قاطن الجزيرة المهجورة الوحيد ، سوف يأتى بالحركة

الأخيرة التي تربطه بالبشر والحياة ، سوف يوقد النور فى الفئار .
وسوف يبدأ هذا النور يضىء وينطفئ ، ثم يمضى يضىء وينطفئ فى
الفترات المتقطعة ذاتها بصرامة وحتمية ، مثل القوى الغامضة فى الحياة ،
مثل قدر الإنسان ، ومثل الموت .

جذب حارس الفئار العجوز القارب على الرمال ، ووضعها فى مكان
أمين ، فقد ينقلب الجو بالليل فتتمدد إليه المياه . ثم ألقى عليه نظرة أخيرة
قبل أن يمضى فى طريقه إلى الفئار .

– إذن ، انتهت هذه الرحلة أيضاً .

قال ذلك بصوت خفيض .

قال ذلك لنفسه وسكت . هذه الرحلة إلى الشاطئ المقابل يقوم بها
مرة كل شهر . يذهب إلى هناك من أجل مؤنته ، من أجل الدقيق والزيت ،
ومن أجل سائر لوازمه . فى أول الأمر ، كان فى كل رحلة يقضى فى
القرية اليوم كله ، يتجاذب أطراف الحديث مع أصدقاء قدامى ، يعرف
أخباراً عن البلد ، وعن البشر ، يعرف ما إذا كان الناس فى حرب أم
فى سلام .

كان صراف الجمارك ينقده مرتبه قائلاً :

– كل شهر وأنت طيب ، ياعم ديمترى !..

كان العجوز يهز رأسه شاكراً ، يقول له :

– أراك بخير ، يابنى ، إن كان لنا عمر .

فى الساعات الباقية إلى أن يحين أوان عودته إلى «الجزيرة» كان يصعد إلى كنيسة العذراء الصغيرة ، متسلقاً درجاتها المائة المنحوتة فى الصخر ، كى يؤدى صلاته. كان يشبك ذراعيه أمام الأيقونة القديمة ، ويخفض رأسه ويصلى من أجل ولديه اللذين فقدوا فى «نكبة الأناضول» ، ومن أجل سائر البشر ، وأخيراً من أجل نفسه .

– لو كانا على قيد الحياة ، يا إلهى ، احفظهما .

هكذا كان يبتهل من أجل ولديه .

– احفظهما من ثورات الغضب ومن شرور الزمن ، ومن الشجار وحد السكين .

ثم كان يتمم بالصلاة ، وبما كان يعرفه من تراويل. وتدب الرعشة فى ساقيه الهرمتين .

كان يقول :

– أن أوانى كى أستريح بدورى .

وتغورق عيناه بالدموع .

كل مرة ، كان ينزل الدرجات المائة ، وقد زاد قلبه ارتياحاً. فى الشارع ، كان يقف ويتابع الأولاد وهى تلعب. جميعاً يعرفونه فإذا ما رأوه صاحوا به :

– عم ديمترى ! عم ديمترى !

كان يشتري لهم بندقاً ويوزعه عليهم ، فيهللون فرحين .

- لا تتأخر فى العودة إلينا ، أيها الجد العزيز ! لا تتأخر !

هذا ماكان يحدث فى كل رحلة. كل مرة. ولكن كلما ولت السنوات قلت ألفتة بالناس ، وازدادت العزلة استحواداً عليه يوم بعد يوم. كانت تمتصه ، كما لو كانت تقطر فى كيانه سطوتها المخيفة. مضى فى كل رحلة يقلل قدر إمكانه من الوقت الواجب قضاؤه فى القرية من أجل أعماله .

ثم كف أيضاً عن الصعود إلى كنيسة الصخرة .

- سامحنى لأننى ماعدت أستطيع .

هكذا كان يخاطب الرب. ثم يردف قائلاً :

- أينما كنت أستطيع أن أصلى إليك ، لترى مبلغ ضعفى .

وعندما يعود إلى جزيرته بعد كل رحلة ، يظل ردها طويلاً من الليل يصلى .

ماعاد يسأل عن أخبار ، ماعاد يسأل عما يجرى فى الدنيا. لم يعد يعرف عن ذلك شيئاً. مع فوات النهار ينحسر العالم من حول الجزيرة المهجورة ، وتنقلب على نفسها ومن حولها البحر العميق ، تتراقص على صفحته الألوان والشمس فى طريقها إلى المغرب .

آخر الصباح الذين تبادل معهم الحديث ، كانوا بعضاً من الصيادين الذين يرسون بالجزيرة ملياً ، وقد وجدوا لديهم من الوقت فسحة ليحطوا بها الترحال. كانوا يبقون على الشط حيث تخمد حركة الموج ، ويتحدثون عن شقائهم وقدرهم. فى كثير من الأحيان يمضون

الليل هناك. وعندئذ ، فى الساعات الطوال إلى أن تشرق الشمس ، كانت تفرغ أحاديث الآخرين فتجىء الساعة المهيبة ليتحدث بدوره عن ولديه أيضاً .

كان الصيادون يقولون له :

- من يدري ؟ ربما كانا على قيد الحياة ، ويجيئان ، ياعم ديمترى ، هكذا مثل نورسيك اللذين عادا إليك .

لم يكن ينطق بكلمة ، لم تكن تصدر عنه نأمة. عيناها الساكنتان مثبتتان على أعماق الليل .

- أجل ، ياعم ديمترى ، مثل نورسيك هكذا يمكن أن يجيئا ويعودا إليك ، لاتيأس

وعندئذ كان الصيادون ، يذكرون - بهذه المناسبة - نورسى عم ديمترى. يقولون له :

- حقا ، كيف أمكنك أن تستأنسهما ، ياعم ديمترى. لم يسمع قط بأن طيور النورس تستأنس .

ويتمتع العجوز قائلا :

- هذا ما حدث ، يا أبنائى. الوداعة تسود هنا ، على الأرض ، تسود كل شىء ، عدا الإنسان الذى يظل ضارياً .

كانوا يسألونه أن يحكى لهم مرة أخرى حكاية الطائرين ، على الرغم من أنهم كانوا يعرفونها كما يعرفها كل قاطنى اليايسة المواجهة. وجدتهما صغيرين بين الصخور ، فرخين لم يغط الريش جسميهما بعد. كان الوقت شتاء آنذاك. أشفق عليهما ، وحملهما إلى كوخه بالقرب من

الفنار. احتفظ بهما ورباهما ، مطعما إياهما صغار السمك الذي يعلق بشبكته. ذات يوم ، خطر له أن يطلق على كل منهما اسماً .

– إيه ، أنت ، سنناديك ...

فى ذكرياته ، فى قلبه ، تلك الساعات المفعمة بالسكينة ، حوم وجهها الطفلين عندما كان يناديهما وهما جد صغيرين :

قال لأحد الطائرين :

– إذن ، أنت سنناديك فاسيلاكى. وأنت أيها الآخر سنسميك أرغيرى .

وهكذا بدأ يناديهما منذ ذلك الحين باسمى ولديه. ورويداً رويداً ألف النورسان هذين الاسمين .

عندما كبرا ، وجاء الربيع ، فكر العجوز ذات صباح أنه ليس من الجائز أن يبقى الطائرين فى الأسر. وقرر أن يطلق سراحهما. فتح القفص الكبير المصنوع من الغاب ، وأمسك بأحد الطائرين. أمسك به بين يديه ، وربت عليه. أحس بقلبه خفيفاً .

قال للطائر :

– هيا ، إذن يافاسيلى .

وفتح يديه كى يتركه يطير .

طار النورس ورحل .

أخرج الآخر أيضاً. لطفه مثملاً لطف الأول. وتركه بدوره. كان كل شىء وديعاً ذلك النهار ، وكذلك الليل عندما أقبل كان حانياً وديعاً. كل ما هناك ، أن العجوز أحس بأنه ازداد وحشة وعزلة .

تلك الليلة ذاتها ، أوى إلى كوخه مبكراً ، فسمع على شباكه الصغير دقات خفيفة. دنا منه وألقى نظرة. لم يصدق. طار من شدة الفرح كما لو كان ابناه قد رجعا .

فتح الباب ليدخل النورسان .

ومن ذلك الحين ، يحدث هذا كل يوم. يخرج الطائران فى الصباح. يسافران إلى أرض الأناضول المقابلة ، يبلغان «زيغرى» يرفرفان عليها بأجنحتهما، وبالليل يعودان. فى مرات عديدة كانا ينضممان إلى أسراب من نوارس أخرى. وتطير جميعاً فى سماء الجزيرة المهجورة. فإذا طارت على ارتفاع خفيض ، أمكن للعجوز أن يميزهما بفضل ما كان لهما من نقط رمادية تحت الجناحين. وإذا ماخرج بقاربه كان الطائران بدورهما يحومان هناك قريباً منه. يهبطان من ارتفاعهما ويزقزقان فوقه. كان الصيادون الآخرون فى تلك النواحي قد عرفوهما أيضاً. فإذا رأوهما صاحوا ضاحكين :

- هيه ، يافاسيلى ، هيه ، ياأرغيرى !.

هكذا مضت الأيام فى الجزيرة الموحشة. يتوالى الأمس واليوم والغد ، على ذات الوتيرة. سلسلة من الأيام الهامدة ، أنهر وليال ليس فيها ماينتظر سوى الموت .

ذات أمسية من أمسيات الصيف حدث أمر غير مألوف. لم يعد النورسان ، ولا ظهرا فى اليوم التالى. انقضت الليلة أيضاً دون أن يبدو لهما أثر .

- ربما سافرا بعيداً .

هكذا فكر العجوز متحايلاً على قلقه .

وفى صبيحة اليوم التالى جلس - كما اعتاد أن يفعل - على رصيف الفنار. نظر إلى البحر الرحيب. فى لحظة ، خيل إليه أن أديم اليم تماوج ، على مبعدة ميل أوزهاء ، كما لو كان ثمة دلافين تمر وتلعب. مرات كثيرة ، رأى على بعد فى البحر القسيح ، الدلافين تمر. تابعها وهى تخط حركتها المتماسكة خارج الماء ، ثم تعود وتغطس فى الوجة .

قال :

- دلافين هى ، هذه المرة أيضاً .

ولكن بعد هنيهة رأى أنها لم تكن كذلك .

قال مجفلاً :

- إنهم بشر .

نزل إلى الشاطئ ، وراح ينتظر. بعد قليل تبين أنهما ولد وبنت ، يسبحان جنباً إلى جنب ، بحركات بطيئة واثقة. ومن ورائهما الأمواج الصغيرة تلمس الأخاديد التى يشقها فى الماء جسداهما .

عاد يفكر قائلاً :

- ترى ، ماذا يريدان ؟

لا يذكر أن جاء إلى هنا أحد من قبل لممارسة السباحة. فضلاً عن أنه لا يبدو من حولهما أى قارب يمكن أن يكونا قد قفزا منه .

بعد قليل ، وصلا .

اندفع الجسمان المبللان من البحر إلى الشاطئ .

نظر الفتى إلى عيني الفتاة ، ومد ذراعيه عاليًا .

قال وهو يستنشق الهواء بقوة :

– آه ! كم كان الأمر جميلاً .

أنت الفتاة بذراعيها ذات الحركة ، ولكنها كانت أكثر بطنًا . ثم قالت مؤكدة :

– كم كان الأمر جميلاً حقًا !

بعد ذلك ، جريا نحو حارس الفئار .

قال الفتى :

– أنت عم ديمترى ، حارس الفئار ؟

وقف العجوز مطرق الرأس ، وقد امتلأ خشوعاً أمام جسد الفتاة العارى ، يلمع فى ضوء الشمس الحارقة .

أجاب مرتبكاً :

– إني أنا ، هل أصابكما مكروه ؟

سارع الفتى قائلاً :

– آه ، كلا ! قررنا أمس أن نقوم بهذه الرحلة ، أنا وصديقتى ،
وها نحن قد جئنا .

سأل العجوز دهشا :

- من أين ؟

- من الشاطئ المقابل. من «بيترا»

لم يعرف العجوز ديمترى ماذا يقول. تمتم فحسب بأنه لا يذكر أن أحداً جاء إليه من قبل ، فى رحلة مثل هذه .

سأله الفتاة :

- هل ذهبت إلى أثينا ذات مرة ، يا جداه ؟

قال : كلا ، ولا مرة .

- هل تتمنى أن تذهب إليها ؟

بصوت خفيض ، يكاد لا يسمع ، قال :

- كلا ، يابنيتى. فات الأوان ، الآن .

- لابد من أنك فى غاية العزلة هنا ، يا جداه .

- إنى فى غاية العزلة ، يابنيتى .

صمتوا. مضى بعض الوقت. عاليا مر سرب من النورس. ينهض العجوز ، ويدخل إلى الكوخ ليحضر لهما قليلا من المربى. من الشباك الصغير بإمكانه أن يرى الولدين وهما مستلقيان على وجهيهما ، وجسدهما لازالت ترتعش عليهما قطرات من ماء البحر. لوحتهما الشمس بلا رحمة. إنهما هناك مثل تمثالين من البرونز ، فجرهما البحر ، من صنع آلهة للصحة ، آلهة للجمال أيضاً. يتهدل شعر الفتاة الفاحم

على كتفها ، وفى عينيها السوداوين يتألق نور عميق. ينهض الفتى قليلا ، ويميل على هذا الوجه الذى يغمره الضياء بالقداسة. يتطلع إليه منتشياً ، ثم يمد يده ببطء ويتحسس ملطفاً .

لايقول شيئاً ، يتمم باسمها مرتعد الشفتين فحسب :

- خريسولا .

ترتفع العينان الواسعتان السوداوان ، وتظلان برهة قصيرة ساكنتين ، مثبتتين على وجه الفتى. ثم تعقد الفتاة يديها خلف رأسه ، وتطبع على ثغره قبلة .

هكذا ، كل شئ فى هذه الساعة المباركة ، بسيط وديع فى الجزيرة المهجورة. وفى قلب الرجل العجوز تسود الوداعة ذاتها. فاضت مشاعره هذه الصباح من أصبحة الصيف ، وترقرقت. هذا الحنان غير المتوقع الذى جاء يزلزل وحشته ، حرك المياه الراكدة .

صاحت الفتاة من الخارج :

- جداه ، هل نأتى بدورنا إلى الداخل ؟

يجيب مرتعدا :

- قادم أنا. قادم .

أحضر لهما مربى لوز ، وماءً بارداً .

يتمم قائلاً كما لو كان يريد هما أن يسامحا :

- ليس عندي شئ آخر .

تمسك به الفتاة من يده ، كى يجلس إلى جوارها :

- اجلس ، اجلس ، ياجداه .

جلس ..

قال لهما وجلاً :

- تعاليا غداً أيضاً . بالليل ، سأصطاد لكما سمكاً .

تجيب الفتاة بحزن :

- إننا نرحل غداً . يا للخسارة إننا لم نحضر كل هذه الأيام التي كنا فيها هنا . هل أنت فى هذه الوحشة على الدوام ، ياجداه ؟

- على الدوام ، يابنيتى .

يتمتم الفتى قائلاً :

- آه ، الآن فهمت ماذا كان يعنى الطائران بالنسبة لك .

- أجل ، يابنى . هذا هو الأمر . إنها العزلة .

ثم عاد الفتى يقول ، بعد قليل :

- .. يجدر بك أن تغفر لهم يا جداه . لو كانوا يعرفون لما كانوا قد أقدموا على ما فعلوه قط .

لا يفهم العجوز . يقف مندهشاً .

- عمن تتكلم ، يابنى ؟

- عن أولئك الذين قتلوا طائريك ، ياعم ديمترى . إنهم أصدقاء لى .

أحس بركبتيه ترتعدان ، وقلبه يدق .

بصوت خفيض يسأل :

- تقول قتلوهما ؟

- آه ... ألم تكن تعرف ذلك ؟

يعض الفتى شفتيه ، ولكن فات الأوان. يخبره بالقصة : إنهم
صحبة من الشباب خرجوا للصيد . نزلوا إلى الشاطئ. انخفض
النورسان عن مستوى بقية السرب. أطلق صديقهما الرصاص من أجل
أن يجرب. وبعد ذلك ، تعرّف بعض الصيادين الذين كانوا على مقربة من
المكان على الجناحين الموشيين بالنقط الرمادية .

مضى العجوز يصغى ، ويصغى. ليس فى الأمر شيء ذو بال. كانا
مجرد نورسين .

تقول الفتاة بصوت دافئ ، وقد استولى عليها الأسى بسبب الحزن
الأخرس الذى تراه بادياً على الوجه الهرم :

- لم يكن يعرف ، يا جداه ، لم يكن يعرف .

مضت برهة صمت طويلة .

يقول الفتى :

- يجب أن ننصرف .

تنهض الفتاة .

- فلننصرف .

يمضيان فى المقدمة ، ومن خلفهما بقليل يأتى العجوز .

وصلوا إلى الشاطئ .

بادرت الفتاة قائلة :

- سلامنا إليك ، يا جداه .

تتناول يده ، وتنحنى لتقبلها ، فيربت على شعرها الطويل .

يتمتم متأثراً :

- ليبارككما الله .

رحلا. أخذ يتابع وقتاً طويلاً الشق الذى يحدثه فى ماء البحر كل من جسديهما ، غابا عن أنظاره. وظل البحر أمامه دائم الوحشة ، مترامى الأطراف .

يهبط الليل. كان قد جلس إلى الرصيف ، والساعات تمر. كل شىء يتتابع أمام عينيه المعتمتين : سنوات صباه ، الولدان اللذان رباهما ثماً ضاعا ، الناس الذين أذاقوه المرارة. كل شىء يخطر ، وكل شىء ينطفئ. الوالدان اللذان تبداً القبل هنا فى هذا المكان ذاته ، منذ بضع ساعات خلت. سرب من النورس يطير عالياً ، نورسان لهما جناحان على ريشهما بقع رمادية. وهذه تمر وتضيع أيضاً . ما من شىء يعود أبداً .

أطرق رأسه ، انحدرت دموعه إلى الأرض اليابسة ، من فوقه كان نور الفئار يومض وينطفئ ، مرة تلو مرة ، فى الفترة الزمنية ذاتها ، بصرامة ودون أن يكون منه ثمة مفر ، مثل القوى المظلمة فى الحياة ، مثل قدر الإنسان ، ومثل الموت .

المغنى

يوانيس بانايوتوبولوس

اشتريناه ذات يوم مطير فى جنيف. قلنا فلنشترى أيضاً ديكاً
نأخذه إلى البيت ، ليكون فوات الوقت ، أقل وطأة ، ويخفف عن القلوب
السأم والرتابة ، لأن هذا النوع من الساعات ذات الديكة ، بطابعها
البيتي الأثير تنسجم فوراً مع الأشياء وتتصادق سريعاً مع الأحداث ،
ويصبح ديكها الرفيق الحبيب لكل لحظة. ينقث فى السكون المخيم صوتاً
ناعماً صبوراً ، فيضحي السكون لحظة مفعمة بالحنان والخشوع تدخل
الأمان والهدوء إلى القلوب .

كم كان جميلاً ذلك الكوكو. كان كله من الخشب الأبيض المنقوش ،
يذكر بالغابة فى منتصف الشتاء. كانت الساعات مكتوبة بأحرف لاتينية
بيضاء ، ولم يكن ذلك البياض شاحباً مثل بياض السكر أو اللبن ، بل
كان بياضاً طازجاً مثل حبة اللوز النضرة. لون أبيض مثل بياضها.
وحول ذلك إكليل من ورق الشجر الداكن ، وأوراق أخرى عالية فوق
السقيفة ، يتوسطها طائر صغير. ومن الباب السفلى تتدلى ثلاث
سلاسل طويلة نقشت على طرف كل منها حبات الصنوبر. وعندما

يتتصف النهار فى الظهيرة ، وعندما يتقدم الليل حتى منتصفه ، تتدلى هذه الحبات إلى الحد الذى يحتاج المرء أن يجذب السلاسل من طرفها الآخر حتى يعمل الكوكو .

كانت جدران ذلك الدكان فى جنيف الذى دخلناه تحت وابل من المطر ، مغطاة بساعات كثيرة من هذا الصنف. كل منها عالم بذاته ، مختلف عن غيره. وباستطاعتك إذا كنت لمأحاً مفتوح العينين أن تختار منها عالمك. أشار الولدان إلى الساعة. جربناها ، تأكدنا من أنها تدق معلنة الساعات. وتحت السقيفة كلما اكتملت من الزمن ساعة ، أو نصف ساعة انفتحت نافذتان فى هدوء. من إحداهما يطل الطائر يصيح مؤذنا بالوقت. ومن الأخرى يخرج إنسان صغير ، إنه المغنى ، يشدو ببضع عبارات موجزة ، بأغنية قصيرة. وكان للأغنية اسمها المطبوع على الجانب الخلفى «طيور الروابى» .

وهكذا جاء الكوكو إلى أثينا ، إلى البيت ، فى صندوق كبير . محاطاً بالكثير من لفائف الورق ونشارة الخشب خشية أن يصاب بالتلف فى رحلته الطويلة. وأصبح رفيق كل لحظة ، الحبيب إلى القلوب. فى أول الأمر ، كان الأولاد يهللون ويطربون أشد الطرب كلما سمعوا الكوكو الصداح مفردا ، وفى أعقابه المغنى يشدو بأغنيته. كان الأولاد يريدون أن يجذبوا السلاسل، وأن يمضوا فى جذبها بلا توقف. ولكنهم مالبثوا أن ملوا الأمر فى النهاية. وما عادوا يرعجون الكوكو أو المغنى. تركوهما يندمجان مع سائر أشياء البيت ويصبحان من علامات المميرة ، ضمن سائر العلامات الأخرى .

إلى أن جاء ذات يوم خرج الكوكو فيه من نافذته وصدق ، لكنه
صدق وحيداً ، ولم تنفتح النافذة المجاورة. فقد لزم المغنى الصمت.
تبادل الجميع النظرات فجأة وتساءلوا :

– ماذا جرى للغناء ؟ ماذا أصاب المغنى ؟

كان الشيء المؤكد أن ثمة صوتاً حبيباً قد صمت .

وتيثم البيت فجأة. أضحت الساعة تكمل دورتها بعد ذلك ، ويظل
الديك يدعو جاره أن يفتح النافذة دون جدوى .

قلنا بأن نأخذ الساعة إلى مصلح الساعات. كان الأمر صعباً ! البيت
بعيد ، بعيد جداً. قلنا لا يليق أن نحمل الساعة إليه ، فلنحضره إلى
البيت. صعب كل شيء وعسير ! ليس لدى صانع الساعات وقت أن
يمضى مسافراً من بيت إلى بيت جرياً وراء الساعات المريضة. وفي
النهاية لم نفعل شيئاً. وربما كان المغنى فى حجرة الحقيقة يعتب علينا
هذا الإهمال ، ولكن شواغل أخرى كثرة طرأت علينا أيضاً فى تلك
الأثناء ، كما تطرأ على الدوام فى حياة الإنسان ومسيره ، ونسينا
المغنى. أقبل الشتاء واشتد زمهريره ، والكوكو ذلك العنيد الذى يخرج
فى عزلته إلى نافذته يعلن الساعة ونصف الساعة. يدور نصف دائرة من
هنا ونصف دائرة من هناك. وتتجمع الساعات إلى جوار الساعات ،
ويتحول النهار ، وينقضى الليل ، وتتبدل الفصول. يأتى الربيع ثم
الصيف ، ثم يقبل الخريف من جديد ومن بعده شتاء آخر. وهذا أمر
على غاية من البساطة وعلى غاية من الجسامة معاً. إنه زمن الإنسان ،
ممزق ، خرافى ، ملئ بالجمال والمرارة .

ذات ليلة وأنا سهران منكب على كوم من الورق إذا بى أسمع الغناء ينسكب فى السكون المخيم ، وتقد إلى «طيور الروابى» بكلماتها العذبة. من يستطيع أن يدرك مدى ماعاناها المغنى كى يتغلب على ركوده ويقوى على الخروج إلى نافذته ؟ وقلت لنفسى : «إن هذا الأمر رائع !» أجل ، إنه رائع ! الإنسان الخشبى الصغير بسترتة الخضراء وصدريته الزاهية وسرواله القصير وقبعته التيرولية ذات الريشة النافرة ، والخدين المنتفخين ، الروح الطاهر فى البيت ، عاد إلى صحبتنا من جديد. وباعتقادى أن لديه الكثير مما يريد أن يقوله لنا ، الكثير من الغرائب حقا. إن العزلة تملأ عقل الإنسان بالأفكار وتطلق العنان لأحلامه. ولكن المغنى المسكين لم يكن لديه سوى أغنية ، رتيبة ملتزمة. ووجب أن تتسع هذه الأغنية لكل شىء ! دار بخلدى هذا خاطر ، وخواطر شبيهة أخرى أيضاً. ثم سمعت الشباك الصغير يفلق. فتركت كوم الورق وشأته ، وانتظرت مجيء موعد إعلان انتصاف الساعة ، ثم موعد اكتمالها ثم موعد انتصافها وموعد اكتمالها من جديد. وشعرت بالليل يوغل من حولى ويزداد اتساعا ، دون أن يعود الشباك الصغير إلى الانفتاح حتى انتصف الليل ثم أقبلت خفيفة الخطا الساعات الأولى للنهار الذى أوشك أن ينضج على غصن الظلام العارى. وعندئذ عدت أقول لنفسى إنتى ربما لم أسمع المغنى قط وإن كل هذا مجرد لعبة من الألعاب الخيال .

جلست اليوم التالى ورويت الأمر للآخرين. فاندesh الجميع ، وعلق الأولاد أبصارهم بالشباك الصغير المغلق ، وقد أحسوا براحة جد عميقة عندما عرفوا أن المغنى لم يموت. كان الأمر مؤكدا ، إنه لم يموت. وتمنيت أن يخرج الإنسان الصغير البهيج بعد قليل ويغنى مرة أخرى. وقد وجد

الكوكو أيضاً أنيسه من جديد . ووجدنا نحن الصديق الحبيب . ومنذ ذلك الحين بقى الحال على ذلك المنوال . فى اللحظة التى لايتوقعه أحد يفتح المغنى نافذته ويغنى . مرة ومرتين فى اليوم . ثم يلزم الصمت أياما عديدة ، أسبوعا وأسبوعين ، تخلص المغنى من الضرورة . تحلل من الالتزام وظفر بحريته . هذا كل مافى الأمر . إنه يغنى الآن بمزاجه . ولهذا تكتسى أغنيته بطابع متفرد فى كل مرة ، تصير صوتا غير خاضع ، طلياً متجددا على الدوام . لقد عَلم الصمت المغنى أشياء كثيرة ، ونفحة إرادة خاصة به ، جعلته أكثر إنسانية .

لاشك ، أننا فى كل وقت نستطيع أن نذهب به إلى مصلح الساعات ، ونخضعه لقانون الآلهة الصارم ، ونحكم عليه بأن يكرر نفسه بانتظام ونمطيه . ولكن من هذا الذى قسا قلبه حتى يقدم على عمل مثل هذا .

صورة فتاة

يوانيس بانايوتو بولوس

كانت القاعة رحبة ، مربعة الحجم تقريباً ، أربعة جدران لانهاية لها ، بالطابق الأول من البيت. تصعد الدرج الرخامى ، ثم تقابلك نخیلات الزينة فى الأصص على العتبة. نظم صاحب البيت فى هذه القاعة معرضاً تذكاريّاً للبورتريه. وفى كثير من الأحيان ، تتضمن هذه المعارض التذكارية قدراً كبيراً من الأشجان ، وذلك مثلما يحدث لك ، عندما يتصادف أن تجلس ، فى مساء شتائى خافت الضوء ، عليل ، وتنبش لفافة من الصور القديمة. أو مثلما يتصادف أن تجد نفسك وحيداً فى الطريق ، بالليل ، وتطالع النوافذ المضيئة مرهف السمع إلى الريح عبر صفوف الشجر. هناك تفاصيل صغيرة تظل ساكنة فى القلب ، ولعل فى هذه التفاصيل وحدها تتبلور الحياة الخاصة لكل إنسان .

القاعة رحبة ، مربعة تقريباً . كساها صاحبها بورق رمادى فاتح اللون ، كى تزداد الأطر الذهبية بريقاً. وقد جمع البورتريهات من بيوت عديدة، غنية وفقيرة ، ولم يرفض أحد إعطاءه مالدیه ، لأن الجميع يعرفون كم كان هذا الرجل محباً للفنون ، حريصاً ، مخلصاً لعمله ،

لا تحركه منافع مادية ، وهو الأمر الذى يصعب أن تجده فى هذا العالم .
بل وطبع دعوات أنيقة للمعرض: «مائة عام من لوحات البورتريه» ورتب
المصورين ترتيباً تاريخياً بحيث لا يتسنى لأحد أن يتذمر . أشياء تقليدية ،
ليس لها بطبيعة الحال مغزى ، ولكن يحدث فى كثير من الأحيان على
أى حال ، أن يضيف عليها الجهد الإنسانى الفانى - أقصد السعى
الإنسانى نحو المجد الزائل - يضيف عليها دلالة .

ذهبت إلى المعرض أمسية الافتتاح . كان الجو ممطراً ، والمظلات
السوداء المفتوحة تملأ كل مكان . الخطوات على الأسفلت زلقة ،
والأضواء عيون ناعسة ، والعربات - وقد كانت عديدة - تصعد وتنزل
الطريق زاحفة ، فى المطر شحنة من قصائد الشعر جعلت كل قطرة من
رخاته زهرة تفتحت . كانت الأنوار فى القاعة وضاءة . ذابت فى وهجها
الأطر الذهبية وتلألأت ، ومنها خرجت الشخوص واختلطت بالمتفرجين .
رجال عنوا باللحية والفودين . قبعات عالية ، حل سهرة ، عصي زينت
بنقوش محفورة ورعوس فضية . مآزر ملقاة على الأكتاف ، وشيلان ،
ونظارات انحدرت إلى أطراف الأنوف . أزياء رسمية ومهاميز ، وريش ،
وأوسمة عديدة . كانت هناك أيضاً نساء يلبسن أحذية حريرية وفساتين
طويلة ، متماوجة موشاة مطرزة محلاة بالشرائط والخرز ، أكتاف
بيضاء محاطة بأوشحة شفافة ، قفازات مديدة واصله إلى الكوع أو إلى
أعلى من ذلك ، قلائد وأساور وساعات صغيرة ذهبية تتدلى من عرى
الثياب . أناس ذوو نفوذ وقواد معارك ، أهل فن وثراء ، نجوم مجتمع ،
حكماء ، رجال مهذبون ، أسماء معروفة ، وأخرى منسية ، ومن حول
هؤلاء جميعاً يحوم الموت على كل شىء . يذكرك مرأهم بالمقبرة . كانت

تشكل مجتمعاً غريباً تلك البورتريهات التى تتعدى أطرها فجأة وتنزل تندمج مع الأحياء وتتصت للمطر الودود الذى كان بدوره مفعماً بالحيوية ويفنى فى دروب الخريف. وبالأغوار ، وسط الحائط ، صورة فتاة شابة. وجه تغمره الشمس فى بستان ، وجه تضيئه أشعة مصفاة تخللت أغصاناً نضرة. أذكر الوجه والقوام ، والثوب القصفاض المتماوج ، والقبة العريضة ، والمظلة الكبيرة. أذكر العينين القطيفيتين الملاطفتين ، والشفتين دافئتي الرضاب ، متفتحتين كزهرة ، هكذا تحس بهما ، والنهدين تدرك من وراء الثوب مبلغ تماسكهما ، والذراعين اللتين خلقتا للعناق. كان الاحتمال بعيداً أن يكون قد وجد هذا الجسد ، وهذا الوجه الذى كان ومضة خيال أكثر منه حضوراً مادياً. ولم يكن الأمر راجعاً إلى فن المصور الذى بإمكانك أن تعتبره نموذجياً أيضاً ، بقدر ما رجع إلى شباب الفتاة الوامض ، الواثق المتفتح ، فهذا هو الذى كان يسحرك حقاً. اقترب منى صاحب البيت. كانت السعادة تغمره ، تلك الليلة ، وسط الجمهور الغفير ، والأحاديث، وعبارات الدهشة والإعجاب ، والتأثر ، وسط الأبناء والأحفاد .

قلت له :

- خبرنى عن اسمها .

- رجائى أهلها ألا أنكره لأحد أبداً .

- هل تعرفه ؟

- بلا شك ، أعرفه .

- ألا زالت موجودة أم لا ؟

أتى بحركة مبهمه ، وقال لى :

- ربما كانت موجودة .

عدت أقول له :

- من الشائع أن تسمى لوحة البورتريه بالأحرف الأولى من اسم صاحبتها .

رد على قائلًا :

- هل قرأت الكتابالوج ؟ حتى هذه الأحرف الأولى لا وجود لها .
لم يكن يريدون ذلك . اكتفوا للوحة بعنوان «فتاة الأيام الجميلة» .

- يعنون بذلك ما قبل الحرب الأولى .

- أجل ، قبل الحرب العالمية . لاتصر . سواء أكان الأمر كذلك أو لم يكن فهذه الصبية ماتت .

كان المعرض يفتح أبوابه فى التاسعة صباحاً . أمضيت ليلة لازمنى فيها الأرق . عينا الفتاة ، خذاها ، شفتاها ، كل ذلك كان يلمع فى الظلام . جمال ممتلئ ، برىء ، غير مخدوش . جمال لم يكن بالإمكان أن تستوعبه كله فى صدرك ، فيفيض ويغمرك بضياؤه .

أثينا تهدم ، ويعاد بناؤها ، تفقد روحها القديمة ، وإلى أن تكتسب روحاً جديدة ستمضى سنين وسنين . وبين الحين والحين يصادف المرء بين الأطلال والأبنية الجديدة البيوت التى عاش فيها من طواهم الموت من الأجداد ، والسلطات ذات الدرجات العريضة اللولبية ، والعتبات التى صفت عليها الأصص الكبيرة ، حيث تفتحت أوراق نخيلات الزينة

النضرة ، وثبتت المرايا التى صنعت بفينيسيا ، والثريات المدلاة من الأسقف الخشبية المزدانة بالرسوم ، واللوحات التى مضى عليها العديد من السنين فى أطرها الذهبية المعتمدة. فى بيت مثل هذا كنت أرى الفتاة صاحبة الصورة ، وقد انفصلت عن إطارها ، ومضت تصعد السلم درجة درجة ، يتثنى قوامها فى دلال. لابد من أنها كانت الابنة الوحيدة لأبويها، تدرس الفرنسية ، وتتدرب على البيانو. كانت لديها مروحة كبيرة تُروَّحُ بها عن نفسها فى ليالى الصيف أثناء حضورها المسرح. فى تلك الأيام التى كانت تقدم مسرحية «كونت دى لوكسمبرج». تهوى الشعر ، ترتدى فساتين طويلة ، وحذاءً عاليًا ، وتتهامس مع صديقاتها عن الشباب المتأنقين الذين يمرون تحت شباكها ، يدقون بلاط الرصيف بعصيتهم العصبية ، وتند منهم تنهدات عاطفية ، كان أبوها من كبار القضاة ، أو شىء من هذا القبيل بالطبع. يجلس فى كرسيه يربت على لحيه ذقنه. يقرأ «الاستيا» يفتح كيس تبغ. يلف لنفسه سيجارة ، ويناقش أمور السياسة بحماس. أما الأم فهى ابنة أحد الضباط الكبار ، أو شىء من هذا القبيل بالطبع. تعد فى المطبخ بيديها الفطائر ، تضع لعصفور الكناريا ورق خس ، تغزل جوارب ، وتتصفح مجلة «نجمة الأسرة» ، إلى هذا العالم كانت تنتمى هذه الصورة. فى تلك الأيام، كان الرجال يشيخون فى الأربعين ، وكانت النساء يحملن فى حقائبهن زجاجات النوشادر ، لعلمهن بأن آداب السلوك توجب أن ينفشى عليهن من وقت لآخر .

وكان يحدث أن يأتى الحب ، الحب الكبير ، الحب بلا أمل ، الحب المتغنى به فى أغنيات مثل «بنت علقت على صدرها صليبا من ذهب» و «أين راحت تلك الأيام ، أيام الحب السعيد» وغير ذلك من أغانى الحب

فى الحياة والممات. الوقت متأخر فى الدرب الهادئ الساجى فى الضوء المرتعش المنسكب من مصباح غازى. أنغام قيثارة تعزف تحت شباكها الذى ووربت ضلفتاه. تتنهد مع رياح يناير الشتائية ، مع المطر ، مع قيظ الصيف. أزمان وأزمان ولت وما من أحد عاد يعير الأنغام التفاتاً ، وهى لاتنوى السكوت. ثم درس عازف القيثارة فن التصوير. صار طوال اليوم يجلس يملأ الصفحات برسم وحيد ، لا يستبدله بموضوع آخر ، وجهها هو الموضوع الوحيد. يجلس يملأ مساحات الشمع ألواناً ، كى يتسنى له أن يمسك بشىء من ضيائها. وفى النهاية، وهو عائد ذات ليلة من معهد الموسيقى ، تلكأ عامداً ، والتقى بها فى الدرب الهادئ. إنه الفتى صاحب القيثارة الذى درس التصوير. التقى بها وجهاً لوجه ، وابتسم لها. هذا كل ماجرى بينهما حدث هذا فى العهد الذى قتل فيه ديليغانى صاحب الياقة العريضة المرتفعة والسترة السوداء المحكمة الأزرار. هذا كل ماجرى بينهما. وبعد قليل ، بدأت الفتاة تتأخر فى العودة إلى البيت. وتمت اللقاءات المختلصة. ثم جاءت القبلية الأولى ، حافلة بالجزع والمعاناة . القبلية التى لاتنسى أبداً ، ويعجز الوصف عن الإحاطة بها. كم كانت ترتعد من قمة رأسها إلى أخمص قدميها ! كم سهرت مؤرقة بعد ذلك ، تفكر فيها بلا شبع ، فى تلك القبلية الأولى !

الأيام الأولى ، كانت أيام الشغف والنشوة ، ثم بعد ذلك جاءت أيام الإخلاص والإعزاز ، لم تعد هذه أيام العشق ، بل كانت أيام الحب. سعادة تفكر فيها وتملأك شجناً .

منذ التاسعة صباحاً ، وقد أسكرتنى صحبة الملاك فى أرقى ، والحوار الخفى مع الجمال ، جلست أنظر إلى صورة الشابة ، كنت قد

صنعت قصتها ، على النحو الذى حاولت أن أرويهِ آنفًا . جلست أنظر إليها . كنت وحدى . ثم جاء صاحب البيت ، وقال لى :

- أحسنت صنعًا . فى ساعة مثل هذه ، يمكنك أن تتأمل كل ما تريد فى هدوء .

ثم جاءت سيدة مسنة ، سيدة مسنة عادية لم أتنبه إليها . جلست على الأريكة الصغيرة وسط القاعة . وفى النهاية ، بدأ الجمهور يقبل . انصرفت ولكن ليس إلى غير رجعه . بعد الظهر ، كنت هناك من جديد . أفكر فى الوجه ، فى الجسد ، فى العديد من الأشياء . كنت أفكر . صارت صورة الفتاة ، فجأة ، قدرى . كان صاحب البيت غائبًا . أراحنى هذا . جاءت السيدة المسنة مرة أخرى . زدت من تأملى لها . كانت ترتدى قبعة سوداء قديمة وقفازًا تناثرت عليه البقع ، وحذاء أسود بال . كانت من ذوى الثراء وأخنى عليها الدهر . هكذا كانت تبدو . جلست على الأريكة الصغيرة بجوارها فى مواجهة الصورة . كنا ننظر إلى الوجه ذاته ، والجسد ذاته ، نحن الاثنان . يجب أن أنبه إلى أننى طبيب ، وفى ذلك الحين حصلت على إجازة من المستشفى كى أكتب رسالتى لنيل الدكتوراة فى موضوع نقص الفيتامينات عند العاملين بالبحر . ومن التزيد أن أقول إن البحر ماعاد يهمنى فى شىء . تركت جانبًا نقص الفيتامينات ، وصرت العاشق المتيم بصورة الفتاة . فى اليوم الثالث ، دقت النظر فى المرأة المسنة . كان وجهها مليئًا بالتجاعيد ، وتكسوه طبقة من الشعر الخفيف مثل القسطل . كانت رقبتها مدفونة فى ياقة عالية ، وقد تغضنت مقلتها ، وشففتها ييستا . وتحت الرداء بإمكانك أن تتخيل

عظام هيكلها. وجود يكاد يكون عدماً ، سيطر عليه الزمن وأوقعه
فى عبودية رهيبة. تبادلنا تحية الصباح. وبداخل كل منا نمت نحو
الآخر مودة .

- تروق لك صورة الفتاة هذه ؟

- أسكرتنى ! بالخسارة أنها لاتباع !

- أجل ، بالخسارة !

- ماكنت أتصور أن يستطيع مصور متوسط الكفاية أن يترك لنا
مثل هذا الأثر .

- لم يكن متوسط الكفاية ! كان مصوراً كبيراً ؟

نظرت إلى بوجه خال من التعبير. نهضت ، ومضت إلى أحد
الأرفف بالحائط وقفت عنده. كل شىء كان يسقط عليها. الثياب ذاتها،
القوام ذاته. وعلى أى حال ، صرنا صديقين مرة أخرى. وحدث أن جاء
صاحب البيت أيضاً .

- أنت هنا ، من جديد ؟

- قادننى الطريق .

أحسست بأننى قد صرت أحمق. وما الحماقة ؟ شىء مثل هذا
الذى أفعله. انصرفت السيدة المسنة. ويعد الظهيرة لم يكن صاحب
البيت موجوداً. لكن السيدة كانت هناك. ابتسمت لى :

- ألا زلت تعتبره مصوراً عادياً ؟

كان صوتها مشروخاً مرتعداً ، وقد جللها الحداد .
- لا أعرف ما إذا كان متوسط الكفاية ، هذا المصور. ماعدت
أعرف شيئاً .

شرعت أدرس حالتى بعينى طبيب .

قلت فى هدوء :

- أحببت هذه المرأة .

أحسست أن المرأة المسنة إلى جوارى تنتفض ، مثلما يخفق جناح
طائر. ثم قالت لى بحزم :

- لاتأت إلى هنا بعد الآن !

- أتعرفينها ؟

- أجل ، كنت أعرفها . أما الآن فهى ميتة. ماتت منذ وقت طويل .

- كان جمالها أسراً ، خيالياً ، كما يبدو فى هذه اللوحة ؟

طفرت من عينيها الدموع .

- كانت صديقة ، صديقة لصيقة بى . نشأنا وكبرنا معا . أجل ، كان
جمالها أسراً . أما الآن ، فما عاد يوجد شىء .

كانت كلماتها الأخيرة هذه ، كما لو كانت تفد من أعماق بئر .

أصبحت متأكداً من أن الحب صورة من صور الحماسة. عدت أسأل :

- هل ماتت شابة ؟

لم تجب. وفى النهاية قالت :

- ماتت يوماً بعد يوم ، رويداً رويداً . هكذا ، كما نموت جميعاً .

غربت عيناها . وانسحبت إلى صمت عميم . انصرفت من جوارها ، وأحسست بداخلي ضوءاً يومض . انتظرت صاحب البيت . انتحيت به جانباً . كان صوتي ممثلاً بالانفعال ، وسألته :

- من هذه المرأة ؟

أشرت إلى السيدة المسنة ، وعدت أسأل :

- من هذه المرأة ؟ لماذا تأتي كل يوم إلى هنا . وفي ذات المكان تقف ، وإلى ذات الوجه تنظر ؟

ابتسم صاحب البيت ، ولم يقل شيئاً .

سألته مرة أخرى :

- أهى هذه ؟ لم تمت إذن ؟ أهى هذه ؟

أجاب صاحب البيت بهدوء :

- أجل . إنها هى .

أحسست بالخلقة تنهار بداخلي .

وقال صاحب البيت متسائلاً :

- وما الموت فى نظرك ؟ الموت هو هذا ؟

خجلت أن أبكى . لكننى أحسست بنهر من الدموع يشق أحشائى ..

دموع من أجل المرأة ، من أجلى ، من أجل القدر الأسود ، من أجل الإنسان الذى يموت يوماً بعد يوم ، رويداً رويداً .

البحر

ألفياديس يانوبولوس

كان منقوشاً على البساط المجلوب من أوروبا ، فى وسطه ، ثلاث نخلات باسقات. وكان ساق النخلة الوسطى ، مستقيماً فارعاً وأطول من ساقى النخلتين الأخرين ، اللتين تشكلان قوسين ينحنيان بدقة تامة وتناسق محكم ، الأول ناحية اليمين والثانى ناحية اليسار. وينبثق من قمة كل نخلة سعف عريض مستو بديع التنسيق. كل ذلك مرسوم بألوان قوية ، خضراء ، وصفراء ، وبنفسجية. ويصور المنظر صحراء تكسوها رمال وردية. على أن طرافة هذا المنظر كانت تتمثل فى رجلين زنجلين. يقف أولهما وقفة جانبية إلى جوار النخيل ، عارى الجسم حتى الوسط. يتفجر اللون الأحمر من شفتيه ، وفتحتى أنفه ، وحدقتا عينيه شديداً البياض ، أما الزنجل الثانى فيقف فى المواجهة بعمامة بيضاء وحزام مزركش. كان المشهد ينقصه حقا رقعة فسيحة من السماء ، أو حتى خطأ يمثل الأفق ، لكن السماء كانت تحجبها تلك الحلية عند الحافة ، وما كان يمكن أن يعتبر أفقاً ذلك الخط الضيق المرتفع باهت الزرقة .

كان الصغيران ، الولد وأخته ، يقولان آنذاك عن ذلك الخط إنه البحر. وقد مضت اليوم سنوات وسنوات ، وما عاد للبساط الطريف وجود. وقد كانت تبلي أطرافه يوماً بعد يوم ، وتتناكل ويعتريها القدم ، فكان أهل البيت يقصونها ويرفونها . ويبدلون مكانها في البيت مرة بعد أخرى. وفي النهاية غمر النسيان ذلك البساط ، حتى قبل أن تضع بقاياها الأخيرة. ومن ثم ، ربما كانت أوصافه التفصيلية الآن غير مطابقة للواقع تماماً .

كانت الغرفة التي وضع بها البساط أول الأمر مخصصة للضيوف ، فكان محظوراً دخولها على الولدين الصغيرين. وإذا حدث أن تسللا إليها خلسة ، سارا في حذر على أطراف أصابعهما. وعندما لم يكن في البيت زوار كانت نوافذ الغرفة تغلق وتتدلى عليها ستائر ثقيلة جميلة. وفي ساعات الأصيل تتسرب إلى الغرفة من خلال ثنايا الضلف الخشبية أشعة من الشمس تضيف إلى البساط زخارف متحركة ، عند سقوطها على المشهد الغريب على الأرض. على حوائط تلك الغرفة علقت الصور الكبيرة ذات الأطر الذهبية: صورة الأب بنظرته الصارمة المستغرقة في التفكير ، والتي لاتفارقه حتى في لحظات صفوه ، وصورة الأم بملامحها الوسيمة التي لازالت تحتفظ بحلاوتها حتى اليوم ، وصور الأجداد واحداً واحداً. ثم بعد ذلك ، كانت هناك صورة فتاة شابة تبتسم ابتسامة حزينة .

عن تلك الصبية - التي كانت جميلة حقاً - لم يكن الصغيران يعرفان سوى أنها سافرت ذات يوم «إلى أين ؟ لماذا ؟» وأن اسمها خريسي. لم يكونا قد رأياها قط ، وما كان أحد في البيت يتحدث عنها

فى حضورهما . بل أن ثمة شيئاً آخر كان يحدث أيضاً ، وربما رجع ذلك إلى زاوية الحائط حيث كانت توجد الصورة ، أو ربما إلى طبيعة عينيها ، فقد كانت ثمة لحظات ، وعلى الأخص ، عندما كان يخفت الضوء فى الغروب ، تتعلق فيها نظراتها بالبساط على الأرض .

وقد كان أول من لاحظ ذلك هو الأخت الصغيرة - كانت آنذاك فى الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمرها - وقد أخبرت بذلك أخاها الذى يكبرها بقليل قائلة :

- أرايت ، ياستيليو ، كيف تنظر خريسى إلى البحر ؟

- ولماذا تنظر إلى البحر ؟

- هاهى ، تطل إلى حيث يوجد البحر ، هناك .

ويلمع فى عينيها المنبهرتين ، وهى تنطق بكلمة البحر ، يلمع حقاً الخط الضيق ذو اللون الأزرق الباهت المرتسم على السجادة . ثم يتسع وينبسط على مساحة خيالية ، مطفئاً تماماً حيز الغرفة المغلقة ، ومنطلقاً إلى ضياء سماء شغافة ، إلى عالم مجهول يغمره نور صاف .

عالم مجهول .. رؤيا عن سفن بيضاء ، تكاد تتمايل ، كما لو كانت مهوداً تهددها يد خفية ، وقد رفرفت السكينة على تلك المهود الوديعه . وغمر الأرجاء إحساس بالانساق والتألف وبرصانة حلوة .

يقول ستيليو : السفن تمضى إلى مدن تشبه فيها العمائر قلاعاً ، نوافذها فتحات مربعة لاحصر لها ولا عدد . ثم يردف قائلاً : «ولكن أليس للشيطان هناك وجود ؟ تنتصب هناك أشجار النخيل ، مثل تلك التى على

البساط ، ويرتفع سعفها حتى تلمس أطرافه أديم السماء .. ثم هناك الشوارع .. خطوطها على الجانبين تجرى ، تجرى كى تلتقى فى ركن بعيد ، بعيد ، هناك. يجب أن تغمض عينيك حتى ترى كل ذلك» ثم يمضى ستيليو ، فيقول مؤكداً : «الناس فى المدن ليس لديهم وقت لمثل هذه الأمور ، ولا هم أيضاً يحلمون». وتساءل الأخت الصغيرة قائلة : «حسناً .. لكن أين تذهب الصبايا الجميلات مثل التصاوير ، الباسمات فى حزن ؟» .

إن خريسى حتى فى الخيال مقصية. وهى ، هنا فى البيت ، غريبة. لهذا فهى خفيضة العينين تتثبت نظراتها بالبحر الأزرق الساكن ، المسجى على الأرض قبالتها ...

هذا ما كان يحدث عندما تكون النوافذ موصدة. لكن الأمر كان يختلف عندما تنتقى الضيفة مقعداً وتجلس. كانت المقاعد مثبتة فى أماكنها التى لا تتغير. الأشياء كلها يسودها ذلك النظام الهندسى المقدر أن يوجد فى «غرف الاستقبال» وفى جانب من الغرفة ، ليس فى الوسط تماماً ، المنضدة الصغيرة ، وهناك أيضاً المقاعد الأخرى ، والكراسى الثلاثة الواطئة بلا مساند ، والدولاب الزجاجى الذى يحتوى على الآنية المفضضة ، وهناك الخزانة المكنسوفتان ، كل منهما فى ركن بالغرفة. فى الأولى التحف المنمنمة والعلب الصغيرة وطرائف أخرى متنوعة. أما فى الخزانة الأخرى فتعرض المحارة الوردية الكبيرة «أتسمعين البحر ، يانينا ؟» - كان نينا اسم الأخت الصغيرة - وإناء الزهور الأخضر القيم ، وبه الزهور الصناعية ، وكأنها زهور حقيقية .

تقول السيدة فلانة مؤكدة :

- لن أبقى طويلاً ، يا عزيزتى إيرينى ...

فتجيب الأم محتجة :

- لم أرك منذ أمد طويل ، يا امرأة ! وأنا لا أخرج إلا نادراً ..

- ولما ذلك ، بالله عليك ؟ ليس هذا تصرفاً طيباً من جانبك .

فتقول الأم :

- سأخبرك .. سأخبرك ..

ثم تنادى الخادمة ، وتقول لها : النافذة ، ياماريكا .

ولم يتسن قط لماريكا أن تفتح النافذة فى الوقت المناسب. فقد كانت مشغولة البال للغاية. وتصيح فيها سيدتها :

- ماريكا ! لاتنسى أن ترتدى ميدعتك البيضاء !

فتهرول الخادمة ، وتجوس بين قطع الأثاث مسرعة. وما أن تلمس أناملها الستائر الثقيلة المسدلة ، تقول الضيفة :

- لاداعى لذلك ، يا إيرينى. إن الرؤية ميسورة بهذا الضوء أيضاً ...

ولايلبث أن يغمر الضوء الأشياء كلها دفعة واحدة. الستائر ناصعة البياض كالثلج ، منشأة ومدلاة على النوافذ ، نظيفة وغير مجعدة ، خطوط كوائها مستقيمة ، وتسرى فى النسيج اهتزازة خفيفة .

يكاد يكون الحديث المتبادل بين المرأتين مرحاً أول الأمر ، ويدور حول موضوعات سارة. ولكن رويداً رويداً وكلما ازداد تدفقاً واكتسى

أهمية ، انخفضت نبرات الصوت. وكان من الجلى عندئذ أن كل كلمة أصبح لها معنى تنفرد به .

يدخل «الولدان» إلى «غرفة الاستقبال» .

- تعالى هنا ، يانينا ، ياعصفورتى العزيزة ! كم كبرت! ..
يا لهاتين العينين الجميلتين ! .

كان الولدان يردان التحية بأدب .

- اعتن بدروسك ، ياستيليو! .. إن أباكما وأمكما يشقيان من أجلكما .

- إنى أعتنى بها ، ياسيدتى !

ثم يعود الحديث فى حذر وارتياب ، وبكلمات متقطعة إلى الموضوع الذى انفرط عقده .

- ولماذا ... ألم تكتبى بعد ذلك ، يا إيرينى ؟

تعاود الأم كلامها بحزن قائلة :

- كلا ..

كانت بالطبع قصة مجهولة ، ولكن الولدين على أى حال كانا يشعران بأن ثمة ما يثقل قلوب أهل البيت. قلق ما ، توجس ما ، شىء يكبل الأفكار بالأغلال .

ومن وقت لآخر كانت السيدة تقاطع الأم قائلة :

- سبق أن قلت لك ذلك يا إيرينى ، يا حبيبتى .

وترد الأم قائلة :

- أجل ، ولكن .

ثم تنهر الولدين بغضب مكبوت :

- نينا ، ستيليو ! لاتقفا هنا ، اذهبا إلى غرفة الطعام !

للأسرار حرمتها. على أنه قد تصادف ذات يوم أن رأى الولدان مشهداً غير مألوف. وقفت الضيفة أمام صورة خريسي، وكما لو كانت توجه خطاباً إليها أومأت برأسها ، كانت هذه الإيماءة جد فريدة وغير متوقعة ، حتى أن الولدين ظنا أن خريسي قد عادت ، وأن ذلك الوجه وجه فتاة حقيقية ، تقف هناك بالقرب منهم ، بنظراتها القلقة التي تبدو كأنها خائفة .

وقد جعل ديب الحياة هذا في الصورة ، وجود الفتاة بعد ذلك أكثر تجسماً في الغرفة الساكنة المغلقة .

ماعادت خريسي ، كما كانت من قبل ، شخصية من شخصيات الحواديت. صارت مرتبطة بالموجودات الأخرى المحيطة بها ، وأصبحت من الأسرة مثل الأجداد ، الذين وإن لم يكن أى من الولدين قد عرفهم أيضاً ، إلا أن انتماءهم إلى الحفيدين وشدة الشبه بالأب، وشعورهما بالقرب جعلهما ينظران إليهم على أنهم «موجودون» وليس الأمر بحاجة في شأنهم إلى أى «تفكير» .

وإذا بعاطفة جديدة تتولد كلما عادت خريسي تطل من حكايات من فى البيت المتنوعة. وذات مساء ، وجد ستيليو فى الغرفة أخته نينا جالسة على البساط الذى رسمت عليه أشجار النخيل ، فسألها :

- أنت هنا ، ماذا تفعلين ؟

- لا شيء .

- تنامين ؟

- كلا ، إنى أنظر .

- فى الظلمة ؟ إلى ما تنتظرين ؟

- لا شيء .

ثم بعد برهة تردد قصيرة تقول :

- هل صحيح إنتى أشبهها ؟

- تشبهين من ؟

- أشبه خريسى .

- أنت ؟! .. من قال ذلك ؟

- ماريكا .

- ماريكا بلهاء .

ثم بعد برهة بإصرار :

- كما أن خريسى جميلة .. وليس ذلك فحسب، إن خريسى ما

كانت تقبع فى الظلمة مثل شبح تحلم بتوافه .

بقيت تلك الصورة وقتاً قليلاً في مكانها . وعندما انتقلت الأسرة إلى بيت آخر ، لم تعد الصورة تتبوأ مكانها في غرفة الطعام «ولم يعد هناك غرفة استقبال» ولم يصبح المكان يتسع لأية صورة من الصور السابقة . فقد كانت الشقة الجديدة أصغر ، وأكثر تواضعاً ، وفي حى أقل صخباً . وهكذا ، مع أشياء أخرى قديمة اختفت خريسي في مكان ما هناك .

وبعد ذلك بكثير ، جاء دور البساط . في أول الأمر شطر إلى شطرين ثم قسم إلى ثلاثة أجزاء وأصبح الآن يؤدي خدمات يومية أكثر تواضعاً . بل إنه رويداً رويداً نسي ماكان عليه من حال في سالف عهده .

وفضلاً عن ذلك ، فإنه مع مر السنين ، وكلما غيرت الأشياء من مواضعها واستعمالاتها ، كلما صارت أكثر بساطة وصراحة ووضوحاً . لم تعد تكتسى بأى مسحة من الغرابة . كان وجودها مرهوناً فحسب باستخداماتها المألوفة . وصار هذا هو أمر البشر أيضاً .

وإذا بخريسي تصبح شخصاً من الأقارب اللصيقين . كانت توجد في الطرف الآخر من الدنيا ، سنوات وسنوات مضت عليها هناك الآن ... كما كان ثمة مسألة تتعلق بميراث يخصها ، تفاصيله مكدره ومثيرة للأشجان .

ومع ذلك ، فعلى الرغم من كل ما هو عادي ومألوف إلى حد الرتابة ، كانت تعود إلى الذاكرة لحظات ، لحظات مثل غزال رشيق يخطو بخطوات أثيرية ، خيالات بعيدة من أيام الطفولة : أسفار في بحار لاوجود لها ، تشبه ذلك البحر الأزرق الباهت ، ذلك البحر الفسيح الساجى ، على البساط الذى طواه النسيان . ومع تلك اللحظات يخيم سكون ضبابى ، وإحساس بحلم مريح تنتشى به الذاكرة .

فى البحور الأخرى ، البحور الحقيقية ، السفن كتل تنساب فى بطن
بأشكالها المعروفة ناشرة قلاعاً وصواري ، وأبراج مراقبة ، ومداخن
وكوات مستديرة .

تقطر المراسى ماءً أجاجاً . وليست السماء على الدوام صفحة
ملساء صافية الزرقة . بل هى فى بعض الأحيان جهمة غائمة ووضاءة فى
بعض الأحيان الأخرى ، وتتزين بين الفينة والفينة بأسمال أرجوانية
وبنفسجية . ولكنها منذ الأزل تجاهد كى تجمع قدر إمكانها غشاوة
معتمدة حول الأفق ، تقف مثل سد يحتجز كل شىء هناك ، فلا يمكن
اجتيازها ولا بالخيال ...

وتصل المراكب - التى تبدو ناصعة البياض ، من بعيد - إلى
الموانئ مثل طيور منزوعة الريش . وتبين بلا حياء عن عددها المرتبة
وحبالها وأحمالها .. كلها أشياء نافعة مألوفة وحافلة بما يثير الاهتمام .

أما بحر البساط ، ذلك الخط الضيق المسحور ، فقد كان وحده
يطوى بين جنباته سعادة الدنيا بأسرها ، بطلاوتها ونقائنها المبرأ من كل
شائبة . كانت خريسى تطل عليه بنظرات ملؤها الإصرار ، وكانت تحلم
خريسى فى الأيام الخوالى ، تلك الفتاة الجميلة مثل التصاوير .

أين تذهب حقاً ، ساعات الأصيل الماضيات ؟ آنذاك ، لم يكن ثمة
وجود للأحزان والمنغصات مثل خلاقات الميراث . كانت نينا تنسج رؤى
عن شواطئ تنمو فيها أشجار نخيل . وكان الولدان يرحلان مع خريسى ،
فى رحلات على أطراف الأقدام «حتى لا يحس بهم أحد» فوق ذلك البحر
ذاته ، الذى أودع «اسمعى؟» هديره الذى لا ينتهى فى المحارة الكبيرة الوردية .

تسوية ودية

ديمتري سياتوبولوس

القديس ديمتري بقعة من الأرض منزوية في الشرق من يابسة
اليونان بالقرب من بحر كثير الصخور ، ينبسط مثل سجادة زرقاء
نسجت حديثاً ، ويمتد نحو الجنوب . يزينه هنا وهناك غزل من زهور
بيضاء على مرمى البصر .

من حوله بضعة تلال تكومت قاحلة كئيبة ، تشبه أحجارها الجيرية
الناثئة وجنات ضامرة لعمالقة أسطوريين دب الهزال في أبدانهم .
وبعيداً عن الأفق العريض ، تلوح جبال إيفياس الوردية ساهمة ،
كما لو كانت ظلال أحلام .

أما نعمة الله في تلك البلد فقد انحصرت في سهل صغير مستدير
ذى زرع وفير ينبسط على أرض خفيفة عتيقة تحدها هضبة من حجارة
جرداء تمتد في الجنوب وفي الغرب .. في هذه الضيعة الكنيسة أيضاً ،
كنيسة القديس ديمتري ، محاطة بأشجار دفل كثيرة ، وزيتون دسم ،
وصنوبريات مورقة ، وتين عسلى وآخر شوكى ، وأشجار بلوط ، أجيالا
طوالا تبكى في الشتاء هجران الناس لها ، وفي الصيف تشدو للنفر

القليل الذى يجىء من صائدى الطير والسماك وافداً من القرى المجاورة .
يأتون وأسرههم ، شهراً أو شهرين فى الصيف . يحطون الرحال ،
ويقيمون فى أكواخ صنعت على عجل من بوص أخضر وحبال ...

فى مثل ذلك الوقت ، يصبح القديس ديمترى خلية تعج بأولاد
صغار فرحين ، يلعبون ويضحكون طوال النهار خلى البال ، وكم تبعث
رؤيتهم البهجة فى القلوب حقاً .

هذا المكان بكنيستته الصغيرة والزرع المحيطة به ملك قديم من
أملاك الأديرة . ولكن منذ العديد من السنين حتى اليوم لم يعرف المكان
سوى عامل مقيم واحد ، هو العم ميترى كولاروس .

كان لايزال صبيّاً ، هذا العجوز العم ميترى ، عندما ألحقه رئيس
الدير إليسيوس بالعمل حارساً لهذه البقعة من الأرض ، وبمقتضى ذلك
صار من واجبه ومن حقه أيضاً أن يرعى الزرع الذى كان آنذاك لايزال
غضاً ، ويتعهد الكروم التى كانت قليلة . وبدلاً من أن يتقاضى لقاء ذلك
أجراً كان له أن يجنى الثمار لنفسه . أشياء زهيدة ، لكنها جديرة
باحترام فتى وحيد معرض عنه ، يتوجس الخيفة من الناس ومن أحوال
الدنيا . لم تزهر على شفتيه أغنية فى ساعات شبابه الموحش سوى
بضع ترانيم تدور حول محور حزين لا يتغير .

ثم مات إليسيوس رئيس الدير ، وتعاقب من بعده رؤساء آخرون
عديدون ، دون أن يذكر أحدهم القديس ديمترى وحارسه المنسى من
الناس ومن القدر . فأحب الفتى فى عزلته تلك البقعة من الأرض ،
وارتبط بها حتى اليوم .

« بيدى عجنت هذه الأرض ... »

هذا ما كان يقوله لمن كانوا يمرون بتلك الناحية ، ويبدون إعجابهم
بجهوده . ثم يردف قائلاً :

- ليس لى أحد فى الدنيا ... هذه الأرض كانت بالنسبة لى أمًا
وأخًا وكل شىء .. وفى الليل ، عندما تتوق نفسى إلى الإنسان أرتمى
على الأرض ، وأتشبث بها . ألصق أذنى بأديمها ، وأسمع وجيب الناس
من بعيد .

وتتابعت الفصول والأزمان ، بلا حدود تفصل بين أيام الشتاء وأيام
الصيف ، بين الخريف والربيع .

ومن ساعات الضعف الإنسانى والمصالحات تراكم على كاهل العم
ميترو خمسون من السنين الثقال ، صار فى هذه الناحية شبحاً حقاً .
صار رجلاً جبلياً مديد القامة ، يصفر فى وجهه الريح لا أنشودة بل
ترنيمة حزينة . صار جذراً عتيقاً من جذور أشجار البلوط التى تضرب
موغلة فى التربة ، تتشبث بها متلوية مثل ثعابين حجرية ، تظل هناك
إلى الأبد ..

ولكن عندما تعيش خمسين عاماً كاملة فى بلد بعينه ، دون أن تغيب
عنه حتى ساعة واحدة ، عندما تتحرك فى حيز مكاني بذاته ، فإنك
تشعر بكل شىء من حورك . تعرفه حق المعرفة وتحبه ، ولو كان هذا
المكان سجنًا ، فإن القضبان والأبواب الحديدية الثقيلة تصبح إخوة لك .
أمر من هذا القبيل حدث أيضاً للعجوز ميترو الأسود . كان يقول
مشيراً إلى صف من أشجار الزيتون المتماسكة وقد أزهرت أغصانها :

- أجل ، أترى أشجار الزيتون ، تلك ؟ أنا الذى جعلت منها عرائس تزهو بزينتها .. كانت شجيرات برية نبتت هنا وهناك مبعثرة مثل صفار الأرناب الجبلية ... أنا الذى لمست شطها وزرعتها الواحدة إلى جوار الأخرى . وعندما ثبتت جذورها وحانت ساعتها المباركة ، أنا الذى زوجتها ... أنا الذى طعمتها وتعهدها بالرعاية ... إنها - لعلك - حية بدورها ... يبحث كل منها عن زوجها ، عندما يحين أوانها ...

وحتى فى عمره هذا ، كنت تراه من وقت لآخر ، وقد انحنى على جذور أشجاره ينبش التربة ، ويستأصل الحشائش الضارة . ثم يمسك بمكنسة من القش العطر يطوف بها المكان حتى البئر الرطيب الذى يفتح فمه متثائباً تحت أشجار البلوط التليدة ، وينظف الأرض بحركات مباركة كما لو كان إلهاً كبيراً أحب مخلوقاته أكثر من نفسه .

وكثيراً ما كلف من التقى بهم أن يحضروا له من القرية المجاورة جيراً ، وعندئذ كانت تكتسى سفوح الهضبة الجرداء برداء ناصع البياض . كان يصلح ، هنا وهناك حجارة الأركان المهدمة ، ويضفى النشوة حتى على الأطر الحجرية المحيطة بسيقان أشجاره - النشوة التى بعثها معاينة الجهد والاهتمام بالعمل ، ومهما كنت مثقلاً بالهموم تدب فيك الفرحة ، وتشعر بصدرك يخفق وأنت ترى كل هذا .

- ولتعلم أن هذه هى حياتى أنا ... كل حجر ، كل غصن ، كل جذر هنا هو بالنسبة لى حكاية بأكملها .

كان يهز رأسه بآلم ويردف قائلاً :

- حكاية القلب . ما الذى بالإمكان أن تحب غير الطبيعة ؟ هل هناك ما هو أجمل ؟ ثم يقول ضاحكاً :

- هي بدورها أنثى ، هذه الطبيعة .. أنثى هي ، وإن لم تكن امرأة .

أشباح وعفاريت لا توجد على هذه الأرض ، فلو كان لها وجود
لعرف العجوز ميترو أمرها ولراها منذ العديد من السنين . آلاف الليالي
الشتوية السوداء فكر في هذا الأمر أيضاً ، عندما تشتد رياح الشمال
وتدور حول عشته ، وتختطف روحه وتذهب بها بعيداً إلى عوالم جد
مختلفة ، إلى منحدرات مظلمة ، وهاوية لطمتها الأمطار والعواصف .
إن العالم هلامي غير محدد المقدار .. إنه جد رحيب ، لعلمك ، بقدر عقل
الإنسان ... ولكن المسكين ميترو كان يشعر بعض الأحيان أنه يموت في
غير أوانه ! .. في بعض أمسيات مؤسسية من مايو ومن أكتوبر يموت
تحت أشجار البلوط ، تلك المخيفة ، ولازال في شرح شبابه ، بكراً ،
بلا تطلعات ، بلا مغامرة مثيرة تداعب خياله الفطري ، ثم بعد ذلك ها
هو يقترب من الموت فعلاً ، عجوزاً بلا أمجاد أو ذكرى .

وعندما كان يداعبه الصيادون الذين كانوا يحطون رحالهم هناك .
كان يقول لهم :

- هذا ما يحدث لنا أيضاً نحن البشر أحياناً . هكذا يحدث : في
دفع راحة اليد تذوب حياتنا مثل كرة الثلج البيضاء ، دون أن نكف عن
الأمل .. دون أن نكف عن أن نترنم بأغنية الحياة ...

ذات يوم من أيام الربيع ، في الوقت الذي كانت قد أزهرت زهور
الدفلى ، ظهر في القديس ديمتری رجل غريب يركب دراجة .

كانت الأشجار قد عادت إلى شدوها القديم ، وكل شيء من حولها
قد دهن بالجير حديثاً وبدا لامعاً طلياً ، تماماً مثل الروح الخفاقة في

أعماق العم ميترو ، التى تزينت بحلل الأعياد بدورها ومضت تصلى
مبتهجة برحيل الأشباح ...

أسند الرجل دراجته إلى ركن العشة ، وتمطى كى يطرد التصلب
عن مفاصله . فقد كدح وقتاً طويلاً بعجلته عبر الطريق الوعر !
جرى العجوز ميترو يرحب به . رمقه الآخر بنظرات حادة .

- ديمتريو كولاروس ، أنت ؟

- أجل ، يا بنى ...

- احم ... هل أستطيع أن أشرب كوباً من الماء ، أيها العجوز ؟

- بكل سرور ، وناول شيئاً أيضاً ...

كان أول إنسان يراه العم ميترو طوال أسبوعين ، فأراد أن يرحب
به ، ويتجاذب معه أطراف الحديث ، عن ألف أمر وأمر ... عن دنيا
البشر الذين حرم منهم طوال هذه السنين ، وعن أزهار الزيتون ونمو
الكرمة ، وعن المحصول الوفير هذا العام ، وعن كل تلك الأشياء التى
قالها فحسب لتسمات الربيع أياماً وأيام .

لكن ذلك الرجل كان جد عبوس ، حتى يستمع إلى أغنية قلب ..
تجرع الكأس الصغير التى قدمها له العجوز ، وشرب كوب الماء دفعة
واحدة . ثم أخرج من جيبه بعض الأوراق ، أخذ يقلبها بعناية .

مضى ميترو المسكين ينظر إليه دهشاً .

وفجأة ، انتزع الرجل من كومة أوراقه ورقة كبيرة ، وصوب إلى
العجوز نظرة .

- ديمتريو كولاروس ، هيه ؟ حارس ضياع دير القديس يوائيل .

- أجل يا بنى ، أنا ...

- لك معى إنذار ، أيها العجوز .

جذب من الأوراق ورقة كتبت بحروف صغيرة ، وامتلأت بطوابع وأختام ، وناولها للعم ميترو . ثم بسط أمامه على حافة النافذة ورقة مماثلة مكتوبة على الآلة الكاتبة بدورها ، وأعطاه قلمه قائلًا :

- خذ ، وقع هنا بالاستلام ...

فتش العجوز فى جيوبه عن النظارة .

- ما هذه الورقة ؟

طوى الآخر سائر أوراقه ودفنها فى جيبيه .

- إنها خدمة . « تسوية ودية لعقد العمل » ...

وقف العجوز ميترو ، ومضى ينظر إليه كما لو كان لا يفهم لغته .

- كيف قلت ذلك ، يا بنى ؟

- كما سمعته يا جدى .. إن الدير « وقد أصبح فى غير حاجة إلى

خدامك » - على حد قوله - يستغنى عنك ... من باكر عليك أن تجمع

حاجياتك وترحل ... غداً صباحاً ، سيرسلون غيرك ليحل محلك ...

ترك أوراقه على حافة النافذة برهة ، ومضى يبحث فى

جيوبه ، قائلًا :

- ولك معى بعض النقود ستسلمها .. تعويض .. أجرة ستة أشهر ...
أخرج من جيب سترته الداخلى لفافة من الأوراق المالية ووضعها
فى يد العجوز .
- عدها .

مضى العجوز يحملق فيه تائها . هم أن يلفظ بكلمة . ولكنها ما أن
انزلت خارجة من شفتيه حتى سقطت أرضاً . ارتطمت بالحجارة
وتهشمت آلاف القطع .

التفت إليه الرجل بشيء من العصبية :

- ماذا حدث ، يا جدى ؟ لماذا لا تضع توقيعك ؟

- وأنت .. أنت ، يا بنى .. من أنت ؟

قال له الآخر بصرامة :

- أنا المحضر القضائى .. عد نقودك ووقع ، لأن وقتى لا يتسع .
يجب أن أنصرف ...

أخذ العم ميترو يرتعش .

- ماذا .. ماذا يعنى كل هذا ؟

- إنهم يطردونك ... تتظاهر بأنك لا تفهم ، أيها العجوز ...

- من القديس ديمترى ؟

- أجل ... إنه القانون .. طالما أنهم يدفعون لك تعويضاً ، فهم
يملكون ذلك ... عد نقودك .. أجرة ستة أشهر ... لماذا تنظر إلى هكذا ؟

- أنا .. يطردوتنى أنا من هنا ؟ من القديس ديمترى ؟

- أجل .. ألم أقل لك ذلك ؟ .. تسوية ودية ...

تحجرت العبارة فى عقل العجوز الفقير .

« تسوية ودية ... »

جالت عيناه بنظرة مرتعبة فيما حوله ، فى كل تلك الأشياء التى أحبها أشد الحب طوال السنين العديدة . وفجأة ، خيل إليه أن الشجر والنبات وسفح الهضبة الجرداء والتلال المجاورة - خيل إليه أنها كلها قد اكتسبت دفعة واحدة الهيئة الإنسانية ، ومضت تنظر إليه بتساؤل كبير ، تنظر إليه كلها محدقة فى عينيه ...

- وأين .. أين أذهب ، يا بنى ؟

أتى المحضر حركة تنم عن الضجر .

- وهل أعرف أنا أين تذهب ؟ .. إنى أؤدى عملى فحسب ...

أشار إلى الورقة على حافة النافذة وقال له :

- وقع .. فقد أدركنى الليل هنا ...

انحنى كما لو كان منوماً ، ووضع توقيعاً مشوشاً فى المكان الذى أوضحه له الرجل المجهول . أخذ هذا الأخير الورقة ، وطواها مع غيرها من الأوراق .

- طاب مساؤك ، أيها العجوز ... ومن الغد ، هيه ، كما قلنا ..

سوف يأتى الآخر .

استدار نحو الدراجة . دفعها صاعداً إلى الطريق الممهد ، قفز عليها ، ومضى بها مسرعاً . ثم غاب خلف الهضبة الحجرية البيضاء ...

ألقى العجوز نظرة على الورقة ذات الأختام ، ونظرة أخرى على النقود ، ثم سمر عينيه المبللتين على النقطة التي غاب عندها الرجل المجهول ، كما لو لم يكن قد أحس شيئاً من هذه الحكاية كلها ...

كان الوقت غروباً ، ومن جديد صبغت الشمس بصبغتها جبال إيفياس البعيدة .. ومضت تغيب أثيرية كعادتها ، وردية اللون ساهمة .

جزيرة يونانية

غالاتيا ساراندى

كانت الشمس على وشك أن تغيب .. السماء ذهبية ، والجو كله من ذهب ، الحقول وبساتين الكرم والأسوار ، بل وفيليباس أيضاً . كان فيليباس يجلس على غصن شجرة من أشجار الزيتون ، مدلياً قدميه الغليظتين الحافيتين ، ومحرّكاً إياهما فى حركات رتيبة ، متخيلاً أن يقع الشمس الصغيرة النافذة من خلال الأفنان المورقة إنما ترقص على جلده الخشن الضامر ، فيقول : « جنيه آخر ... وآخر »

وبين الفينة والفينة كان يرفع رأسه إلى أعلى ويختلس النظر من ثنايا أوراق شجرة الزيتون . لكن السماء كانت ذهباً لا يتغير ، فانتاب الارتباك فيليباس . رفع يده مذعوراً إلى عينيه وحجبهما مطلقاً أنات خافتة . ثم عاد فأترق رأسه وتابع من جديد قدميه ، محصياً بقع الشمس ، مردداً بانتظام : « جنيه آخر وآخر ... »

بعد قليل وقف مستغرقاً فى التفكير ، وقال بصوت خفيض مشوب بالخجل ، كما لو كان يفضى إلى أحد بسر : « سأحيك كيساً صغيراً أحمر ، وأضع من حوله شريطاً ذهبياً ، وأجمع الجنيهاات كلها »

قال من كان يقف وراءه ضاحكاً :

- وماذا ستعمل بها يا فيليباس ؟ ..

أجفل فيليباس . 'عض شفتيه . وضع يديه على فمه ، كما لو كان بذلك يكتُم سره على نحو أفضل ، ثم انفجر فى الضحك ، مطلقاً قهقهة صاخبة . لكنه لم يعن على أى حال بالالتفات ليرى من أين يأتى الصوت . أخذ من جديد يحرك ساقيه بانتظام ، وسأل بلا اكتراث : « أنت هنا ؟ » .

لم يتلق فيليباس إجابة ، ولكنه التزم الجد .

خيم الصمت لحظات ، لحظات قصار للغاية ... بالقدر الذى تحتاج إليه السماء لتغير لونها . واصطبغ أديمها بلون أحمر ، أحمر دافئ وعميق . عاد يسأل ، ولكن بلهجة جادة للغاية .

- ماذا تفعل ؟

ضحك الآخر . كان شاباً . وضع صندوقه خلف شجرة الزيتون التى جلس عليها فيليباس ومضى يرسم .

أجاب ضاحكاً :

- تعالى ، لترى .

- كلا ، خبرنى أنت !

- حسناً ، أيها العنيد ، سأخبرك !

أغمض عينيه ونظر بانتباه إلى لوحته التى لم تكتمل بعد . أشجار زيتون ، شجرة سرو ، حائط مهدم ، ثم أشجار زيتون أخرى ، فى

وسطها قبة الكنيسة ، بيضاء ناصعة البياض مثل سحابة صيف في الظهيرة . قطب جبينه وقد استبد به الانشغال . كل شيء صحيح ، الأشجار زاهية ، وحجارة الحائط تنبئ عن ثقلها . لكن كان ثمة شيء ناقص .. شيء ما .. عض شفثيه حتى كادت تدميان . وفد من أعماقه البعيد صوت نسائي شبه منطقي يقول : « لماذا تعذب نفسك ؟ لماذا تجهدا ؟ » ثم علا صوته عنيداً غاضباً : « لا تستطيعين أن تفهمي ... ليس باستطاعتك ذلك . كل ما أفعل يعوزه الضوء دائماً ... الضوء ... »

وقالت الفتاة شاكية : « تطلب كل ما هو مستحيل .. تطلب ما هو وهم وخيال ... »

أغلق صندوقه حزيناً . ظهره يؤله ورأسه ثقيل ، ولكن إصراره على الدوام متقد . سأل نفسه : « أهو عناد هذا ؟ » وفي أعماقه كانت الثقة موجودة . وعلى الرغم من كل المثبطات يرفض الاستسلام . كلا .. كلا ... وعاد يسأل نفسه : أهو وهم أن أجرى وراء الضياء ؟ ومن جديد تتصدى ثقته ، وطيدة مثل قلقه ، بالإجابة : « كلا .. كلا ! »

قال فيليباس : « لماذا لا تخبرني بما تفعله ؟ »

نظر المصور شارد اللب إلى شجرة الزيتون التي صورها : على مبعدة قليلة رأى شجرة شوك كبيرة مزدهية نبتت متقنة الخطوط ، وبدت مختالة تقف ممشوقة القوام ، وقد انبسطت أوراقها الذهبية ، وعندما التقت نظرة المصور بها أحس بقلبه يتخفف مما كان يعتصره منذ بعض الوقت . تناول كراسته وقلمه وشرع يرسمها بحركات سريعة متحررة قال :

- اعلم يا فيليباس ، إننى أرسم شجرة شوك . وحذار عندما تنزل
أن تكرمش أوراقى !

آخ ، ياله من شىء مضحك ! اسمعوا ، شجرة شوك . زلزل
الضحك كيانه كله . تطاوت ذراعاه وساقاه فوق شجرة الزيتون .

ها ... ها ... ها ... تكور مثل كرة ، وتدحرج نازلا . أخذ يأتى
بقفزات عنيفة مرحة .

- اسمعوا ، اسمعوا ، إنه يرسم شجرة شوك !

فى ذلك الوقت ، كانت تمر فى الطريق السيدة مارينا . رآته يقفز
ويصيح فسألته :

- ماذا حدث لك يا ولد يافيليباس ؟ أطبق عليك الجنون ، أيها
المسكين .

كانت تسأله ، ولكنها كانت كما لو كانت تتشاجر معه أيضاً .
السيدة مارينا امرأة صغيرة القد فى منتصف العمر . وجهها لوحته
الشمس ، وشعرها فضى اللون . ولابد أنك سوف تقول عنها إنها عجوز
لولا أن عينيها راقصتا النظرات ، عامرتان بالضياء ، عميقتا السواد .

أقبل عليها فيليباس بوجهه الساذج ، ومضى يشرح لها الأمر :

- اسمعى ، اسمعى ، إنه يرسم شجرة شوك !

ضحكت السيدة مارينا وقالت : إلزم الهدوء حتى يرسم صورتك
أنت ، أيها الأحمق ! مادمت لا تلتزم الهدوء فحسناً يصنع إذ يرسم
شجيرات الشوك .

ومضت فى طريقها خفيفة الخطا .

ظل فيليباس جامداً فى مكانه برهة ، وقد استغرق فى التفكير .
نكس رأسه كما لو كان قد أثقله التفكير . بإحدى يديه راح يحك رقبتة ،
وبالأخرى أتى بعض الحركات كما لو كان يريد أن يضرب شيئاً لا يراه
يلفه ويعذبه . ثم فجأة انتفض ، واندفع يجرى فى أعقاب السيدة مارينا ،
منادياً :

– إيه .. إيه ..

توقفت ونظرت إليه دهشة . ماذا من جديد ؟

عندما لحق بها ، كان الانشغال قد زال من قسماته . وقال لها كما
لو كان يفضى لها بسر ، وهو يشير نحو المصور : إنه شيطان !

ابتسمت السيدة مارينا . ومضت فى طريقها على أنه مضى يهمس
فى أعقابها كما لو كان يميظ اللثام عن أمر كان خافياً . « إنه ينظر إليك ،
ثم ينظر إلى الورقة يحرك يده فتخرج صورتك بحذافيرها ! إنه عمل
شيطانى أليس كذلك ؟ إني خائف . »

– ولم تخاف ؟

عادت رأس فيليباس تثقل من جديد . حقا لم يخاف ؟ انتابته
الرغبة فى الضحك والقفز ، ولكنه تمالك نفسه .

سألها بلهجة مرحة :

– أين تذهبين ؟

أجابته ببساطة وهدوء ، كما لو لم يكن الذى إلى جوارها عبيط الجزيرة ، الذى يضحك منه الجميع . لم يخطر حتى ببالها أن تقول له وماذا يعنك أنت ، أو أن تغضبه أو تنهره وتطرده ، وذلك لأن السيدة مارينا كانت قد فقدت أمها وتيتمت وهى صغيرة ، وإذ رأت أباهما وقد هدته وطأة الحزن لشدة المصاب الذى ألم به . استيقظ قلبها مبكراً . تهشم وأدمى . ولهذا حملت يتم البيت كله على كاهلها . وتولت تربية إخوتها السبعة .

فى الحادية عشرة من عمرها كانت أمّاً صغيرة تعرف كيف تتكلم عن الخير وعن الشر ، وكيف تنهر وتلاطف ، وكيف تواسى وتدخر من مصروف البيت ، ولا تنطق بكلام غير لائق . كل شىء كانت تعرفه ! وكما لو لم يكن ذلك كافياً لتسديد دينها على الأرض ، تزوجت وأنجبت بدورها ثمانية أولاد ، شقيت فى تربيتهم . مات ثلاثة منهم وبقي لها خمسة ، ومنذ سنتين وأصغر أولادها فانجيلاكى يعانى من الدمل الخبيث على وجنته . ولهذا فقد امتلأ وجهها بالتجاعيد من فرط الهموم ، وابيض شعرها ، لكن قلبها أيضاً قد انشرخ من وقت جد مبكر ، ولذلك فما كان بالإمكان أن تقسو على أحد .

مضت تتأمل فى ألم جسد فيليباس المسوخ . إنسان جد غريب هو . وحيد فى هذا العالم . يقترب من الشيخوخة ومع ذلك لازال عقله عاقل طفل لا يكثرث به أحد ، بل ويعذبه الناس والشياطين والضوء الباهر وظلمة الليل . بها رغبة ملحة فى البكاء من أجله إلا أن دموعها نضب معينها منذ أمد .. كل ما فى إمكانها نظرة إشفاق ومواساة فحسب .

- إني ذاهبة ، إلى فيرويا ، يافيليباس . ذاهبة إلى الأب ستاماتى ..
سأقيم صلاة بعد غد من أجل ابنى . نذرت نذراً .

قال فيليباس بعزم :

- سأحضر معك . سأحضر ، لأسأل الأب ستاماتى عما إذا كان
هذا الرجل شيطاناً !

خمسة وأربعون عاماً أمضاها الأب ستاماتى ناسكاً فى ناحية
فيرويا . تلاحقت السنين الخمسة والأربعون كما لو كانت حبات مسبحة
بطيئة متتابعة . عندما جاء أول مرة كان شاباً يتدفق حيوية ، وطنين
العالم يفد إلى أسماعه جائراً معذباً . أما الآن فقد أضحى عجوزاً ،
وأرجاء المكان تخربت ، ظل الناسك وحيداً ، وكان هو فى فيرويا آخر
من بقى .

ها هو يجلس على عتبة صومعته . ونظراته تائهة بين قمم أشجار
السرو الباسقة ، تتمتم شفاته بآيات من الكتب المقدسة ، مثلما كان
يتغنى من قبل بأشعار الوجد والغرام . ذكريات بعيدة كل هذه الآن ،
ومنطفئة ... جميلة هذه الساعة التى تغيب فيها الشمس ، وتطير الطيور
فى السماء بعضها فى إثر بعض .

اقتربت منه السيدة مارينا دون أن تتعرف عليه . وقفت تتأمله ، وقد
انتابتها الدهشة لتلك السعادة المرتسمة على وجهه الهرم .

نادته بصوت خفيض : « أيها الأب ستاماتى » ولكنه لم يسمعها .
كان يبتسم للسماء ، ويغمم بين الفينة والفينة قائلاً : « كونوا مثل طيور
السماء .. كونوا مثلها ... »

جلست بدورها على حجر مقابل ، وأومأت إلى فيليباس قائلة :

- صه ! صه ! إنه يتحدث إلى الملائكة !

انصاع فيليباس لها ، دون مناقشة . انزوى فى ركن ، ومضى ينظر إلى العجوز بإعجاب . كيف يحتمل أن يتحدث إلى الملائكة دون أن يجن ! تسرى الرعدة فى بدن فيليباس ، كلما خطرت بباله الفكرة ! يشعر بالأجنحة البيضاء الحريرية ترفرف فى الهواء ، ويبدأ الخوف يدب فى عظامه . الأجنحة من حولهم ، إنها تلمسهم ، وتكاد تربت عليهم . إنه يشعر بها ، ويضرب بدنه . ولكن لو رآها بعينه ، فإنه يعرف أنه عندئذ لن يحتمل . يلرز السيدة مارينا فزعاً ، فتدّ عليه من جديد بإيماءة من إصبعها أن يسكت . ومن ثم يغمض فيليباس عينيه حتى لا يرى ، فعدم الرؤية حماية له ، وظل على هذا الحال ينتظر .

تنتظر السيدة مارينا وتفكر . يوم السبت يبدأ مانذرتة . ستأخذ فانجيلاكى فى حضنها ، وستصعد سيراً على قدميها إلى كنيسة القديس إيليا . إنها أبعد الكنائس والطريق إليها أشد الطرق وعورة . ستقطع حافية القدمين هذا الطريق الملىء بالحصى الخشن ، وهى تعرف أن قدميها ستدميان . ولم تعر الأمر اهتماماً قط . هذا ما يجب أن يحدث كى يشفى الولد . إنه آلام إكليل ثقيل وعبئ ملقى على الجميع . وستحمل هى على عاتقها ثقلاً أزيد مما يحمله الآخرون ، من أجل أن يخف عن ابنها وطأة الداء الذى به . ستمضى الليلة معه فى الكنيسة تصلى ، وفى الصباح سيقوم الأب ستاماتى قداساً ، وهو ذلك الرجل الطاهر الذى انتزع نفسه من هذا العالم الدنس . وبعدئذ ستصعد بمفردها مرة كل شهر لتوقد قناديل الكنيسة . وذلك لمدة عشر سنوات !

وإذا شاء القديس سيصنع معجزته . سيكف نزف الصديد من الجرح ،
وسيشرع الولد فى اللعب . سيجرى مثل سائر الأولاد . ولن تكون عيناه
حزينتين ، وتنظران من حولهما كما لو كانتا تتوسلان قائلتين : أحبوني !
دمى قلبها ، وتنهدت بصوت مسموع . صدرت عنها تنهيدة مديدة ومتعبة ،
استدار الأب ستاماتى نحوها مبهوتا :

- أنت هنا ، بارك الله فيك ، ولا تتكلمين ... وفيليباس أيضاً هنا ...
أهلاً بكما ... أهلاً ...

كان الوقت ليلاً عندما عاد فيليباس إلى البيت الذى يقيم فيه
المصور . وجده عند باب الفناء وحيداً يتأمل النجوم . وقف بجواره
وأخبره بالنبأ مبتهجاً :

- لست شيطاناً !

ضحك الآخر قائلاً :

- منذ الذى قال لك إننى لست شيطاناً ؟

- الأب ستاماتى ! كما قال لى أيضاً ألا أخاف ، وأن ترسمنى على
الورق . وسأصعد يوم السبت مع السيدة مارينا وفانجيلاكى إلى
القديس إيليا ليقم لنا الأب ستاماتى قداساً . تعال معنا إذ أردت !

قال كل ذلك فى نفس واحد ، وهو يقف لاهئاً ، وعندما فرغ انفجر
بضحك . فضحك المصور أيضاً :

- حسناً ، إذن ، سأرسمك .

قال فيليباس :

- أريد أن تفعل ذلك . الآن .

- الوقت ليل الآن يا فيليباس . ولا أرى جيداً ...

- تستطيع أن ترى على ضوء المصباح !

أصر على ذلك وأشار له إلى صاحبة البيت التي كانت تدعك زجاج المصباح .

- هيا إذن ، فلنتحقق رغبتك !

نهض جذلاً ، ودخل الغرفة . أخذ ورقاً وقلماً ، وجلس أمامه . ومضى يدقق النظر إليه .

قالت صاحبة البيت من مطبخها :

- سيرسمك إذن ، يا فيليباس ؟

ثم جاءت إلى الباب ونظرت منه .

نهرته قائلة :

- أين كنت طوال بعد الظهر ، أردت أن تنقل لى ماء !

قال بتؤدة :

- كنت فى فيرويا ، عند العجوز .

وقف ينظر إليها نظرة جادة ، كما لو كان يزن ما إذا كانت أهلاً أن تسمع ما سوف يستطرد إليه فى قوله ، لكنه لم يتمالك نفسه طويلاً وقال :

- كان يتحدث إلى الملائكة !

انتهره المصور قائلاً :

- لا تتحرك .

كانت رعشة العمل السحري قد بدأت تستحوذ عليه . نظرة إلى الخارج ، نظرة إلى الورق وإلى القلم والصفحة تمضى إلى الامتلاء .

عاد فيليباس يشعر بالاضطراب فى جسده ، وهو واقف هكذا بلا حراك ، انتابته رغبة فى أن يجرى موليا الأدبار ، وأن يحطم كل شيء ، وأن يزعق ، لكنه تمالك نفسه ، لأنه وجد اليوم أمّا تسكن من روعه . قالت له : « لم تخاف ؟ » ثم مضى العجوز فقال له بدوره : « لا تخف » . يفوت بعض الوقت . تنحنى صاحبة البيت على الصورة ، وتقول معجبة :

- صورة طبق الأصل منك !

ويسأله المصور :

- هل أنت مستعد ؟

ثم يناوله الورقة . ينظر إليها ... ينظر إليها مرتبكاً فى البداية ، ثم فرحاً ، ثم بوحشية يندفع إلى الخارج .

يعج الدرب بصوته المجلجل : اخرجوا أيها الناس ... يوجد فيليباس آخر هنا !

تقول صاحبة البيت :

- إنه جد متقلب .

وجلس على عتبة البيت الخارجية . لقد طاش صواب المسكين لأنه رأى صورة القديس إيليا فى شبابه . رآه يقود مركبته وأربعة جياذ ضارية . وكان الضوء باهراً حتى أفقد التعس رشده .. وكيف بإمكانه أن يطبق كل هذا الضياء ؟

يستمتع المصور إلى ذلك وهو يدخن . ينظر عالياً .. حشد هائل من النجوم .. هل تراها هى أيضاً فى هذه الساعة بأثينا ؟ ها هو إحدها يضيع .. هل تطارد أوهاماً ؟ .. كلا ... كلا .. ليس النور وهماً من الأوهام .

- كيف يستطيع أن يحتمل المسكين كل هذا الضياء ... كان بالإمكان أن يطبق العمى على عينيه ... لكنه فقد صوابه بدلاً من ذلك .

يهز رأسه ، لكن ذهنه يشرد بعيداً . كلا ... كلا ، ليس وهما ، كل ما فى الأمر أن الضوء يخطف الأبصار ، ويفقد الصواب .

مضت صاحبة البيت تقول :

- إنى أتساعل ، كيف سيقوى العجوز على صعود الطريق إلى هناك . تقدم به العمر الآن ... أين تلك السنين التى كان يصعد فيها الدرب يخطر مثل عصفور . كان فتى من أسرة كريمة المحتد فى أثينا ، وكان يعرف عدة لغات ، وكان حكيماً ... كما يقولون إنه ...

- ماذا يقولون ؟

- يقولون إنه أحب .

- وماذا حدث ؟

- ماتت هي ، فأصبح هو لذلك راهباً . هذا ما يقولونه ، ولكن من يدرى أين الحقيقة وراء كل شيء ، ولما نأتى هذا أوداك من الأفعال ؟ .. منذا الذى يدرى ؟

صعدت السيدة مارينا المنحدر ببسالة ، حافية القدمين ، حاملة ابنها فى حضنها . قدماءها الآن مثخنة بالجراح وذراعاها مهدمتان ، ولكن قلبها خفيف . بدأ تنفيذ النذر ، فليشف فانجيلاكى وأما الباقي فيهن . أوقدت القناديل ، بخرت نفسها ، بسطت غطاء الأرض أمام الأيقونة وأرقدته . ثم فكت الضمادة من على الجرح . وعندما أنجز العجوز صلاة المساء ، أخذت زيتاً دافئاً مباركاً من القنديل ، ودهنت به الموضع السقيم ، وتركت الجرح مكشوفاً هكذا أمام عيني القديس . كى يراه ويشفق عليه . مضى الصغير يتابعها صامتاً . وفى عينيه نظرة دهشة متعبة ، كما لو كان يقول : لماذا تفعلون كل هذا ؟

فرغ الأب ستاماتى من صلاته ، وطوى جلبابه الكهنوتى . ثم التفت إلى الصغير وقال : « عونك ، يارب » ناوله ملبسه ، ولكنه لم يعن حتى بأن يمد يده لتناولها .

بادرت أمه قائلة :

- أدخل أطباء أثينا الرعب إلى قلبه .

هز الأب ستاماتى رأسه أيضاً ، وقال بصوت هامس :

- أثينا .. أثينا .. ترى كيف حال أثينا الآن ؟

كان فيليباس يقف وراءه . سمعه ، فافتعل ضحكة ، وقال كما لو
كاد يحدث نفسه :

- أثينا .. خراب .. هذا حال أثينا .

مضى المصور الشاب يتأمل الأعمدة التي تسند القبة . ربت عليها
بيديه ملاطفاً وبعينيه أيضاً أحاطها بنظرات تكاد تكون عاشقة . أحس
إلى حد ما كأنه مضطرب من الجمال الذي كان بانتظاره على هذه القمة .

كانت الكنيسة الصغيرة من النمط البيزنطى ، البيزنطى الكلاسيكى ،
وكانت خطوطها عامرة بالانسجام والبهجة والعزة . ولكن الأعمدة التي
تسندها كانت مأخوذة من بقايا معبد قديم ، والهيكل بدوره كان من
حجارة وطيذة .

عاد فيليباس يقول :

- خراب هي أثينا .. ماذا تظن ؟

التفت إليه ، وضحك سائلاً :

- هل ذهبت إلى أثينا ، يا فيليباس ؟

وكيف لم يذهب . عندما طلب للتجنيد ، إلى هناك ذهبوا به . زحام ،
ضجيج ، تدافع بالمناكب ، احتكاكات . أحس كما لو كان تائها فى ذلك
البلد الشرس . كان يذهب إلى مقهى يرتاده أهل جزيرته حتى يذكر لغته .
وكان يقول : « العام القادم سأعود إلى الجزيرة . أعدوا خطاباتكم كي
أحملها معى إلى أهاليكم » .

كان أبناء الجزيرة المغتربون يضحكون ، ويسألونه : « هل تعرف متى يكون العام القادم ، يا فيليباس ؟ » « العام القادم ؟ إنه بعد الشتاء وصيف وخريف ، هذا هو العام القادم » . والربيع يا فيليباس ، كيف نسيت الربيع ، يا فيليباس ؟ إنه يذكر كل ذلك ويضحك الآن . وهل أنسى الربيع ؟ ثم يلتزم الجد ، ويجيل بصره فيما حوله مرتاباً . ينظر إلى الأعمدة الرخامية . ويشير للمصور إلى القديس بخوف قائلاً : وحده أتى بها إلى هنا لبناء كنيسته . وبئك الجرار كان يجلب الماء . هذا مايقولون . تعال ، انظر .

كانت ثلاث جرار حجرية عتيقة ، عتيقة جداً ، منذ أيام كان يقوم على هذه البقعة معبد لأبولون . استدار الشاب بغتة ، وثبت أنظاره بإصرار على الأب ستاماتي ، كما لو كان ينتظر إجابة على سؤال خفى .

قال العجوز وقد بدت عيناه هادئتين وصادقتين :

- أجل ، عندما كان المستبدون يطاردون المؤمنين ، وقد نصبت المياه في الآبار ، تعبت النساء والأطفال ، وعندئذ نزل القديس . وكل ليلة كان يحمل الجرار على كتفه ويجلب الماء إلى المؤمنين .

- هكذا يقولون ... وعلى الدوام كانت نظرتة مثابرة ، بل وتكاد تكون صارمة .

أجاب الأب ستاماتي بصوت هادئ زاهد :

- رآه المؤمنون .

اضطرب بدن فيليباس . رأوه بمركبته وجياده التي كانت تنفخ النار من خطمها .

قال بصوت خفيض متوسل :

- فلنذهب إلى الخارج . الغروب بالخارج . الغروب الوردى ،
وطيور الحجل تطير على مستوى خفيض . البحر من كل جانب ، والجزر
الأخرى البعيدة ، كما لو كانت تسبح فى هذا الضوء الوردى . لاريب أن
الليل يقبل . ولكن طوال هذا اليوم الذى انقضى كانت الشمس قد روت
الوجود إلى الأعماق ... إلى الأعماق ، حتى إنها الآن وعلى الرغم من
تأهبها للرحيل فإن ضيائها لازالت تنسكب على كل الأرجاء ، على
التراب والموج وعلى قلب الحجر وجذور الشجر .

بدأت تهب نسيمات قليلة ، داعبت لحية العجوز الطويلة مثلما تداعب
خيوطاً من حرير . تسلق فيليباس إلى البرج وأخذ يدق الجرس ، وهو
يقفز جذلاً . كانت هبات الهواء تحمل الأصدااء عذبة ، وتحيلها إلى ضياء
بدورها .

تمتم الأب ستاماتى فى نشوة « ضياء صافية » .

نظر إليه المصور قلقاً مضطرباً . تولد فى أعماقه إحساس يشبه
الحسد من هذه السكينة وبراءة الطفولة .

ضوء صاف . الضوء من جديد ، الضوء دائماً وعذابه ... شجرة
شوك مختالة مزدهية ، لوحة نصف مكتملة ، بها أشجار زيتون وسرو .
كل شئ فيها متقن ، ولكن ثمة ما ينقصها ... وصوت الصبية يقول :
تجرى وراء المستحيل . وصوت ربة البيت يقول : كيف يحتمل المسكين
كل هذه الضياء .. الضوء دائماً .. الضوء الذى يدفع إلى الجنون ،
الضوء المفتقد ، الذى يأتى بالسكينة .. يريد أن يعض يديه ، أن يبكى ،
ولكن فوق كل شئ يريد أن يتكلم .

كم هو معذب هذا الشاب الوسيم ، كم الأمر ساحر وأليم ، هذا ما يفكر فيه الأب ستاماتي .. كلا ، ليس الضوء وهماً ، يا بني . فليكن إيمانك قويا ، أيها الشاب ... تريد أن تأسره فى لوحاتك وعلى عجل . انظر إلى هذه الأعمدة وهذه القبة . لقد أسره الصنّاع على النحو الذى حلموا به ، أسروا الضوء . ليس إذن وهما ... لم تخاف ؟ يجب فحسب أن ترتوى أعماقك .. لا تكن عجولاً يا بني ... وكن أكثر تواضعاً .

نزل فيليبّاس من البرج وجاء يجلس إلى جوارهما . بدا عليه الفرح . وبين الفينة والفينة يقول لنفسه : كل شيء حسن ، كل شيء حسن .
- ليس خراباً هنا ، هيه يا فيليبّاس .

- كلا ... والآن معى فيليبّاس آخر . وهكذا ستكون لى صحبة خاصة بى دائماً .

نهض ضاحكا حصيفاً ، وأخرج من جيبه الرسم الذى خطه المصور له ، بسطة بحر ص وأمسك به إلى جانبه هكذا مفتوحاً . أخذ يتحدث إليه باحترام ، ويريه القرى والأديرة البادية من القبة العالية .

- انظر ، هناك يا فيليبّاس ... ها هى «القلعة» و «عذراء النبع» .

كان المصور يصغى إليه ويفكر « هكذا كنت أريها النجوم أحياناً . هذا النجم سيريوس ، وهذا النجم القطبى ، وهذا النجم كاسيوبى ... كلا ، ليس خراباً هنا ، ولكن لو كانت أيضاً هى بجوارى وأسند رأسى إلى حجرها لما أحسست إلى هذا الحد بالبحر يضغط على ويحاصرني مقصياً إياى عن سائر الدنيا » .

- هناك يا فيليباس ، انظر ... انظر الكنيسة الصغيرة فى «حلالى»
وتلك فى «بارون» .

كرر الأب ستاماتى اسمى هاتين القريتين بتؤدة . ثم أسرع يحكى
قصة كل منهما كما لو كان يحكى «حدوته» من «الحواديت» .

... فى سالف العصر ، تزوجت إحدى الأميرات وأعطيت لها
الجزيرة كلها بائنة لها . كانت أميرة من الفرنجة وزوجها كان باروناً .
لكنه لم يبق وفياً لها . ولم يمض عام على زواجهما حتى رحل تاركاً فى
قلب الأميرة جرحاً . مضت عيناها تذرف الدموع كلما بلغت أخبار
زوجها فى مجونه ومتعه ، إلى أن نضبت فى مقلتيها ينابيع الدموع .
وعندئذ هدتها بصيرتها إلى فكرة عمدت إلى تنفيذها . بنت الأميرة
لنفسها ديراً وصارت راهبة ، وغيرت عقيدتها ، حتى تقطع كل
ما يربطها بالخائن من روابط . مضت السنين تارة سريعة وتارة بطيئة ،
كما تمضى السنين عادة . وفى صباح ملاً صخب الموج سماء الجزيرة
لقد عاد البارون . وأمام الأميرة ركع ذليلاً . حدثها عن حبه لها الذى
كان له طوال هذه السنين تعويذة ، وعن الهموم التى سقتها إياه مغريات
الحياة . واستحلفها بالله ألا تتركه وحيداً . مضت دون أن تنبس ببنت
شفة تنصت إليه كما يجب أن تنصت أميرة جريحة القلب طعينة . ظلت
لا تنطق بكلمة ، ولا تحرك ساكناً ، فغضب هو ، لأنه كان سليل المحتد
وذا رجولة ، وفى سورة غضبه صاح فيها غير متمالك لنفسه : لماذا لم
تنتظرينى ؟ لماذا صرت راهبة ؟ لماذا ؟ .. على أنها لم تجبه قائله وبحق :
لأنك هجرتنى ، وكنت خائناً . كلا ، لم تجبه بذلك ، بل رفعت رأسها فى
إباء ونظرت إليه طويلاً وقالت : إنى فعلت ما حلالى !

يقولن إنه أصبح بدوره راهباً . إنه غير دينه بدوره . ويقولون إنه بنى لنفسه كنيسة صغيرة وترهبين فيها . ويقولون إنه كان كل ليلة يشعل ناراً على السطح فوق برج الجرس ، وإن الأميرة كانت تنظر إلى هذه النار من الطرف المقابل حتى ساعة متأخرة .

قالت له : «فعلت ما حلالى !» ومن هنا نشأت تسمية الدير بدير «حلالى» والكنيسة الأخرى لازال الناس يطلقون عليها «البارون» .

عند الفجر استيقظ المصور ، وخرج ينتظر رؤية الشمس . لم يكن يمسك بيديه لا ورقاً ولا قلماً إلا أن ثمة إحساساً بالسكينة داخل قلبه . لم يكن يرى البحر ، لأن ضباباً كثيفاً كان قد احتضن القمة وحجب الرؤية . كان ينظر مبتسماً إلى تلك الناحية من السماء التى بدأت تتورد ، ومضى يفكر فى الكلمات التى سوف يكتبها إلى الفتاة التى كانت تشعر بالعزلة فى قلب أثينا الصاخبة .

«عزيزتى ، أوجد فى جزيرة يونانية . ليس للزمن اعتبار هنا . وللأشواك جمال يجرح . وكل شىء ضياء . ها هو فيليباس قد اختل منطقته من وفرة الضياء ... عزيزتى ، فانجيلاكى الصغير مريض ويتعذب ، وقطعت أمه الطريق الصاعد كله حافية القدمين حتى دميتا ، وأمضت الليل ساهرة تصلى ، لأن ألم الإنسان - كما تقول - إكليل ثقيل الحمل ، ولأنه لو لم يكن فيليباس وحيداً فى هذا الوجود ، وكان له من يتألم له ، لاحتمل الضياء . تفهمين ... يا حبيبتي ، لا تجيبينى قائلة مثل الأميرة القديمة ... فعلت ما حلالى .. لا تجيبينى هكذا ، لأن ذلك موت . يقلت المرء من إفسار الزمن ، هكذا كما فعل الأب ستاماتى ... ولكن عندما

جاء أول الأمر إلى فيرويا لابد من أن الإحساس بهذا البحر المحيط به
من كل جانب كان يخنقه .. لاتجيبى بذلك ، أرجوك احضري فحسب إلى
جوارى لتساعديني على أن أصبح متواضعا ، وأن أرتوى بالضياء مثل
جذور الشجر وقلب الحجر ... »

حلم فتاة

كوستاس خادزيولوس

لم تحظ كلارا بحب رجل قط . لم تكن تريد أن تصدق أنها على غاية من الدمامة ، وإن كانت تحس بالخوف من ذلك في قرارة نفسها . لكن أحداً لم يحبها قط ، وإلى رفيقاتها اللاتي كن يتباهين بغرامياتهن ، كان يجب أن تجلس وتنسج بدورها وتنتحل قصصاً من صنع خيالها عن شبان وقعوا في هواها ذات مرة ، وعن آخرين لازالوا يطاردونها . تارة كانت تحكى عن نزعات عاطفية تجوس فيها الغابات مع عشيق ، وتارة أخرى عن أسفار بزوارق ومراكب عبر النهر والبحيرات مع آخر . كل هذا كان يحدث أيام الأحاد بينما كانت كلارا تلزم الدار تونس أمها المريضة ، أو تخرج في المساء تتريض في الأماكن الخلوية تتنسم بعض الهواء ، وتغزل بشكل أفضل في الهواء الطلق الحلم الذي سوف تحكيه في الغد لرفيقاتها . كان صديقها الآن فتى غريباً عن الديار ، أسمر البشرة ، أسود الشعر والعينين ، جاء من بلد بعيد ، بلد لا يسقط فيه الجليد أبداً ، وتمتد فيه الحقول على مدى النظر في حضن نسيمات دافئة . وتتدلى الأغصان من الشجر ، وفي الغابات تحيا طيور غريبة ، والقصور التي يرين عليها الصمت تنعكس أعمدتها وسطوحها على

صفحات المياه الصفراء في الأنهار . كانت صويحيباتها تتسع حدقاتهن ،
عندما كانت كلارا تحكى أن لصديقها قصراً ، وسيأخذها إليه ليعيشا
هناك معاً .

كانت كلارا تنتظر مجيئه مثلما انتظرت الآخرين الذين لم يجئ
منهم أحد . وذات مساء أثناء عودتها إلى البيت ، عندما شعرت بخطوات
مثل خطواتها وبئيدة ساكنة تتعقبها داخلتها الظنون عما إذا لم يكن هذا
الذى خلقها هو عشيقها حقاً . ولكن لما كانت الدماء قد تجمدت فجأة في
عروقها ، وخفق قلبها بشدة ، فقد عجزت عن أن تستدير على عقبيها
وتراه . على أنها عندما وصلت إلى باب دارها ودخلت التفتت وألقت
وراءها نظرة خاطفة ، فرأت عينيه اللتين لمعتا تحت ضوء مصباح
الطريق . صعدت الدرجات بسرعة ، وجرت إلى النافذة . كان يقف
بلا حراك إلى جوار عامود النور ، وقد تسمرت نظراته على شباكها .

لم تذق كلارا طعم النوم تلك الليلة ولا الليلة التالية ، لأن خطوات
ذلك الغريب تعقبها الليلة التالية أيضاً . وعندما صعدت إلى بيتها ، عاد
يقف مثل نصب أمام شباكها وقد رفع عينيه نحوه ، وفي تلك الليلة
الثالثة لم تعد كلارا بقادرة على أن تحتمل المزيد . لبست قبعاتها من جديد ،
ونزلت إلى الشارع ، وقد اعتزمت إلى أن تذهب إلى الغريب مباشرة ،
لكنها مضت رغماً عنها تسير في الطريق ، دون أن تعرف إلى أين
مقصدها . يلقي بها كل درب إلى درب آخر ، حتى وجدت نفسها في
المنتزه الكبير . عبرت كلارا الجانب الغامر بالضوء والناس ، ودلفت إلى
أحد المماشي الضيقة المتعرجة مثل الثعبان والتي لا يلمسها النور
إلا لما ولا يلبث أن يضيع تحت ظلال الأغصان السوداء . اندست في

ظلمتها ومضت قدماً ، ومن ورائها أحست بخطوات الغريب تتبعها بطيئة متئدة فى أعقابها ، ظلت تمشى حتى وصلت إلى مكان فيه بركة تكاد تختبئ تحت الشجر . وعندما وقفت ، توقفت بدورها الخطوات إلى جوارها . وعندما جلست على الأريكة التى كانت هناك عند حافة الماء وجدت الغريب جالساً بالقرب منها . وعلى ضوء مصباح يتدلى من بين الشجر أمكنها أن ترى من جديد ملامحه . كان أسمر الوجه ، أسود العينين والشعر ، غزير الخصلات . كان هو .

نظرت إليه كلارا صامته ساكنة ، كما لو كانت غارقة فى حلم . أشجار واطئة نحيلة محنية ملتوية الأغصان . أشجار هزيلة ممتدة مثل نصال حادة ، ملونة ، غريبة ، معروقة مجهولة ، تلمع مثل الذهب فى وهج الشمس الغاربة . وأمامها تفتحت وضاءة الزرقة ؛ الحقول الشاسعة التائهة بعيداً فى الأعماق الدفيئة . وكانت قد قرأت فى الكتب عن العيون الداخلية التى ترى أحياناً قبل العيون الخارجية ، وثبتت أنظارها على الغريب وانتظرت أن يتحدث إليها ، ومضت تحلم بأن يكلمها وتتلف إلى كلامه عن بلده البعيد ، عن الطيور الغريبة التى تعيش فى الغابات ، عن المياه الشاحبة الساكنة التى تنعكس على صفحتها - مثلاً فى مرآة - القصور ناصعة البياض ، لكن الرجل الغريب لم يفتح شفثيه بكلمة ، بل مضى ينظر إليها بدوره صامتاً ساكناً . هكذا ظل صامتاً طوال تلك الأمسية ، وساكناً صامتاً أيضاً طوال كل الأمسيات اللاحقة ، عندما كانت كلارا تقوده وراءها ليجلسا جنباً إلى جنب على الأريكة ذاتها ، عند حافة البحيرة .

لم تعد كلارا الآن تحكى شيئاً لرفيقاتها من هذه القصة . كانت تلتزم الصمت ، سارحة البال طوال النهار ، كما لو كانت تحلم وتنتظر قدوم المساء فحسب .

وأخيراً ، ذات مساء صامت معتم مثل سائر الأمسيات ، ذات مساء انسكب فيه ضوء المصباح كعهده دائماً على وجه الرجل الغريب ، وزحف عند قدميه مثل أفعى ، وارتعش أصفر شاحباً عند حافة الماء ، ازدادت كلارا اقتراباً من الغريب ، وأمسكت بيده .

لم يحرك ساكناً . تركها ممسكة بها . نظر فى عينيها وسألها :

– ما اسمك ؟

أخبرته كلارا باسمها .

أجابها الغريب ولازال يثبت عليها بصره قائلاً :

– لست أنت .

اتسعت حدقتا كلارا .

– لست أنت . تشبهينها فحسب ، تشبهينها فى دمامتها .

همت كلارا أن تسحب يدها ، لكنه أمسك بها :

– ... ذات الشفتين المترهلتين ، ذات الوجنتين اليابستين نافرتى العظام ، ذات العينين الصغيرتين المنطفأتين عديمتى اللون ، ذات الجسد المحنى . كانت بدورها أكثر النساء دمامة . ما من أحد أولاها التفاتاً ، ما من أحد اكترث بها . ما من أحد أحبها . الناس عديمو القدرة على

رؤية الروح . وهى كانت روحاً طيبة . لم تنبس بكلمة . لم تطلق ضحكة واحدة فى صحبتى قط . كانت تجلس عند الطرف فحسب ، منكمشة . ومثل نمره فى قفص مضت تراقب فى صمت ، الأخريات اللاتى كن يضحكن معى . لم تكن هى تشبههن . لم تكن على غرارهن . لم يكن لها مكان فى هذا العالم . من أجل هذا قتلتها .

انتفضت كلارا ، لكن الغريب لم يترك يدها .

وأردف قائلاً :

- كنت أحبها ، فقتلتها . لكن لا تخشى ، فأنا لا أحبك . إنك لست هى ، كما خيل إلى عندما رأيته أول مرة . اعتقدت أن روحها قد انتقلت إليك ، أنها قد بعثت فيك ، أنها عادت إلى الحياة معك . لكن كلا ، أنت لست هى . أنت تخافين ، أما هى فلم تكن تخاف . أنت ترتعدين ، أما هى فلم تكن ترتعد . من تلقائها فضت ضفائرها وأعطتني إياها ، فعقدتها حول عنقها . شددتها وأحكمت الرباط ، وكلما ضاق حولها اتسعت عيناها ، عيناها الضيقتان ، وأطلتا على الهاوية السحيقة . وانفتحت هناك أبواب على مصراعيها . مثل لوحين من الخزف أجيد صقلهما لمعت عيناها الباهتتان ، ومثل قطعتين من الياقوت تقطران دماء ، ومضت العينان المنطفئتان . تملكنى الذعر فغطيت وجهها . لم أعد أرى سوى الجسد العارى . تلاعبت من حولها أنوار صفراء ووردية شاحبة ، وغازت هناك أضواء براقه ناصعة لازوردية وخضراء وعسجدية . وكما تنطفئ الألوان ذات يوم معتم فى محارة ، وكما يرتعش فى اللجة القمر غير المكتمل مخترقاً الأغصان من عليائه ، هكذا كان يلمع الجسد العارى أمامى .

نظرت كلارا إلى البركة حيث كانت تشير يده . كانت المياه مظلمة ،
ولم يكن القمر بادياً . عند الحافة فحسب ، هناك أمامها ، كان وهج
المصباح يرتعش ارتعاشات صفراء .

مضى الغريب قائلاً :

– لماذا عارية ؟ تجردت من ثيابها عندما رأت أنني أريدها عارية ،
وألقت بنفسها على الفراش . أما أنت فلا تريدين ذلك . إنك لا تفضين
وحدك ضفائرك .

مد يده نحو عنقها ، كما لو كان يريد أن يفتح صدريتها .

انتفضت كلارا من جديد .

قال لها الغريب :

– لا تجزعى . لا أريدك أنت .

وأنزل يده .

– تلك تركتني أجردها من ثيابها ، ورقدت في الفراش عارية .
لم أدنسه . غطيت الجسد العارى ، فقد كان يملأني رهبة ببريقه . قبلت
يدها فحسب ، وكانت تتدلى خارج الغطاء . كانت يدها جد صغيرة ولينة ،
أم يدك فدميمة ، ولن أقبلها . يد خشنة مفلطحة رديئة الخلقة .. إنك
لست هي . لم تخرجي من المياه الصفراء التي ذهبت ، وألقيت بها فيها ،
حتى لا يرى أحد آخر الجسد العارى . إنك لست هي ، تشبهينها فحسب .
أنت لاتريدين أن تموتى ، لا تريدين أن تحبى . لا تستطعين . أم أنك
تريدين ؟ .. خبريني !

ظل ممسكاً بيديها ضاغطاً عليها بشدة .

نكست كلارا وجهها . لم تكن قادرة على أن ترفع وجهها إلى وجهه ،
لم تكن لتقوى على رؤية عينيه اللتين تومضان واسعتين سوداوين باردتين
تحت الضوء الأصفر .

بعد هنيهة ، أحست بأنه أفرج عن يدها . وعندما جرؤت ورفعت
وجهها من جديد كان الغريب قد اختفى .

فى المساء التالى ، عندما عادت كلارا إلى البيت ، لم تسمع وراءها
خطواته . وعندما أطلت من الشباك لم تره واقفاً أمام البيت ينتظر . لقد
انتظر ولم تظهر هى . نزلت إلى الشارع ودون أن تدرى وجدت نفسها
فى المنتزه تجلس عند حافة البحيرة . ظلت وحدها ساعات مطرقة دون
حراك . لم يحضر الغريب . ولكن عندما نهضت لتتصرف ، ودلفت إلى
الممشى الضيق المظلم ، خيل إليها أنها سمعت ، ربما وراءها أو على
مقربة منها أو من بعيد ، أو ربما من داخلها فحسب ، أصداً قهقهة
مديدة هائجة متوحشة ، تمضى إلى زوال .

أنوار فى أغوار المحيط

بيتروس خاريس

عاشت الجزيرة الصغيرة منسية من البشر أجمعين . نسيها أيضاً جند العدو . فى الأيام الأولى للاحتلال ، جاءوا إلى مينائها . عينوا رجلين مدججين بالسلاح للحراسة ، ما لبثا بدورهما أن انسحبا بعد قليل ، تاركين الجزيرة الصغيرة مسمرة فى مكانها بين البحر والسماء .
وقد كانت الجزيرة منسية حتى فى السنوات الطيبات أيضاً .

وفى صدد تفسير هذا العزوف عن الجزيرة ، ذهب أهلها يقولون «واضح ، أننا لسنا على طريق مطروق . لسنا على خط القتال» ولم يكن يريدون أن يفكروا فى تعليل آخر . وكيف بإمكانهم أن يفكروا فى غير هذا ؟ هل جاءهم أحد ، هل رآهم أحد ، هل تعرف بهم أحد حتى يمكن أن يكتسبوا حبه أو يسببوا نفوره ؟ سكان الجزيرة لا يزيدون على مائتين وخمسون نسمة أو ثلاثمائة على الأكثر . لم يكن هناك سوى عمدة هو أعلى السلطات ، وعامل تلغراف يحادث الريح والسحب ، ويخبر أهل الجزيرة بما يدور فى العالم البعيد ، وكأنه أشبه بساحر أو نبي .

كل ما تملكه الجزيرة من مراكب البحر مركبان ، كانا فى السنوات الهادئة يتسكعان فى المياه القريبة ، يتجران فى بعض الأشياء . وفى قليل من الأحيان كانا يبلغان ميناء بيريه ، ويجلبان من هناك بعض البضائع . لكن المركبين الآن مربوطان . وبين الحين والحين ، وقد أصبح هذا أمراً نادراً ، كانا يبحران للصيد ويعودان إلى ميناء الجزيرة سريعاً . كان البحر قفراً مهجوراً إلى حد يثير الفزع . ما من دخان ، ما من شرع ، ولا حتى جناح طائر يرفرف على مدى البصر ، كان هو البحر القديم ، الموغل فى القدم ، البحر السابق فى وجوده على وجود البشر . وحيدا ، مترامى الأطراف ، طليقاً بالنهار ، وبالليل يتبادل مع القمر ومع الظلام أحاديث كتلك التى جرت فى الساعات الأولى للخلقة بين الأشباح الخفية وقوى الطبيعة ، دون أن تلتقط أذن الإنسان من تلك الأحاديث كلمة ، مع ذلك ، فلا زال فكره يبحث لها إلى الآن عن مغزى ودلالة .

أدرك أهل الجزيرة سريعاً أنهم سيقضون زمن الحرب فى ضيق معتمدين على ما تجود به أرضهم فحسب . ولو كان بإمكانهم أن يعرفوا ماذا كان يجرى فى الأنحاء الأخرى من اليونان لباتوا راضين بذلك على أى حال .

لا شك أنهم سيقضون أياماً عجافاً محرومين من أشياء وأشياء ، لكنهم من الجوع ما كانوا سيموتون . المرض وحده كان يفرزعهم . فحتى فى أيام السلم قلما اتسع لهم الوقت كى يستعفوا من مرضاً فى خطر . كانت الباخرة التى تمر بالميناء تمر متأخرة ، والمركب كان يتأخر فى الإبحار . كانوا يتشاورون فى تكاليف العلاج الباهظة ، ولا يقدمون على

اتخاذ قرار عاجل ، فكان المريض فى مرات عديدة غير قادر على أن ينجو عند وصوله إلى مدينة من مدن الحضر الكبيرة .

هكذا ظلوا فى عرض البحر بعيداً عن الحرب بعيداً عن العمران ، فى صحبة عامل التلغراف الذى يخبرهم من وقت لآخر كم أضحى الإنسان فى الشرق والغرب وحشاً ضارياً فى جبهات القتال الكبيرة والصغيرة ، وفى رعاية الله الذى كان يتابع قرير العين أمور أهل الجزيرة فى حياتهم الهادئة ، ومع الأيام اضمحل ما للعمدة من سلطان ، وأصبح غير قادر - حتى لو أراد - على أن يرفع عقيرته بالصياح ، فلم تكن لديه القوة لذلك . كان بدوره يأكل نصيبه من الخبز القليل الذى تنتجه الجزيرة ، ولم يعد يبذل قواه فى الزعيق والتهديد . وبعد قليل ، فقد عامل التلغراف سطوته بدوره . عطل ما أصاب أجهزته ، فأغلق مكتبه ، وكف عن أن يكون الساحر أو النبي . وبذلك انقطع الخيط الوحيد الذى كان يربط الجزيرة بالجانب الآخر من العالم أيضاً . جاءت ليال ملأتها أحلام غريبة ، وأقبلت أيام تولى فيها شرح الأحلام القدامى المسنون من أهل الجزيرة ، متخذين من رموز تلك الأحلام نبوءات تشير إلى الحرب ، والمجاعة ، وإلى ما حل بالدنيا من نكبات .

بعد شهور كثيرة عاد الجنود الأغراب إلى الظهور . مكثوا بالجزيرة وقتاً قصيراً ، وقالوا القليل ، أقصد أن هذا ما أنبأنا به واحد من بنى بلدتنا سار فى إثرهم وكان يعرف لغتهم . أمراً واحداً تركوه فى الذاكرة :

- ما من ضوء بالليل ! ولا حتى سيجارة مشتعلة !

فى الفجر وصلوا ، وعند الغروب رحلوا . وما لبثت العتمة أن ابتلعت قاربهم الصغير .

سأل أهل الجزيرة العمدة الذى كان لهؤلاء الأغراب معه حديث قصير ، فلم يعرفوا منه شيئاً ، سألوا القسيس الذى ألقى عليه الأغراب تحية الصباح ، ولكن من جديد لم يعرفوا شيئاً . سألوا دون جدوى سكرتير المجلس البلدى الذى مثل أمام أولئك الأغراب معلناً أن الرئيس يلزم الفراش ولكن ما من كلمة . بأقواه مقفلة انصرفوا . ومع ذلك كانوا قد قالوا شيئاً جلالاً : إن الحرب لازالت قائمة فى البلاد .. ولا بد من أن الأمر كان كذلك أيضاً فى العالم كله ، حيثما وجدت أرض ، حيثما وجد بحر ، حيثما وجد بشر .

كانت الليالى مليئة بالأحلام ، التى تبث بالنهار الآمال فى القلوب أو تثير الرعب فيها . مضت الجزيرة تنتظر ، وتنتظر ، حتى تعودت الانتظار ، فكفت عن أن تسأل البحر الذى سمع وعرف الكثير ، ويطبق شفتيه ، فلا يدع سره يبين فى عينيه الواسعتين سواء فى حالة زرقتهما وهدوءهما ، أو فى حالة تموجهما وتحول لونهما إلى الخضرة ، أو عندما تظلمان وتسودان من شدة الغضب .

فى الشتاء كان النهار ينقضى سريعاً ، أما الليل فلم يكن له نهاية ، وحتى الأحلام لم تكن بقادرة على أن تقصر من طول تلك الليالى الشتائية ، طالما لم تكن فى ديسمبر ويناير بكافية ملء كل تلك الساعات الثقال البطيئة . أمام الميناء ومن حوله ، كانت البيوت الصغيرة فى تجمعها أشبه بتجمهر متأهب لكل ساعة صعبة . أما الميناء فكان خالياً . بضعة قوارب جذبت إلى الشط الرملى ، المركبان مربوطان وراسيان . يضعف الريح تارة ، ويشتد تارة أخرى ، يتجاذب أحاديث الود والصفاء حيناً مع البحر ، ويدب الخصام بينهما حيناً آخر ، فيستعر عراك الموج مع مركبى الجزيرة .

كانت الساعة تناهز العاشرة مساء ، وهو وقت متأخر بالنسبة لأهل الجزيرة ، فكانوا غارقين فى سباتهم ، عندما وفد إليهم الصوت المجلجل ، تلك الليلة أيقظهم جرس الكنيسة الذى مضى يدق كما لو كان يقول لهم :

— انهضوا ! اجروا ! اجروا بسرعة !

تمكن بعضهم من ارتداء ملابسهم ، وخرج البعض ولم يكمل لبسه .
جروا جميعاً ، فوجدوا شاباً قد تسلق إلى جرس الكنيسة ، وأطلق كل هذا الإنذار السائب .

— أوه ، ياله من مجنون !

كان فانجيلي «عبيط» الجزيرة لم يكن له بيت يأويه ولا ملابس مناسبة تستره . ينام تارة هنا وتارة هناك . ويحسن عليه هذا ، ويعطيه ذاك كسرة خبز يقات بها ، فتقيم أوده .

أولئك الذين وصلوا قبل غيرهم هجموا عليه ساخطين كى ينزلوه ويلقنوه أن يخلد بالليل إلى النوم الهادئ . ولكن صدهم عنه القس الذى هرول بدوره دون أن يكمل ارتداء مسوحة الكهنوتية :

— مهلكم لحظة !

وشخص ببصره عالياً إلى برج الأجراس ، وقال بلهجة أمره :

— انزل ، يا فانجيلي !

أطل «العبيط» على الذين ينتظرون عند سفح البرج غاضبين . رآهم يتزايدون برهة بعد أخرى . تردد ، لكنه ما لبث أن نزل . أبقاهم القس بيده الممدودة بعيداً .

- ماذا حدث لك ، يا فانجيلي ؟

مركب ، يا جدى ، سفين ! رأيتته بعينى ، بوضوح رأيتته ، وأطلقت الإشارة حتى يراه الآخرون أيضاً .

لم ينتظر الحاضرون دقيقة . تركوا فانجيلي وهرعوا إلى الميناء ، وقد انضم إليهم آخرون ممن هبوا من نومهم مذعورين يرتعدون من الخوف والبرد . وفى أعقابهم مضى القس وفانجيلي .

وفى الميناء اتسعت دائرة التجمع ، فقد تواجد هناك أهل القرية كلهم . دارت العيون فى المحاجر ، عيون أهل الجزر التى تعرف أن تنقب فى أرجاء الليل ، وتنش على الأخص فى ليل البحر الساجى ..

ما من نسمة سمعت ، والهدوء منبسط على البحر الذى شرعت أمواجه تهدر فى حركة فاترة ، كما لو كانت بدورها قد استيقظت على صخب الناقوس . وكان الظلام كثيفاً حتى لكنت تلاحظ أدنى ومضة ضوء تبرق على أديمه . ولكن ما من شئ ظهر ، حتى تلك الومضة لم تبد لهم ، فما بالك بسفين ، بسفين قيل إنه أضاء كل أنواره . نظر كل منهم إلى الآخر ، تأكدوا من أنهم لم يكونوا مخطئين . ثم استشاط غضبهم من جديد . لكن فانجيلي لم يكن وحده هذه المرة ، بل كان فى صحبة القس الذى يعرف أنه يتعامل مع « عبيط » مختل .

قال له بلهجة صارمة ، جامدة حتى لا تتم عن غضب :

- أين ترى السفين ؟

- ما عدت أراه الآن ، يا جدى .

- وأين رأيتَه ؟

- هناك ، يا جدى ، هناك .

أشار إلى أغوار البحر ناحية اليسار ، فى الاتجاه الذى كانت تسير فيه السفن عندما كانت تمر بالجزيرة مروراً عابراً .

دقق الجميع النظر ، حاولوا أن يميزوا فى الظلام شيئاً ما ، لكنهم من جديد عجزوا تماماً عن الرؤية . وأدرك القس أنه قد يقع مكروه فى ظلمة الليل وغمرة الغضب الذى اجتاح كل هؤلاء الناس ، فسعى إلى تبرئة فانجيلى وتبرير مسلكه أمامهم :

- هل رأيت السفينة بوضوح ، أم خيل إليك أنك تراها ؟

هل كنت مستيقظاً أم نائماً ؟

- رأيتها يا جدى . أقول لك رأيتها .

- ومن أين رأيتها ؟

- من الشباك الكبير فى المخزن .

وقد قصد فانجيلى بذلك الشباك شباك المبنى الذى تهدم نصفه حيث يقضى هذا الشتاء فى خرائبه .

- وكيف رأيت السفين فى تلك الساعة ؟ ألم تكن نائماً ؟

- لم أكن نائماً ، يا جدى .

ثم خفض صوته :

- كان الجوع يمزق أحشائي . من أول أمس لم أذق طعاماً .

لم يعد بحاجة لحماية القسيس . أخذ الناس مثنى وثلاثاً يستديرون ، يولون ظهورهم إلى البحر ، وينصرفون . كانوا يرجعون إلى رقادهم ليحلموا بالسفين الذي لم يروه من على الشط في صحوهم .

لم يمض أسبوع آخر وامتلاً الليل من جديد بصوت الجرس المجلجل . لم يغادر الجميع فراشهم ، ولكن الذين قاموا جروا ليمسكوا بفانجيلي ويحكمون وثاقة حتى لا يعود إلى إزعاجهم من جديد . إلا أنهم عندما وصلوا إلى الكنيسة ، رأوا ما لم تكن عيونهم بقادرة على أن تصدقه ، وسمعوا ما لم تقو عقولهم على فهمه .

من على البرج ، صاح فيهم خريستو ، هو شاب من خيرة العمال في البلدة ، وطيد البنيان ، رزين ، مقتصد في كلامه - صاح فيهم قائلاً :

- رأيته ! رأيته . وكان سفيناً كبيراً وضاء الأنوار ، وضاء الأنوار !

لم يكن خريستو عبيطاً مختلاً ، لكنه عندما ذهب إلى الميناء مع الذين صحوا من نومهم وجروا إلى الميناء ، ثم لم ير شيئاً ، حتى شعاعاً واحداً لم ير في الظلمة الدامسة ، كاد يفقد صوابه .

وعلق أحد الشيوخ قائلاً :

لا بد أنها عرائس البحر تمر من بعيد . هيا الآن نعود إلى أسرّتنا وننام .

على أن خريستو لم يحرك ساكناً ، ولم يخفض عينيه عن البحر وعن الظلام . ولو لم يعمد أصدقائه بكياسة إلى اصطحابه معهم بعد

قليل ، لظل هناك ، فى الظلمة الكبيرة ، حتى الصباح . لقد رأى السفين كان مستعداً أن يقسم على ذلك ، وأن يضع يده فى النار لقاء قسمه . فى حضور الآخرين اختفى السفين من أمامه . ما عاد يرى شيئاً . لم يكن بقادر على أن يذكر لهم أين رآه ، على وجه التحديد .

فى الصباح ، أدرك خريستو أن القرية غيرت رأيها فيه ، وصارت تنظر إليه بنظرات مختلفة عن ذى قبل . فانجلى خيل له أنه يرى فصعد إلى البرج ، ومضى يدق الجرس ، مقبول هذا ، أما هو فيصعد ، ويدق الجرس بدوره ؟! هذا ما كان لا يطيق خريستو أن يتصوره عن نفسه طويلاً ، إلا أنه قبل أن تمضى عشرة أيام ، أنقذه أفغوستوس ، ورد إليه اعتباره ، فقد صعد بدوره إلى البرج ، ودق الجرس عند منتصف الليل وفى صميم الليل الوعر . استيقظ الجميع من جديد ، ولكن قليلين هرعوا هذه المرة . وركب العناد أفغوستوس فلم يغادر الشاطئ حتى الصباح . لقد رأى السفين ، ولم يكن هذا السفين يمر من بعيد ، كان قادماً إلى الجزيرة ، متجهاً إلى مينائها رأساً .

لم يكن فى الجزيرة عبيط غير فانجيلى . لم يكن ثمة أشباح أو جنيات . وكان السفين أول شبح يؤرق بال أهل الجزيرة ، ويقلق نومهم . فكروا أن يراقبوا الميناء ، ويطردوا الأرواح الشريرة من شواطئهم . قالوا بأن يلقوا ماء مقدساً فى البحر ليقصى شبح ذلك السفين بعيداً ، بعيداً جداً ، إلى بحار أخرى . قالوا ذلك ، ولكنهم تشاوروا فى الأمر وترددوا . ما خطب هذا المركب ، وما الذى يجعلهم يرهّبونه ؟

- على ظهر سفين ، سفين من سفن أسطولنا ستكون مصابيحه مضاءة كلها ، لو كان الوقت ليلاً ، على مثل هذا السفين ، ألن تأتى الحرية ؟

هذا ما قاله القس ، وصدق عليه العمدة . فهدأ روع الجزيرة .
وحتى في الليالى التى كان يدق فيها جرس الكنيسة لم تعد القلوب
تضطرب . ولم تكن هذه الليالى بالثقيلة ، على أى حال . فبعد
أفغوستوس صعد إلى البرج ثمانية عشر آخرون من شبان القرية
وشيوخها لم يكونوا مختلى العقل ، بل على العكس كانوا على غاية من
النصاحة . وكانوا قد رأوا السفين رؤية واضحة تماماً ، وكان بإمكانهم
أن يخبروك كم عدد مصابيحه المضاءة ، وإلى أين كان اتجاهه .

مرت شهور العبودية ، ومن بعدها مرت سنوات . وبقيت الجزيرة
منسية من الجنود الأجانب ، بل ومن سائر البشر . ولم يكف جرس
البرج عن الرنين في ليالى الشتاء والصيف ، في ليالى الربيع والخريف .
كان السفين يظهر لأهل الجزيرة فرادى ، فإذا تجمعوا اختفى من
أمامهم فلا يبين ، لكنهم كانوا يعرفون أنه في يوم من الأيام أو في ليلة
من الليالى سيرونه جميعاً معاً . سيرون السفين ، وكانوا ينتظرون ..

عندما يهبط الليل

بيتروس خاريس

فى الظلام لفهما التسيان ، وما عادا يريان الخواء من حولهما .
انتظرها عند باب المكتب . تبعته دون تردد . كانت تلك هى الساعة التى
تبدأ فيها حياة أخرى فى أثينا المكبلة بأغلال الأسر . ينادى فى البوق
بآخر الأنباء التى لم يتسن للصحف نشرها ولا للمذيعات إعلانها .
يستأنف الشباب ، فتية وفتيات ، عملياتهم الخطرة ، ينتشرون فى
الشوارع الكبيرة والصغيرة كى يخطوا على الحوائط إشارة أو تهديداً ،
وكان الجندي الأجنبي أيضاً يحمل سلاحه ويجوب الشوارع ذاتها ،
متعقباً البشر الذين يضحون أشباحاً ، ويلعبون به كل ليلة ألعيب
لا يصدقها العقل ، ويجعلونه فى الصباح يدعك عينيه فى دهشة . الناس
ظلال هنا ، ظلال هناك ، كلهم مسرعو الخطا . وإذا تبينت اثنين معاً ،
رجلاً وامرأة ، أو فتى وفتاة ، فستجدهما يسيران جنباً إلى جنب ،
متلاصقين ، ولن تعرف أياكون هذا حباً أم أنه بسبب الحرب .

قالت الفتاة ، وهى تزداد التصاقاً به :

– خيل لى أن الساعة متأخرة جداً . فات الوقت .

سألها :

- هل تخافين ؟

- فى البيت ، لن ينتظرونى قبل التاسعة . رتبت الأمر ، لكن ...

وجالت ببصرها فى الخواء من حولها . لم يكن الشارع ، حتى بالنهار ، أهلاً بالمارة . كان حياً هادئاً ، لا يزيد ارتفاع بيوته عن ثلاثة طوابق ، النوافذ رحيبة ، والأبواب الخارجية كبيرة تتسع لاثنتين يعبرانها معا . توقفت الفتاة كما لو كان قد نال منها التعب ، وراحت تستند إلى الحائط المجاور لها . أدركتها ذراعه بسرعة . أمسك بها ، وجذبها . أصوات جهورية ، ونباح كلاب ، أصوات أجنبية ، وفدت من ناصية الشارع ، وضوء قوى راح يقترب ، ووقع أحذية ضخمة ثقيلة غاضبة تنقض عليهما . كانا على بعد خطوتين من ركن الشارع ، خطوتين حاسمتين ، تقتضيان قراراً قاطعاً . دفعها ، ودخل بها الشارع الآخر . ثم دفعها من جديد ، دفعة أشد ، إلى باب مفتوح . وجدا نفسيهما فى فناء صغير مظلم ، وفى أغواره تبينا سلماً من ثلاث درجات ، وباباً آخر ، جريا ، دقا الباب ، ونادا برجاء :

- افتحوا ، بالله نستحلفكم !

ألحت الفتاة فى الرجاء ، كان صوتها النسائى أقل إثارة للرعب فى الليل ، على الأخص ، فى ليل مدينة مكبلة بأغلال الأسر .

انفتح الباب ، بدت امرأة نحيلة طويلة لم يكن بالإمكان أن تجزم توأ عما إذا كانت شابة أم عجوزاً ، دلفا إلى الداخل ، وقفوا صامتين ، مبهورى الأنفاس ، كما لو كانا قد أمضيا ساعات فى الجرى .. لم يكن

البقاء بالخارج ممكننا . سمعت الأصوات الأجنبية ووقع الأحذية الضخمة الغاضبة تفد من الشارع . مضت قدما مبتعدة ثم ما لبثت أن عادت أدراجها ، اعتزمت الانصراف من حيث أتت ومع ذلك ظلت فى مكانها مسوعة . كان البيت أرضياً ، وترتفع نوافذه عن الرصيف مسافة قامة . أرهاقا السمع ، وأنصتا إلى كل ما كان يجرى .

تبادلا النظرات ، ثم تلاقت عيون ثلاثتهم . لم ينبسوا بكلمة . خلع الشاب قبعته ، وخطا خطوة أخرى إلى الداخل . كان عليهم أن يتحاشوا التأخير . خلع معطفه ، وعلقه ، وأخذ معطف الفتاة أيضاً ، وأوماً إليهما أن يجلسا . كان من الضروري أن يبدوا أصدقاء ، كان يجب أن يصبحوا أصدقاء .

كانت الأصوات الأجنبية لا تزال خارج البيت ، فى الليلة الشتائية ، التى وإن لم تكن قارسة البرد أو عاصفة الريح ، إلا أن أولئك الأغراب جعلوا منها ليلة ضارية ، تحت جناح ظلامها ، ظلام الحرب الدامس . وكان مما يزيد ضراوتها ذلك الغضب البادى منهم ، وتلك الأصابع الأربعة أو الخمسة ، كل منها متأهب للضغط على زناد بندقيته . وقد كانوا ينشرون ويفتشون ، يمضون قدماً ، ثم يعودون أدراجهم من جديد فى إثر الكلب الذى كان قد اشتتم شيئاً ، فأخذ يغدو ويروح ، يقفز إلى الأمام قفزة وإلى الخلف قفزتين .

قال الشاب متوسلاً :

— كوتشينة ، بسرعة ، كوتشينة .

وتصرف كما لو كان البيت بيته . وضع مقاعد حول منضدة كانت فى وسط الغرفة. أخلى المنضدة مما عليها ، وأجلس الفتاة قبالة ، وعندما أحضرت الكوتشينة ، شرع يوزع أوراقها حتى قبل أن تستقر ربة البيت فى جلستها . لم يكن من الصعب أن يفهموا . كان من المفترض أنهم بدأوا اللعب منذ وقت طويل . أن يكون للبعض مكاسبه وللآخر خسائره ، أن يكونوا منكبين على أوراقهم ، فلا يسمعون شيئاً ، ولا حتى الصياح والتهديد الذى يملأ ظلام الشارع . فإذا دفعت الأحذية الثقيلة الغاضبة الباب الخارجى ، ومن بعده الباب الداخلى ، وانقضت على البيت فى هجمة استطلاعية ، فقد لا يثور الشك وتعود من حيث أتت ، إذا لم تجد سوى جلسة ودية مقضاة فى لعب الورق .

مضوا يلعبون ، ولا يتفوهون بكلمة ، يلقون أوراقاً متبعين نظام لعبة يعرفها الثلاثة ، ويجهلها الثلاثة ، ولم يرتكب أحدهم خطأ واحداً ، أو يأتى هنة واحدة ، كما لو كانوا يرجون نفعاً كبيراً من لعبهم . ومع ذلك ، فقد كان لازال خطر انفصاح سرهم قائماً . بماذا يلعبون ؟ أين النقود ؟ أين الفيشات ؟ لم يكن بالبيت سوى هذه الكوتشينة ، ولم تكن من الصنف الذى يلعب به القمار ، كانت من الصنف المزوق القديم ، استهلكت وعلا أوراقها الاصفرار . ولا شىء غير ذلك .

طلب الشاب :

- قليل من حبات الفاصوليا ، أو اللوبيا ، أو أى شىء عندكم .

جلبت سيدة البيت طبقاً ضحلاً به حبات من الفول الجاف ، وبدأوا اللعب من جديد . اقتسموا حبات الفول . وضع كل منهم ثلاث أو أربع

حبات وسط المتضدة . صار الجو أكثر أماناً ، لكن اللعب لم يدم طويلاً .
هدأ الشارع ، وسمعت الأصوات بعد قليل من بعيد . ومضى الليل فى
طريقه قدماً بخطا صامتة . كانوا قد نجوا .

نهض الشاب من مقعده . كان عليه أن يقدم إيضاحاً :

– يورغوس رئيس طالب بكلية الطب .

وهم أن يعرفها بالفتاة . لكن حنكة سيدة البيت التى صارت بادية
الآن بجلاء أكبر فى تجاعيد وجهها ، منعتة من ذلك .

خل عنك . إنى أفهم . تعطلت عن الأوية إلى بيتها .

– ربما لا تفهمين ، ربما لا تتصورين ، ما الذى حدث لنا على
وجه الدقة .

كان الثلاثة قد هدأوا الآن . وكانوا أشبه بممثلين فرغوا من أداء
مشهد صامت صعب .

أردف الشاب يقول :

– نزهة يسيرة ، كدنا ندفع ثمنها غالياً جداً . كان التعب قد نال
من هيلينى ، فهمت أن تستند إلى الحائط عند ناصية الشارع ، ظنوا
أننا من أولئك الذين نكتب على الجدران ، فطاردوننا . من حسن الحظ
أنهم لم يطلقوا النار علينا توأ .

نظرت الفتاة إلى ساعتها :

- العاشرة إلا ربعا . بإمكاننا أن نعود إلى البيت قبل حلول ميعاد
حظر التجول . ينتهى التجول فى الحادية عشرة . لازل أمامهما وقت .
ولكن من كان متأكداً أن الخروج آمن ، ومن الذى يمكن أن يقول إن
الكلب الذى اشتم شيئاً لا يحوم حول البيت منتظراً ؟

كان الشاب قد استرد هدوءه تماماً ، وتذكر أن عليه أن يبدو
سيداً ، قال :

- فلنشكر السيدة أولاً ، وبعد ذلك سوف نرى .

وقالت هيلينى :

- حقا سامحينا . دخلنا بيتك على نحو جد مفاجئ ، مثل
لصوص ، مثل قتلة مطاردين .

- اجلسا من فضلكما ، سأحضر لكما كوباً من الماء ، كى تستردا
أنفاسكما ... ألقىت هيلينى بنفسها على أريكة لم يكن يبدو عليها قوة
الاحتمال . ظل يورغوس واقفاً . جاس فى أرجاء المكان بخطوات
صغيرة ، ملقياً نظرات سريعة فى كل الأنحاء ، محاولاً أن يتبين أى بيت
هذا الذى وجد فيه ملاذاً . رأى غرفتين يتألف منهما البيت فضلاً عن
المطبخ . غرفة الجلوس ، حيث أديا منذ هنيهة مشهدهم التمثيلى ، وإلى
جوارها غرفة النوم ، لم يكن يبدو منها الكثير بسبب بابها الموارب .
لم يكن المكان ينم عن فقر ولا عن ثراء . أثاث قديم ، منهك ، ربما كان منذ
عدة سنوات مضت جهاز صبية على أهبة الزواج ، تُعدُّ ماسوف يكون
أثاث بيتها المرتقب ، وتنتظر عريساً لم يأت ، وسعادة لم تتحقق .
منضدة ، وبضعة كراس ، ومقعد كبير وأريكة صغيرة . وصورتان على

الحائطين المواجهين يبين منهما على وجه التحديد العهد الذى يرجع إليه البيت وينتمى له أهله . كانتا صورتين للأب والأم فى ذروة حياتهما . رجل مسن ذو ياقة منشأة وشارب ضخ ، وسيدة ذات شعر أبيض غارقة فى ثوب مرتفع العنق . شخصان من جيل الحرب البلقانية ، تسود السكينة وجهيهما ، وتبدو الثقة فى نظراتهما ، وتغلف هيئتيهما تلك البساطة التى يبعثها فى النفس دوام الثراء واطراد النعمة .

لم يتسن ليورغوس أن يرى أكثر من ذلك ، لكنه لمح توأ البساطة ذاتها فى حركات سيدة البيت وخطواتها ، وقد عادت تحمل بين يديها صينية ، وقدمت لهما لوزاً ومستكة وماء .

هرع يورغوس لمساعدتها قائلاً :

- ضعها هنا ، من فضلك .

وأخلى لها جانباً من المنضدة التى كانت لاتزال مغطاة بورق اللعب .

اقتربت هيلينى بدورها . أكلت لوزاً ومستكة وشربا ماء ، لكنهما لم يجدا من الوقت فسحة ليعبرا عن امتنانهما . عادت الأصوات إلى الشارع ، وعادت الأحذية الثقيلة ، ومن جديد عاد النباح . فى هذه المرة ، زاد عدد الأحذية الثقيلة ، وزاد غضبها اشتداداً ، كما سمعت أصوات أناس يجرون ، ثم ثلاث أو أربع طلقات رصاص .

تبادل ثلاثتهم نظرات خائفة . خطا الشاب نحو النافذة ، ومد يده ليزيح الستار . منعته سيدة البيت قائلة :

- بالله ، لا تفعل ذلك !

ظلموا واقفين متسمرين فى أماكنهم ، وكلهم أذان صاغية . ترى ما الذى حدث ؟ من الذين يطاردون ؟ خلا الشارع من الأصوات مرة أخرى . لكن ما من أحد أطل من بابه أو من نافذته يسأل ويستوضح ، كما لو لم يكن قد حدث شيء ، كما لو لم يكونوا قد سمعوا شيئاً ، ولا حتى صرخة أطلقت .

عندما انقضت موجة الرعب هذه بدورها ، نظرت الفتاة إلى ساعتها ، وسألت بعينين واسعتين ملؤهما الهلع .

- والآن ؟ ...

كانت الساعة الحادية عشرة إلا ربعا .

- كيف سأعود إلى البيت ؟ كيف .. أه يا إلهى ، أمى ستجن ..

فقدت هدوءها ، راحت تجول فى خطوات مضطربة ، تمضى إلى باب الخروج ، تقف ، تتنحى عنه . مدت يدها إلى ذراع يورغوس ، نظرت إلى ساعته ، زادت يأساً :

- إلا عشرًا !

لم ينبس الشاب ببنت شفة . بعد قليل اتخذ قراره ، كى يضع حداً لقلق هيلينى ، سأل :

- ألا يوجد تليفون قريباً من هنا ، بالطابق العلوى ، أو بيت مجاور ؟

زادت الإجابة من حالة اليأس ، ولكنها عجلت من القرار . صوب الشاب نظراته إلى عيني سيدة البيت ، كان يستعطفها دون أن يقول

كلمة ، دون إصرار ، راح يتطلع إليها وينتظر . أما هيلينى فكانت على وشك الانهيار . لملت ما كانت قد تركته من حاجياتها على المقعد ، وصاحت :

– سأدرك الميعاد !

أمسكت بها سيدة البيت :

– لم يعد بإمكانك الانصراف . اجلسى . اهدئى . ستقضىان الليلة هنا . بسطت ذراعها على كتف الفتاة ، وربتت عليها كما لو كانت أمًا ، أو أختًا أكبر . ودون أن يكون صوتها صوت امرأة عجوز ، أفعم بنبرة نصيح وحنان .

تابع الشاب الحديث ، لم يكن يعرف ماذا يقول . لم يكن يجرؤ . كان قد استبقاها طويلاً فى نزهة هذه الأمسية ، فأحس شعوراً بالذنب يعذبه . وفد صوت مصدراً حكماً نهائياً . ساعة حائط بالدور العلوى تدق معلنة الوقت ، دقة بعد دقة ، بوضوح ، وحزم . الحادية عشرة . أغلقت الأبواب كلها ، عاد الجميع إلى بيوتهم . وخلت المدينة ، شوارعها ، ميادينها ، محالها ، محطاتها ، كلها أضحت من الناس خالية .

احتاج الأمر أن يفوت وقت طويل كي تدرك هيلينى أنها حبيسة البيت المجهول . كان عليها أن تصبر صبراً كثيراً طوال ساعات قليلة ، عندما يأتى الصباح ، فى السادسة ، سوف يفتح الباب ، سوف تجرى إلى بيتها ، وتلقى بنفسها بين أحضان أمها ، لن يوجه إليها أحد أدنى لائمة ، سوف يسرون لعودتها إلى جوارهم . ولن تخبرهم بسائر الأمور

الأخرى إلا بعد أن تبعتها الأم عن حضنها ، وتكفكف الدموع . ولكن ترى هل ستحتمل الأم غيابها حتى الصباح ؟ لابد أن النواح قد بدأ فى بيتها منذ التاسعة ، أو التاسعة والنصف ، أو العاشرة . فكيف ستطول المعاناة حتى السادسة صباحاً ؟ .. هل سيحتمل القلب العجوز ؟ ستقضى الأم ساعات تذرف دموعها وتطلق آهات ، ستمضى الليلة كلها فى نحيب ونواح .

– تعالى ، الآن ، لتصلحى من هندامك .

واصطحبتها إلى الغرفة المجاورة .

راح يورغوس يجوب غرفة الجلوس الصغيرة . كان يرى خطاه ، ويفكر فى أهل بيته أيضاً ، لكن عقله كان يعود إلى مسئوليته عن هيلينى ، فلم يكن يسمع تنهدات أمه هو ، وبعد قليل صفا ذهنه . فى النهاية ، آخرون يلقون متاعب أسوأ بكثير فى هذه الآونة ، بل وآخرون يفقدون حياتهم أيضاً . إنها ليلة واحدة وستنقضى .

أجل ، ستنقضى . ولكن كيف ستنقضى . ؟ بالبيت غرفتان ، وهم ثلاثة . وليس هناك سوى سرير واحد . ومن ثم ، مع من سيقضى الليلة؟ سيدة البيت . هل هى متزوجة ، أرملة ، مطلقة ، أنسة ؟ حاول أن يستنتج حالتها . كانت فارعة الطول نحيلة . بشعر رأسها خصلات سوداء قليلة ، وتكسو وجهها تجاعيد كثيرة . فى لحظات المعاناة حدق فى عينيها . أجل ، أجل ، هاتان العينان ، زرقاوان ، متعبتان ، مثقلتان . ربما كانت هاتان العينان جميلتين فى وقت من الأوقات . لكن أنفها كان الآن ، ومنذ عشر سنوات أو عشرين سنة . أو خمسين سنة ، أنفها كان ضخماً ، وكان فمها أيضاً واسعاً دون شفيتين تقريباً . يحد الفم خطان

باهتا الحمرة ، وما كان بالإمكان اعتباره ثغراً نسائياً دافئاً . جمع كل هذه التفاصيل ، وألف بينهما سريعاً . وضعها أمامه ، كما يلتقط المصور الخطوط الأولى لبورتريه ، وانتابه الخوف . ترى ، هل تعلم ما خطر بباله ؟ لم يجرؤ أن ينطق بالكلمة ، لم يكن بقادر على أن يقصى عنه فكره . أواه ، يا إلهي ! أين قدر لهما أن وجدا ! وكيف سيقضيان ليلتهما هناك ، فى صحبتها ، بالقرب من هذه المرأة .

عادت هيلينى وحدها ، كانت أكثر هدوءاً ، وبدا فى عينيها أن لديها ما تريد أن تكشف عن سره . عاجلها يورغورس قائلاً :

- فهمت .

- ماذا فهمت ؟

- إنها عانس .

- أجل ، مسكينة . لكن كيف عرفت ذلك ؟

ظلت عانساً ، تعيش على معاشها من والدها ، ولا تخطو خطوة خارج البيت . ولابد أنها كابدت شدة الحرمان كثيراً ، كى تقرر إيواء رجل ليلة بأكملها تحت سقف بيتها . ولكن كانت هناك الفتاة ، مما كان يجعل القرار أشد صعوبة . كيف ستقضى الفتاة ليلتها ؟ معها ؟ أم معه ؟ فى غرفة نومها أم فى غرفة الجلوس ؟ ولكن كيف يمكن أيضاً أن يمضى عاشقان شابان فى غرفة جلوسها الليلة بطولها ، الليلة بساعاتها كلها ؟

عندما ظهرت عند الباب محملة ، كانت مستغرقة فى التفكير . عاونتها هيلينى فى بسط غطاء المتضدة ، وفى وضع صحاف وملاعق لثلاثة أشخاص ، ليتناولوا عشاء خفيفاً .

قالت متحرجة :

- هذا هو الموجود .

قليل من العيش . وصحنان من البقول ، وسمكة مقددة . ولا شيء
غير ذلك . اقتسموا الطعام ، اقتسموا أيضاً الصمت الذى خيم عليهم ،
الصمت الذى تجلبه الأفكار الدائرة بخلدهم ذاتها ، والشكوك ذاتها أيضاً .
فرغوا من العشاء سريعاً . ونهضوا من المائدة .

لم يكن يورغوس بقادر على أن يواصل الصمت . أراد أن يقول شيئاً :
- ضايقتك كثيراً .

أجابت سيدة البيت بصوت جاف :

- أوه ، لا شيء . بشر نحن ...

ثم عاود يورغوس السؤال بعد قليل بلهجة تنضح بالاحترام ،
بالاحترام الذى نظهره لمن هم أكبر منا ، للمسنين :

هل أستطيع أن أدخن ؟

جرحها هذا السؤال فى أعماقها . نظرت إلى عينيه طويلاً ،
بصرامة قد تكون انعكاسات لألم غير محتمل . أفصحت له عن فهمها
أنه يتحدث الآن إلى عانس .

قالت له بصوت خافت :

- تستطيع ...

منذ تلك اللحظة أضحت الليلة أشد صعوبة . البيت اقتسموه كما ارتأت صاحبته . قالت لهما تحية المساء ودخلت غرفة نومها . أغلقت الباب . لكنها لم توصله . أدركت أنه ليس بإمكانها أن تفرق بينهما ، فتركتهما فى غرفة الجلوس ، بإيماءة ذات مغزى حصيف . وضعت وسادة وغطاء على الأريكة ، ووضعت وسادة أخرى وغطاء آخر على المقعد الكبير . لم يكن فى متناولها أن تفعل غير ذلك .

وبدأت فى غرفة الجلوس الصغيرة الساعات التى بدلاً من أن يسودها الصمت ، أضحت أغنية حب ، بدأ الليل الآخر الذى نسى العبودية ، ومعاناة البيتين اللذين ينوح أهلها الآن ، والمرأة التى لم تعرف الحب ولكنها تسمعه على مقربة منها ، يهمس ، ويتنهد ولا يعمل حساباً للخطر والرعب والموت .

رأى الشابان الوسادتىن والغطائىن ، ولكن لم يكن بإمكانهما أن يحترما الإيماءة الحصيفة . رقدا على الأريكة وبقيتا متلاصقين . بعد ساعة ونصف فحسب ، سألت هيلينى :

– هل تعتقد أنها تسمعنا ؟

وحاولت هيلينى أن تصيخ السمع فى السكون لكل جلبة ، ولكل حركة . حاولت كثيراً أن تسمع شيئاً .. ثم همست تقول من جديد :

– ربما سمعتنا .

وافقها يورغوس قائلاً :

– ربما ...

لكنه لم يرخ ذراعيه عن هيلينى ، لم يتركها تخرج من حضنه .

بعد قليل ، عادت هيلينى تقلق :

– ليس هذا لائقاً .

همس يورغوس بدوره قائلاً :

– ليس لائقاً .

ولكنهما لم يحركا ساكناً . لم يبديا ندماً . بقيا هناك ، بقيا معاً ، حتى سمعت من الطابق العلوى ، الساعة تدق ست دقائق . وعلى مقربة منهما ، امرأة تسمع أغنية حبهما ، ويستعر جسدها . تسمع ، وتدفن رأسها تحت الأغنية تسمع ولا تريد للأغنية أن تنتهى ، تسمع وربما كانت تبكى ...

فى الخارج ، أخذ النهار يشرق . ولكن احتياطات الإظلام المفروضة لم تكن تترك الضوء يدخل .

نهضوا . رتبا الأريكة ، أحدثا فى غطاء المقعد ما يوحى باستعمالهما . شرعاً يتجازبان أطراف الحديث ، ويتجولان فى أرجاء الغرفة .

لم تتأخر سيدة البيت عن الظهور . وجدتهما يتعجلان الانصراف لم تشأ أن تعوقهما خجلت أن ترفع نظراتها إلى عيونهما ، رجتهما فحسب ألا ينصرفا معا .

- اغسلا وجهيكما ، ثم فليخرج أحكما وحده أولاً ثم ليليه الآخر
بعد قليل . لا تعرفان ما إذا كان ثمة من يراقب المكان فى الخارج .

لم تكن تقول الصدق . يعرف الجيران أنها تمضى ليالها وحيدة ،
ولذلك ما كانت تريد أن يروا الشابين يخرجان معاً من عندها .

انصرف يورغوس أولاً . شكر سيدة البيت بحرارة ، لكنه
لم يستطيع بدوره أن ينظر طويلاً إلى عينيها .

قال لهيلينى :

- سأنتظرك عند أول محطة .

وعندما انصرفت هيلينى بدورها بعد قليل ، عانقت سيدة البيت ،
وقبلتها ، قائلة دون أن تتبين الجرح الذى تشقه :

- لن أنسى أبداً هذه الغرفة ، ولا هذه الليلة ...

فى الخارج ، بدأ النهار بهدوء ونظام ، مثل كل أيام العبودية ، التى
لم تكن تبين شيئاً من كل ما كان يحدث بالليل ، تحت جناح الظلام ، من
مطاردات وحشية للبشر . وعندما وصلت هيلينى إلى يورغوس كان يمر
أول ترام صباحى . بقفزة واحدة ركبا ، وجدا نفسيهما على الأرض ،
فى الدنيا .

قال لها يورغوس :

- يالهول ما جرى لنا !

وانفجر فى الضحك .

قالت هيليني بدورها :

- صدقت ، يا لهول ما جرى لنا !

ولكنها بدت حزينة ، حزينة جداً .

وبعد هنيهة ، هممت بحزن أشد :

- لم نخبرنا حتى عن اسمها ..

رسالة من غريق

فاسيلى روتاس

نزل الإله إلى الأرض ، إله البحر ، هيج البحر ، وبث الرعب فى البلاد ليل نهار . انفكت الريح من عقالها ، مضت تطارد السفن والناس والدواب . تقطع الشجر ، وتتوغل داخل البيوت مزمجرة . ثم أخذت سحب الشمال السوداء تتبدد . ولم تعد الأمواج تلاطم وتلول ، إلا عندما يبسط الليل جناحيه مثل طائر النورس .

وقد وجد أول الناس الذين خرجوا إلى الشاطئ فى الفجر، الغريق ملقى بين الأغصان والطحالب . كانت الأمواج قد تقيأته ، ولا زالت تتجشأ وتلفظ رغوّة بيضاء . كان الغريب يرقد غائباً عن الوعي يحتضن النفائات من تحته ، وقد تحلل جسده وتشوه من فرط ما لقيه من أهوال .

إن غريقاً على الشاطئ عند قرية صغيرة يثير بين الناس اضطراباً كبيراً ، فسرعان ما يعلم الجميع بالنبأ ، فيلتقون حول الجثة يحذوهم الفضول ، ويخيم عليهم الحزن وإحساس بالمشاركة فى المصاب . كان الغريق رجلاً فى منتصف العمر ، لكن أمواج البحر كانت قد تقاذفته طويلاً ، وألقت به خارجاً بعد أن أفسدت هيئته ، فلم يعد من السهل تبين

شخصيته ، وشطح خيال القرويين بعيداً للتعرف على شكل الغريق وعمره وعلاقاته الاجتماعية .

ولما كان الحزن معششاً في القلوب ، كلُّ أصابه دمار أو جوع بسبب الحرب التي لم تترك بيتاً لم تشعل النار في أعماقه ، بل مضت تهدد بكوارث أفظع ، فقد رأت عيون الحاضرين من خلال خيالاتها السوداء الجثة المجهولة التي استقرت عليها الأنظار ، رأتها بين الطحالب منتفخة مفككة الأوصال ، لا تحكُّ لها على حركاتها مثل سكير عرييد بلا حياة ، رأتها كما لو كانت تلعن الحياة ، وتصب أيضاً غضبها على السماء ناصعة الزرقة التي احتضنتها شمس أبريل الوضاعة تطلّيتها بالذهب البراق ، رأتها تسب البحر الذي تهادى على الشاطئ متهاكاً مغشياً عليه ، والنسمات النازلة من القمم الصخرية والسفوح الخضراء معطرة بأريج الزعتر والبنفسج البري ، وتسب أيضاً الطيور المفردة في الفضاء الرائق ، والناس الذين يتفرسون فيه بوجوههم المنكبة عليه وعيونهم القلقة الخائفة من حوله .

وفي النهاية جاء الحارس . أفسح له الجميع الطريق ، فمضى متقدماً . تفحص الجثة بنظرات حذرة أول الأمر ، من الرأس المنكفئة إلى الساقين الرخوتين . ثم أمر أن يقلبوها على جانبها الآخر ، فبدت سترة الغريق تشبه رداءً عسكرياً .

قال الحارس : « كان جندياً ، إذن » .

تنهد الرجال ، أما النسوة الواقفات من خلفهم فقد ندت منهن زفرات حارة .

أصدر الحارس أمره من جديد : « فتشوا جيوبه » .

شرع القرويان اللذان جرؤا على أن يمدا أيديهما إلى الفريق ،
يفكان أزراره ويدسان أيديهما فى جيوبه ، ويخرجان منها أشياء
يناولانها للحارس .

قال أحدهما ، وهو يفك ساعة من معصم الفريق : « ها هى
ساعته » .

عاودت النسوة النحيب ، لكن الرجال والصبيان ضحكوا لأن ذلك
الذى فك الساعة - قبل أن يدسها فى يد الحارس الممدودة - وضعها
على أذنه ليرى ما إذا كانت لاتزال تعمل .

سأل أحد القرويين محب للمزاح : « كم الوقت حتى نضبط ساعاتنا ؟ » .

ولقيت مزحته فى النفوس صدى ، فضج الحاضرون بالضحك .
لكن الكآبة ما لبثت أن عادت تسيطر خانقة الضحك فى الحلق ، كما
خنق البحر الرجل المسجى على الأرض وخلفه غير قادر على أن يمنع
أيدى القرين الخشنة من أن تمتد إلى جيوبه .

وسرعان ما امتلأت راحتا الحارس بالأشياء ، الساعة ، ثم مطواة ،
ومنديل ، وورقة مطوية ، وقلم ، ومشط ، وحافظة منتفخة مثل صاحبها ،
تهرأت ثنياتهما ، ولاحت منها ما بداخلها من أوراق ونقود ، وأخيراً لفافة
من الخطابات .

وضع الحارس هذه الأشياء فى جعبة فارغة معلقة إلى جنبه ،
واستبقى الأوراق وحدها حتى يفحصها ، بحثاً عن بطاقة الفريق . ثم
قلب الخطابات المبتلة وقرأ فيها بصوت عال : « عزيزتى هيلينيتسا »

عاد صاحب النكات يقول صائحاً : «خطاب إلى حبيبته !»
وضحك الصبيان .

فض الحارس رسالة أخرى ، قرأ من جديد : «عزيزتى هيلينيتسا ...»
ثم انتقل إلى رسالة ثالثة ورابعة فكانت كلها تبدأ :
«بعزيزتى هيلينيتسا ...»

ابتدره البعض قائلاً : «اقرأ ما هو مكتوب بعد ذلك ...»

أمسك الحارس بالخطاب الأخير ليقراه ، وقد استبد الفضول به
كما استبد بالجميع . كان كل من الحاضرين رسم لنفسه فى خضم هذا
الغموض المحوط باسم هيلينيتسا ، صورة مختلفة لها . تصورها البعض
عشيقة ، وتصورها البعض زوجة شرعية ، تصورها البعض ضخمة
بدينة وتصورها البعض صغيرة نحيلة . كل منهم تصورها من خلال
مزاجه الخاص وتجربته الخاصة .

قرأ الحارس حتى آخر كلمة وبصوت عال الخطاب التالى :

« عزيزتى هيلينيتسا ، كتبت إليك خطابات عديدة ، يابنيتى ، كل
يوم أكتب إليك دون أن أرسل شيئاً مما كتبت . لم يتسن لى ذلك وقد
فقدت كل أمل فى إرسالها إليك الآن ، لأننى وقعت فى الأسر . ولكن
هأنذا أعاود الكتابة إليك رغم ذلك ، وعلى آخر ورقة معى ، فربما وجدت
فرصة ما . وضعونا الآن على سفينة ستحملنا إلى بلادهم . هكذا يقول
كثيرون ، لكن ما من أحد يعرف إلى أين نبحر على وجه اليقين . تأتى
الطائرات تباعاً . تحلق فوقنا ، وتمطرنا وابلاً من قذائفها . قلوبنا

مضطربة على الدوام ، فبين لحظة وأخرى سيبتلعنا اليم ونفارق ، إننا نرى اليابسة تبتعد رويداً رويداً وتختفى من أمام عيوننا . ابنتى هيلينيتسا فكرى معك ، وقد تركت فى البيت وحدك ، ترعين كأم إخوتك ولازلت صغيرة . منذ اليوم الذى تلقيت خطابك المير الذى أبلغتنى فيه وفاة أمك ، أصبحت أفكر فىك ليل نهار وأبكى . كنا قد عدنا توأماً من المعركة ، وكنت لا أزال حياً ، ولم يمسنى سوء . كنت أكل لقمتى راضياً عندما جاء ، يا ابنتى ، خطابك ينعى إلى النبأ الأسود الذى جرحنى ، وأدمى فؤادى . فضلت أن يكون الموت قد اختطفنى أنا - مثلما اختطف الكثيرين من رفاقنا وأبناء بلدتنا - بدلاً من أن يختطف أمك . تمنيت أن يكون الموت من نصيبى أنا ، فقد كانت لازمة لك وإخوتك الذين لازالوا صغاراً . لعمرى كيف سيعيشون من بعدها . كتبت لى ، يا ابنتى ، أن أشد عزمى فانفطر قلبى ، لأنك تطلبين منى - أنت الفتاة الصغيرة العزلاء - أن أتشجع وأتعزى . أى بنيتى ، ارعى إخوتك ، وكونى لهم أمّاً رعوماً . لا تمدى يدك مستجدية إلى أحد على حدة ، بل اطلبى العون من القرية جماعة . لا تثقى يا بنيتى بالقسيس ولا بالعمدة ، ولا تركنى إلى أحد منهما منفرداً طالبة النجدة ، بل عليك أن تقفى يا ابنتى وسط الجميع فى الكنيسة واصرخى بألك .. اجمعى إخوتك الصغار كلهم من حولك ، وصيحوا جميعاً قائلين : يا أهل البلد ، ماتت أمنا ، أبونا حمل سلاحه ومضى إلى ساحة القتال . نحن خمسة من الأيتام . على القرية أن ترعانا ، فنحن منها ، وها نحن بينكم . لا أجد فى غمرة يأسى سواك يا بنيتى ، يا من أثبت أنك ناضجة العقل رحيمة القلب ، أنت الدعامة الوحيدة التى أسند إليها فؤادى ، أنت النور الوحيد فى الظلمة التى تحيط بى . حاربى يا ابنتى وكافحى من أجل إخوتك . فكرى فيهم ،

ولا تفكرى فى نفسك . لا تتركى المسرات والأفراح تستهويك ، فتنزعك من مسئولياتك ، ولا تشتهى أن تتجملى وتترزنى فتعرضين عن إخوتك الذين أصبحت حياتهم بين يديك . وقع على عاتقك عبء ثقيل ، يا عصفورتى ، يا هيلينيتسا العزيزة . على كاهلك الرقيق مسئوليات الأم والأب معا . قدرى هذه المسئوليات ، يا مسكينتى ، واشعرى بها . اصمدى ، وسددى هذا الدين بيقين وعزم حتى نلتقى على خير . لا أريد أن أعود ، يا بنيتى ، فأجداكم مشتتين ، يجللكم العار والخجل ! أما أنا فحيث أوجد هنا ليس لى من أمل يشد عزمى على الجهاد سواكم . كل نبض فى وكل نفس لى يستمد قوته منك ، يا عصفورتى العزلاء ، يا من ستكافحين وتعانين وسط هذه الكوارث ، من أجل الخير والفلاح . وعندما سيلتئم شملنا فرحين ... »

هنا توقفت القراءة ، لأن الكلام لم يكن له بقية . رفع الحارس بصره إلى الواقفين ، فكانوا يكون جميعاً . تعالى النشيج من حلق النساء . أما الرجال فنكسوا الرؤوس كما لو كانوا يخفون خجلهم ، حتى الأطفال وقفوا واجمين .

صاح أحد الحاضرين : « هذا الغريق منا ، هيلينيتسا هذه وإخوتها أولادنا . يجب أن نتولى نحن رعايتهم » .

صدق الجميع على كلامه صائحين : « أجل ، أجل ، علينا أن نبحث عنهم ونجدهم ! »

وبدأت مناقشات ومداولات بين كل أولئك الذين تجمعوا حول الغريق . علا صوت الجميع ، وأدلى كل برأى . كيف سيعثرون على قرية الغريق

وبيته ، كيف سيبعثون بأناس مخصوصين وعلى نفقة بلدتهم ، يشدون الترحال ، ويجوبون اليونان كلها إذا اقتضى الأمر ذلك ، ليجدوا تلك المدعوة هيلينيتسا ، ليمدوا لها يد العون .

وأضاف آخر : « نأخذ هؤلاء الأولاد ونحضرهم إلى بلدتنا هنا ونتبناهم » .

وصاح آخر : « هذه الخطابات نحافظ عليها جيداً ، لنحملها كلها إلى الفتاة » .

وقال آخر : « ننشرها فى الصحف ليقراها كل الناس ... »

وهكذا بانفعال وتأثر وحماس عام لتنفيذ وصايا الرجل الغريق ، أمضى أهل القرية يومهم ذاك ، لكن لم يعرف ماذا فعلوا ، كيف انتهت هذه الحكاية ، ما إذا كانت هذه القرية قد وضعت موضع التنفيذ اندفاعها الأول الذى أثارت فيه رسالة الغريق ، أم أن جثمانه وخطاباته اختطت طريقها الطبيعى ، هو إلى جانب قصى من الجبانة ، وهى فى أحد الأركان المنزوية بدولاب فى مكتب التحقيق . كثيرة هى انشغالات الحياة ولهفاتنا حتى إنه لا يكاد تلوح موجة حتى تلحق بها ثانية وثالثة ، وتغمر كل منها الأخرى ، ويكون الشئ الوحيد الذى يبقى مستبداً بالحواس هو الرهبة من هدير الأعماق .

امراة على الهامش

صوفيا مافرويدى باباذاكى

فوجئت بثوبها الأبيض وعينيها الفرحتين . كانت قد فقدت أخويها
وأباها . هدم الموت بيتها ولكنها كانت تعرف كيف تبتسم هذه الابتسامة
الوضيئة !

جسم رشيق ، شعر أسود مبسوط ، عيناان تسبحان فى النور .
لم يكن جمالها متفرداً لكرم وجهها ، كان روحاً كله . طلبت أن أتعرف بها .
كنت أريد أن أرى كيف تبدو فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها فقدت كل
شئ ولم تثبط همتها . كنت أخشى على الدوام أولئك الذين يعطون
المعركة شهداء من ذويهم . يهب المرء حياته عن طيب خاطر . فليس
الموت - إذا عرف الشهيد لماذا يموت - سوى غيبوبة يروح فيها كما
لو كان شرب خمرأ وسكر . لكن ماذا يكون الأمر إذا اقتضى أن تفقد
أولئك الذين تحب ، الأب ، الزوج ، الأخ ، الابن ؟ أليس مخيفاً أن تدفع
الثلث كاملاً، وأن تضطر إلى أن تفكر فى أنه يجب أن تنقذ ما بقى لك ؟
وإذا كان الأمر كذلك ، فما العمل مادام الكفاح والموت يمضيان
متشابكى الأيدي ؟

لكن إيلي التي تشع شباباً وحيوية وهي تجلس أمامي ، قد أعطت كل شيء ، ولا زالت تومض في نظرتها اللهفة إلى العطاء .

سألتها :

- كيف حال والدتك ، الآن ؟

- يرى الأطباء أنها إذا اتبعت العلاج اللازم ، يمكن أن تنجو .

- وأحوالكم المالية ؟ لديكم نقود ؟ ثمة أصدقاء يساعدونكم ؟

- كان والدي ، كما تعرفين ، مديراً لبنك ، وترك لنا معاشاً صغيراً . لكنه لا يكفي . أما عن الأصدقاء فكان لنا منهم الكثيرون . كانوا يدعون أبي وأمي لقضاء السهرة ولعب الورق ، وكانوا يزوروننا . ولكن كان كل هذا قبل حركة المقاومة . أما الآن فهم ينكروننا ويتجاهلون حتى إنهم يعرفوننا . يخشون أن يتعرضوا للمتاب ، لم يأتوا حتى إلى الجنازة . نحن ، كما ترين ، مشاغبيون . ارتكبنا الجرم الكبير بانحيازنا إلى الشعب . تقول أمي : « لا يهم ذلك . ليس بيننا وبين هؤلاء الناس أوجه شبه تربطنا » وهذا أفضل حقا . تصوري كم كان سيصبح الأمر رهيباً وثقيلاً على أن أقابل في تلك الأيام أناساً من محبي السهرات والحفلات .

كنت أتوق إلى أن أعرف عن « تلك الأيام » على أنني تخرجت السؤال . لم أكن أريد أن أعكر صفو تلك النظرة الوضيئة . لكن الذكريات ما لبثت أن بدأت ترفرف حولنا ، مشعلة في وجه الفتاة قناديل مثل ورود حمراء ، وانفجرت الشفتان وباحت بالذكريات .

كانت تتكلم ببساطة ، وخلا صوتها من نبرة المأساة. كما لو كانت تروى قصة قرأتها فى مكان ما . ولكن عندما حانت اللحظة التى تصور لى فيها أخويها ، تذبذب صوتها بنغمات عذبة .

"كان فانيس فتانا الأكبر رزينا قليل الكلام . يفكر فى الكثير ولا ينبس بكلمة . انخرط مبكرا فى الجهاد من أجل الحرية . لكننا لم نعرف قط الدرب الذى اختطه لنفسه . كان يدخل البيت على عجل . يأكل لقمة ، وينصرف من حيث أتى . هادئا صامتا . ومع ذلك كنت تلمحين وراء النظرة الساكنة الشرارة القلقة التى كانت تعتمل فى الأعماق . كان يسدل على وجهه ستار الصمت ليخفى عن أخته وأمه ما كانت تعده كل ليلة طبيعته المتقدة . كلمات سر ، نشرات مخابى ، هجمات . أسلحة . كل هذا كنت تقرئينه فى وجهه الهادئ ، إذا كنت قد تعلمت قراءته طوال أربع سنوات . أما بافلوس فكان من نوع آخر تماما . كان يتكلم عن كل شىء لم يكن بقادر على أن يكتم شيئا كان وجهة الأشقر يتأجج احمرارا فتشعرين أنه يحيا مقدما اللحظات التى كان يخطط لها : " الليلة سأتكلم بالألمانية فى مكبر الصوت . من عشرة أمتار خارج المعسكر هنا وبلدكما يتردى فى النيران ؟"

كان الشحوب يعلو وجه أمنا ، دون أن تفتح فمها بكلمة واحدة . على أنها تهرول بعد قليل فى أعقابه . وعندما كان يتكلم فى المكبر كانت تقف هناك بالقرب منه عند مفرق الطريق . لايفصلها عن المعسكر سوى عشرين مترا . كانت تقف هناك عزلاء بكماء تحرس المكان ، ولم تكن تغادره إلا إذا رأت بافلوس يقذف المعسكر بالمتفجرات ويختفى وقد

اندثر المكبر . وتتسلل فى الأزقة الضيقة المجاورة راجعة إلى البيت حيث تنتظر عودة ابنها .

" أَلَمْ تحاول أن تمنعهما قط "

" كلا . كانت تعرف أنه لم يكن ثمة جدوى من ذلك . مرة واحدة فحسب قالت : لاتنس يا أبابا أن أباكما قد أعدم برصاص الألمان .

لكن فانيس قاطعها قائلاً : ومن أجل ذلك ، يا أمنا العزيزة نحل نحن محله فى الجهاد . منذ ذلك الوقت ، لم تكلمهما فى الأمر من جديد ، إلا أنها صارت كلها أذانا صاغية ، لتسمع كلمة ، أو تلميحاً ، تحدث منه برنامج الليلة ، فتترتب خط سيرها . قال لها بافلوس ذات يوم : أتعرفين ماذا أعتقد يا أماه ؟ طالما أنك تجهدين نفسك ، وتجرين وراعنا ، ألا تأخذين معك إناء الألوان ؟ "

سألتها :

- وأنت يا إيلى ، هل تعملين فى مكان ما ؟

- كنت أقوم ببعض الأعمال بدورى ، ولكن على الهامش دائماً . عندما أعدموا أبى بالرصاص ، قال لى فانيس : " ارعى أمنا ، يا إيلى . فربما كتب عليها أن تجرع أكواباً أخرى . لا تتركها .. وحيدة . إننا نمضى فى الطريق الذى قدسته دماء أبى . ابقى أنت إلى جوارها " . وهكذا ، لم أخرج كما كنت أتوق أيضاً ، إلى المعركة ألتقى رصاصاتها فى صدرى . كنت أساعد الفتيان ، بأن أكتب كل ما احتاجوا إليه . وكان محكوماً على أن أحيا معاناتى الخاصة تحت ظل البيت ، بينما كان بالإمكان أن أنساها فى خضم المعاناة العامة وفى نشوة المعركة .

لكن الكارثة جاءت ذات ليلة .. دون أن تنبئ بها أية بادرة . كنت أسمع القائلين بأن الكوارث تأتي دون أن يتوقعها أحد ، ولم أكن أصدق ما يقال . أخوأي قد هجعا إلى فراشيها مبكرين ، ونامت أمي خالية البال تلك الليلة . في منتصف الليل تقريبا دق الباب . بشدة وخشونة . لم يكن الأمر يحتمل أدنى شك . كيف يمكن أن تحزمى أمرك ، وتفتحي الباب ، وأنت تعرفين أن الموت في الانتظار وراءه . ذهبت وفتحت . كانوا ثلاثة من الألمان وأحد الوشاة من بنى وطننا .

قال اليونانى : تريد أخويك . أين هما ؟

قلت : نائمان . ماذا فعلا ؟ ..

لم يجيبوا بشيء . ووجدت نفسى محاطة بفوهات البنادق ، وقد ألقوا القبض على أخوي وهما فى ثياب النوم .

قال لهما بافلوس بالألمانية : "انتظروا دقيقتين حتى نرتدى سترتين" لكن الجاوش أوبير ذلك الكلب النازى الشرس قاطعه قائلا : "لا داعى لذلك ، أيها الفتى" وأضاف ، وهو يربت على كتف جاره ضاحكا ضحكة تنضح بالقسوة: "حيث سيذهبان ، لن يكونا بحاجة إلى ثياب . أليس كذلك ، ياهانز ؟ "

ضحكوا جميعا . وضحك معهم الخائن الذى يتكلم لغتنا .

عندئذ هبت أمنا كسيف ممشوق ، كما لو كانت صبية فى السادسة عشرة من عمرها ، وأمسكت بأيديهم . وتدفق الكلام من فمها الذى لم يكن ينبس بكلمة من قبل .

"لا تأخذهما منى . ليس لى فى الحياة غيرهما . قتلتم زوجى .
اتركوا لى ابنى على الأقل . أليس لكم أمهات ، أنتم ؟ أليس لكم أولاد ؟
ألا تفهمون الألم ؟ لا يمكن ذلك . أنتم بشر ولكم قلوب . قولوا لى إنكم
لن تأخذوهما . ها هو البيت كله لكم . خذوا الثياب ، الأثاث ، الكتب .
خذونى أنا واتركوهما" .

وكانت تتعلق بأكتافهما ، وتتمسح بأيديهم ، وتخر على الأرض
محوطة سيقانهم بذراعيها وتسد الباب بجسمها .

قال هانز : يجب أن تنتهى . خذوا معكم المرأتين أيضا . لكن
الجاويش أوبير قاطعه بضحكة ساخرة من جديد .

"أليس فى قلبك أدنى رحمة ، يا هانز ؟ لابد أن يبقى بعدهما من
يبكيهما ."

لحسن الحظ ، لم تكن أمنا تعرف لغتهم . ولكن ماذا كانت ستسمع
أكثر مما حدسته ؟

قذفوا بها وسط الغرفة بركة . وألقوا بى فوقها .

وفى طريقهم للخروج . سمعت فانيس يقول : "ارعى أمنا ، يا إيلى" ..

فى اليوم التالى ، بعد الظهر ، عندما كان كل شىء قد انتهى
انتابنى إحساس بأن الأمر لم يكن سوى كابوس بشع . إذ كيف يمكن
أن يكون قد اجتزت كل هذا ولا زالت أحياء ، محتفظة بعقلى ؟

أصيبت أمى تلك الليلة بنزيف ، مخيف ، لم يستطع الطبيب أن
يوقفه إلا بإعطائها مخدرا . ثم راحت فى غيبوبة فلم تع شيئا مما حولها .

وبذلك أمكنتني أن أنجز كل شيء بمفردي . فى الصباح أحضروا لى أخوى غارقين فى دمائهما . كانوا قد أعدموهما رميا بالرصاص عند مفرق الطريق . غسلت جثتيهما وألبستهما ثيابهما بيدي ، هاتين . لم تذرف عيناى دمعة . ولم يدب الخوار إلى ساقى قط ، لأننى كنت أدرك أننى لن ألتقى العون من أحد . كان يجب أن أعجل ، وأن أنجز كل شيء بنظام قبل أن يجىء الليل . من المؤكد أننى لم أكن فى حالتى الطبيعية ، لأننى غير قادرة أن أفسر بعض الأمور . مثلا ، عندما كانت تجرى مراسم الجنازة فى الكنيسة ، ويتلو القساوسة صلوات الموت لم أكن أفهم ما صلة كل هذا بأخوى . كنت أقول لنفسى لماذا لا ينشدون النشيد الوطنى ؟ ما شأن أخوى بكل هذه التراتيل الحزينة ؟ وفى المقبرة انفلتت من أيدي أولئك الذين كانوا يمسون بى ، ومضيت أتنقل هنا وهناك ، أجمع من الحوائط زهوراً بريّة أنثرها على وجهيهما . كنت أذكر كم كانت فرحتنا جميعا فى البيت عندما خلصنا بافلوس من التيفود فى العام الماضى . كنت أذكر أيضا فانىس فتانا الأكبر الذى كان معتل الصحة على الدوام ، وكانت أمنا دائبة الخوف عليه . كنت أذكر كل هذا وأربت على وجهيهما ...

توقفت عن الكلام . شابت النظرة الوضيئة غمامة صغيرة ، ولكن من العينين لم تطفر دمعة واحدة . لم أقطع الصمت الذى خيم ، لكننى تذكرت ، وأنا أراها جالسة هناك أمامى بثوبها ناصع البياض ، والصمود فى عينيها ، تذكرت شكاتها : "كنت دائما على الهامش" .

"عندما أفاقت أمى ، تكلمت بعد قليل . لم توجه إلى سؤال . ربت على يدي فحسب ، وقالت : بقينا وحيدتين ، الآن يا إيلى . يجب أن نفعل شيئا نحن أيضا . هل تذكرين ما قاله فانىس ؟ إذا رحل أحد ، يجب

على الآخرين أن يخلوا محله . أريد أن أعمل فى سبيل الهدف الذى
وهب ولداى وزوجى حياتهم من أجله ... ابحتى يا إيلى .. ابحتى لى عن
عمل أعمله ...

هذا مايجعلنى أحضر إليك اليوم . يجب أن تجدى عملا لأمى .
وأنا أيضا أريد عملاً لا أستطيع أن أترك أمى وحدها مريضة .
سأشتغل من جديد فى البيت . لكن عندما ستأتى الحرية بعد قليل أريد
ألا أخجل من أننى لم أعمل من أجل مجيئها .

أرسلتها إلى "صحف المقاومة" لم أرها بعد ذلك ، بل ولم أخبرها
عما أنا مدينة لها به . فلم أعد بفضلها أخشى . لم أعد أحصى بقلق
الشهداء الذين نهبهم كل يوم . فإن الموت يمضى جنبا إلى جنب مع
الكفاح ، دون أن يعوقه أو يثبط من قوة اندفاعه ، بل هو يزيده على
العكس ، اشتعالا .

إن هذه التربة التى نعشقها ، تعيد بقوة الدماء التى تتشربها شعلة
متأججة . غدا ، ستلقى هذه الفتاة التى كانت تعمل حتى اليوم "على
الهامش" بنفسها إلى ساحة المعركة ، وستحارب بكل مافى كيانها من
شباب ملتهب . لن يضعف الموت الجموع ، وستأتى الحرية .

بستان البرتقال

فليبو بيريدى

إن هذه القطعة من شاطئ قبرص مكان مبارك. أرض رملية طيبة ، ماء طيب ، وأنفاس البحر تطف من برد الشتاء . كل ما يلزم لزراعة أشجار البرتقال . مكان تغطيه الحدائق . شريط أخضر يحوط الرمال الذهبية الممتدة فى شبه دائرة حول الخليج ويندثر عند اللسان الصخرى. وفى مايو عندما تهب النسيمات من اليايسة ، يعبق الزهر بأريج هواء البحر حتى مدخل الخليج على امتداد ميلين .

قد تكون زراعة البرتقال مجرد كلمة ، ولكن كيف تصبح هذه الكلمة أمراً لا يعرفه حقا سوى أناس ، من أمثال بيتري ، كرسوا جهدهم العمر كله للتربة والشجر حتى لم يعد بالإمكان أن تفصل بالنسبة لبستان هذه العناصر الأساسية الثلاثة بعضها عن بعض . هكذا تعهد بيتري بستانه حتى نمت وترعرعت فيه أشجار البرتقال عند الطرف القصى للشريط الأخضر على الحد الفاصل بينه وبين اللسان الصخرى .

عندما استقل عن أبيه ، وانصرف يعمل من أجل أن يكون له حقله هو ، كان متقدما فى السن بعض الشيء ، فقد كان قد بلغ الثلاثين.

لم يكن بمقدوره أن يختط طريقه الخاص قبل ذلك ، فقد كان عليه أن يرعى أختيه ، وقد تزوجا فى سن متأخرة . ومع ذلك لم تصدر عن بيتري شكوى قط . لم يكن ذلك طيبة فيه أو اكتراثا منه بآلا يتخلى عمن فى حاجة إلى حمايته . كلا ، لم يكن هذا هو حقيقة الأمر . كان بيتري من أولئك القوم ذوى الجأش الرابط الذين يواصلون بثبات وعزم السير فى الطريق الذى جعلته الحياة من نصيبهم ، قادرين على أن يحيوا حياتهم دون أن يقيموا وزنا لأحد ، مما يحمل الآخرين على احترامهم . سار على الدرب الذى نهجه أجداده منذ القدم ، كتوماً مجداً ، وعاش نمط حياتهم لمجرد أنه وعى الحياة هكذا . زوج أختيه . وزع عليهما أملاك الأسرة ، وناط إليهما رعاية الأبوين الطاعنين فى السن ، ثم بغير أن يلتقط أنفاسه يوماً واحداً رسم علامة الصليب ، وبصق فى راحتيه وشرع يضرب الأرض بفأسه حتى يزرع الشجر فى أرضه هو . غرسها . طعمها . حوطها بسور . بنى بيتاً صغيراً ، وتزوج . ماذا يهم بعد ذلك ؟ إنه اختط طريقه فى الثلاثين بدلاً من أن يختطها فى العشرين . المسار واحد فى الحالتين ، بل والمسار الداخلى أيضاً ، ذلك الالتحام بين روحه وبين هذه التربة وهذا الشجر ، إلى الحد الذى لا يستطيع معه أن يميز بين جهاده وجهاد الشجرة الفتية التى تكافح لكى ترسخ جذورها فى الأرض ، ولا أن يميز بين ألمه وألم الشجرة متى أصابها الداء ، وإلى الحد الذى يسمع معه فى نومه صوت أشجاره وقد اشتد عودها ، ويشعر بالفرحة لأنها شربت حاجتها من الماء وارتوت .

وقد قدر لتأخره فى اختطاط سبيله والاستقلال بكده أن يكون سبباً لأن يختلف نهج حياته المألوف من ناحية واحدة . كان بيتري قد جاوز الخامسة والثلاثين عندما أنجبت زوجته التى ناهزت الثلاثين بدورها

طفلهما الأول . كان ولدًا . ولم ينجبا غيره . وقد حوط الأبوان اللذان فى منتصف العمر هذا الابن ، أرتيمى ، بعواطف لم يألفاها من قبل ، وكانا يختزنانها فى الأعماق مبهمة غير مفهومة ، لكنها غرست فى قلب الأم بذرة حب لا حدود له ، وبثت فى عقل بيتري بعض الأفكار الجديدة . وهكذا تلقى أرتيمى الابن الوحيد من أمه ملاحظات غير معهودة من أقرانه ، ونال من بيتري الإذن بأن يذهب إلى المدرسة الثانوية فى المدينة التى تبعد عن القرية مسيرة ساعة .

ولم تتوقف الأفكار الجديدة فى عقل بيتري ، فقد انتوى أن يوفد أرتيمى ليكمل تعليمه بعد المرحلة الثانوية. لكنه لم يتناقش مع أحد فى هذا الأمر ، ولا حتى مع نفسه ، فقد كان يعترف به كأنه حقيقة لا تقبل الجدل . «فلينته من المدرسة فحسب . وسنرى » هذا ما كان يقوله فى قراراته ، وقد توقفت يده عن العمل فى الهواء لحظة ممسكة بمنجل التشذيب ، وارتعشت فى عينيه ابتسامة ، ثم كان يعود إلى عمله فى تقليم الشجر .

أصبح عالم بيتري الآن غريباً مشتتاً بين تكريس جهده للأرض وبين أحلامه عن أرتيمى . وما كان عن الاثنين يتزعزع . كان كما لو كان يعيش حياتين لم يكن يجمع بينهما فى فكره البدائى شبه مشترك ، ولكن لم يكن ثمة سبب لأن تدب الفرقة بينهما على أى حال . كل ما هنالك أن الأحلام فتحت نافذة تدفق منها ضوء جديد غمر قلب بيتري .

هكذا مضت السنين . بسطت أشجار البرتقال أغصانها وتشابكت أوراقها . وبلغ أرتيمى الثامنة عشرة من عمره ، وحصل على الشهادة الثانوية . صار فتى أسمر رزينا قليل الكلام ، يشبه أباه كل الشبه .

وكلما شب أرتمى وأفلح انتشر النور فى قلب بيتري بثقة واطمئنان ،
كما لو كان فلاح الابن مصدقاً على فلاح الأب فى بستانه .

ومع ذلك وفى الآونة الأخيرة بدأت تهب ريح جديدة اقتلعت من
الناس ألبابهم . نداء شامل مزلزل كأنه وافد من أعماق الزمن يبشر بأن
الساعة قد حانت . فلم يعد إطار الحياة اليومية يسع أهل الجزيرة
الطيبين . فى المقاهى ، وفى السوق ، وفى البيوت ، وفى مقار العمل ،
وفى المدارس ، علت موجة من التحذيرات والترقيات والتحديات سمت
بالأرواح فوق منطق المصالحة والروتين . امتشق الشبان سلاح الحماس ،
ومضوا يتقصون عن فرص التضحية والفداء . كانوا يروحون ويجيئون .
ينتحون جانباً ويتهامسون ، ثم فجأة يقفزون إلى دراجاتهم ، يركبونها
ويمضون إلى المدينة . وكان أرتمى من بينهم .

ساورت الريب بيتري منذ أول وهلة ، إلا أنه لاذ بالصمت ، ومثل
الحيوان البرى اشتتم فى الهواء مقدمات العاصفة الهوجاء . وبكل تحفظ
مضى ينتظر أرتمى ويتتبعه ، لكن ذات يوم عندما حاولت زوجته أن
تحدثه عن مخاوفها على ابنها الذى لا يرتدع ، نهرها قائلاً :

- دعيه وشأنه ، إنه يعرف ماذا يفعل . ماذا تريد من رجل مثله ،
أن ينكص على أعقابيه ، ويندس مختبئاً وراء فساتينك ؟

على أنه بدأ يروض بعد ذلك من تحفظه رويداً رويداً إحساساً بأن
كل هذه الانتفاضة من حوله تنبثق من جذور وجوده ذاته ، من الأعماق ،
من أقصى الأعماق ، من حيث يعتصر رحيق شعوره بقوميته .

وفى يوم من أيام الخريف السابحة فى دفاء الشمس ، كان بيترى جالسا عند عتبة داره يصلح مضخته استعداداً لتعفير أشجاره بالكبريت ، ما أن يجد الوقت المناسب لذلك . فتح باب سور الحديقة بدفعة قوية ، ودخل صبيان لاهئين جاءا ووقفأ أمامه ، وهما يديران بارتباك فى أيديهما قبعتيهما المدرسية . فزع بيترى لمأهما ، لكنه لم يفصح عما ارتابه .

تطلع إليهما فحسب وانتظر أن يتكلما . فى النهاية ، قال أحد الصبيين بلهجة سريعة ، وربما كان قد نسى ما سبق أن أعده من كلام ، قال بعبارة مفككة كل الحكاية : نزل الطلبة فى مظاهرة . أطلقت « قوات الأمن » الرصاص . سقط أرتيمى الذى كان يحمل العلم فى المقدمة . جرح اثنان آخران ، لكن أرتيمى ... سقط ! كرر الصبى قوله بصوت نائح .

فهم بيترى ، وهب لتوه واقفاً بداخله عمود من الغضب العارم ، وعلا الصراخ فى أعماقه . أما الأم التى كانت فى البيت وسمعت فقد ندت منها صيحة ، وهمت بالاندفاع خارجاً ، لكن بيترى مد يديه وصدّها . وبينما هو يحتضنها بحنان لم يسبق أن أحس بمثله اقتادها وأعانها على الجلوس .

بدا كل ما أعقب ذلك فى هذا اليوم واليوم اللاحق بالنسبة لبيتري كما لو كان يجرى فى منطقة منفصلة من حياته ، فى منطقة لا شىء فيها ينتهى ، ولا شىء يبدأ ، لأن اللحظة ، كل لحظة ، مشحونة الأعماق بارتجافات تغمر وتستحوذ وتوجه كل شىء . ووسط الانسحاق الذى عاناه قلبه ، أحس كما لو كان مشدود الأزر من تماثل مترام ومتجاوز للحد بين مأساته والنبض الكلى لما حوله .

لكن بعد أن ودى جثمان أرتيمى القبر ، أقبل الليل . وأخذ المعزون ،
بضغطة على اليد ، بكلمة مواساة طيبة ، ينصرفون . وبعد منتصف
الليل بقى الوالدان العجوزان وحدهما ، وليس ثمة من يقف إلى جوارهما
فى حزنهما الكبير .

أحس بيتري عند ذاك أنه قد هبط إلى المنطقة المألوفة ، حياة كل
يوم . استدار ونظر إلى الأم التى جلست صامتة مكسورة الجناحين وقد
بدا لها باطلاً كل عناء وجزع . أحس نحوها فى قلبه بذلك الحنان من
جديد ، وسرى فى عروقه دبيب ميل إلى ملاطفة مكبوتة . وما لبثت الأم ،
وقد هدها التعب ، أن رقدت تحاول النوم ، أما بيتري الذى لم تعد الدنيا
تتسع له ، فقد فتح الباب ، وخرج إلى البستان .

جرفه مشهد أشجاره النابض بالحياة ، وشذاها المألوف فى ضوء
النجوم ، جرفه ذلك إلى فلكها كما كان يحدث له دائماً .

كانت هذه أحلى ساعات الليل ، تلك التى تبشر بانبلاج الفجر .
مضت الجنادب تطرز بصوتها خيوطاً على خمار الصمت . خفق جناحا
دجاجة فى حظيرة الدواجن . ومن بعيد سمع خوار ثور . ثم أخذ الأفق
يكتسى بلون وردى ، ولاحظ بيتري أن الجو كان جافاً وساكناً . « حان
وقت التعفير » هذا ما فكر فيه الفلاح الذى استيقظ بداخله ، ثم عمد من
تلقائه إلى ربط الفكر بالعمل ، فمضى إلى كوخه حيث صف معداته ،
وأخذ مضخة التعفير ، وشرع فى العمل .

ملأت المضخة صمت تلك الساعات فى الفجر بصوت غريب ، كان يشبه
حشرة رتيبة عنيدة من مخلوق يحتضر بصوت كما لو كان يهيب بالشمس ،
وهى تشرق وتبسط نورها ، أن تعطى لكل شىء معنى واضحاً .

المرأة ذات العينين البريئتين

ميخائيل كانيلليس

- أيها المتهم ، ما دفاعك ؟

-

فى قاعة محكمة الجنايات بسط الصمت الخالص جناحيه العملاقين .
حبس كل الموجودين ، سواء من هيئة المحكمة أو المحلفين
أو المحامين أو المتفرجين ، أنفاسهم وقد تسمر فى صدورهم قلق مشترك .
بدا المتهم مشدوها ، مستغرقاً بمواكب الأشباح الحزينة المتتابعة
أمام بصيرته الداخلية . لم يحرك ساكناً فلم يكن قد سمع ما أمره به
رئيس المحكمة وبصوت أكثر ثباتاً ، عاد هذا الأخير يقول :

- أيها المتهم ، بم تجيب ؟

لكزه واحد من هيئة الدفاع عنه بلباقة من تحت المنصة :
- يا سيد - فلامينى ، ادل بإجابتك .

ثم كرر القول ، بصوت أكثر خفوتاً ، حتى يفهمه ذلك الذى جلس
محطماً على مقعد أولئك الذين هدمتهم شرورهم :

- هيا ، تشجع ، أيها الصديق التعس ...

عندئذ فحسب أفاق المتهم من غيبوبته .

هب فى وقفة آلية ، وبحركة تلقائية . رتب خصلات شعره الأسود
التي تلقى ظلالة ثقيلة على وجهه مثل عرف غراب داكن ، ثم فتح
فمه كى يتكلم .

إنه بافلوس فلامينى ، الطبيب الشاب المعروف لدى أوساط المجتمع
الراقى . درس فى أوروبا ، وكان يبشر بمستقبل باهر ، كناية من
نوابغ الجراحة .

أما الآن ؟

يا للخراب !

(كانت المأساة المخيفة قد انقضت عليه فجأة ، مثل طائر كاسر
فقاً بمنقاره الجارح عينى قدره السعيد) . تجمعت فى المحكمة يوم
القضية النخبة الممتازة من المجتمع الأثينى . مضت الألسنة النهمة تلو
اسمه من كل النواحي بقدر ما فى الجموع من فضول .

وكان الغريب فى الأمر حقاً ، إذ كان العكس هو المتوقع حدوثه ،
أن النساء تعاطفن معه ، بينما ألقى الرجال الوزر عليه ، وقذفوا فى
وجهه جميعاً قولهم :

- أيها المجرم !

بدا بافلوس فلامينى وقت أن قام يدلى بدفاعه رمادياً ، شاحباً ،
كميت قبل أوانه غطاءه فيض من القراب المظلم ...

بين الفينة والفينة ، عندما كانت تصل اعترافاته المفجعة إلى أكثر مشاهدها قتامة كان يلجم لسانه ، ويتعثر ، ويبيح صوته . وبين شذقيه كانت الكلمات تجهض ، تموت قبل أن تولد ، وتختلط عباراته ويدب فيها الارتباك . وعندئذ كان حديثه المحطم ينبئ عن مبلغ الدمار والخراب الذى حاق بروحه ووجدانه .

وشرع يقول :

.....

- أين عرفتھا ؟ كيف عرفتھا ؟ لماذا عرفتھا ؟ لا أدري ... يكفى أنتى قد عرفتھا ... عرفتھا بالقدر الذى يمكن لرجل أن يعرف امرأة . أعنى أنتى لم أعرفھا قط ... لأنك كلما زدت تعرفاً بامرأة ، كلما ازداد جهلك بها . إن المرأة تيه تضل فى سراديبه . وكلما أوغلت فى أعماقه كلما تكاثف الظلام من حولك ...

قاطعه رئيس الجلسة بعصبية :

- أيھا المتهم ، ادخل إلى الموضوع رأساً ، إلى الموضوع رأساً ! إنك لم تأت هنا لتتفلسف ، بل لتدافع عن نفسك ، لتبرر لنا تصرفك ، لتبرر تصرفاتك ...

(كان الرئيس قد اكتسب من عمله القضائى عادة أن يردد ثلاث أو أربع مرات ختام عبارته . وكان هذا التكرار المشدد يضيف عليه صلابة ومهابة) .

هب الأستاذ ميلاراس محامى المتهم وعضو البرلمان واقفاً برشاقة ! انتفش الشعر المستعار على رأسه مثل أسد هصور ، واندفع يقول فى احتجاج متأجج :

- إننى أعترض ، يا سيدى الرئيس ! إن دفاع المتهم عن نفسه حق مقدس ! لاتنسوا أن حياة إنسان يتهددها الخطر فى هذه اللحظة ، وأن حبل المشنقة ليس بعيداً عن رقبتة .

- إننى لا أسمح لمحامى المتهم بمقاطعة المحكمة .. لا أسمح بذلك لا ..

- بل ستسمحون ، يا سيدى الرئيس ، إن حياة موكلى فى خطر ، ولهذا فمن حقه أن يدافع عن نفسه كما يشاء ...

اشتبك الرئيس ومحامى الدفاع لحظة فى مشادة حامية . إلا أن وكيل النيابة الذى كان من أعضاء الهيئة القضائية الطيبين نجح فى تهدئة الطرفين . وهكذا استطاع الطبيب فلامينى أن يواصل دفاعه عن نفسه بلا قيد سوى نصيحة واحدة من رئيس المحكمة أن « اختصر .. اختصر .. ! »

- كان الوقت صيفاً .. صيفاً أحمر ، أحمر مثل شفتيها ، أيها السادة ... فى بعض الأحيان ، خيل إلى أن شهر يوليو قد ولد من شفتيها ... كنت أقضى إجازتى آنذاك .. (كم من السنين مضت منذ ذلك الحين ؟ كم من الأصياف انقضت ؟ لا أعرف ... أذكر فحسب أنه الوقت الذى كنت فيه لا أزال أحياء !) قضيت أياماً ليالٍ حلوة فى تلك الجزيرة من جزر بحر إيجه .. كان الليل ينساب فى هدوء فوق جسمى مثل أهداب حبيبة . آه ، كم انسجم جسمى مع تلك الجزيرة ...

ثم التقيت بها !

لم يكن لها أب ولا أم ، ولا قريب . كانت وحيدة وغريبة ومعتزلة ، كما لو كان قد ألقى بها إلينا كوكب آخر . أكانت أنسة ؟ سيدة ؟ أرملة ؟

لم أكن أعرف. وما من أحد غيرى كان يعرف . كان الجميع ينادونها
« بالمرأة ذات الضحكة الحمراء » .

رقصت معها ..

كانت رشيقة ، مياسة القد ، مثل شبح امرأة حسناء بُعثت إلى
الحياة. أثناء الرقص كانت تنزلق من بين يدي كما لو كانت طيف امرأة.
كنت أفقدها من حضنى فجأة بينما كنت أحتويها كلها بذراعى . وبين
الفينة والفينة كان أحد أجزاء جسمها يتبخر من جانبي وإن كانت تظل
فى ناظرى . وكان هذا مدعاة للرغبة !

كنت أراها كاملة ، ولكننى كنت أحس بها ناقصة . لم تتبين عيناى
على هيئتها المضيئة شيئاً غائباً ، ولكن لمستى كانت تشعرنى بأن
ثمة فراغا ...

ذات ليلة ، رقصنا كثيراً . لم تكن تلك التى بين ذراعى امرأة ، بل
كانت روح الرقص التى تفتتنى وتلهب النار فى جسدى . تبتعد كمادة
وتضيع فى أغور البحر العميقة ، بينما كانت تظل تنتفض وتتثنى فى
أحضانى . كانت جد بعيدة عن متناول يدي . من يدرى أين ؟ .. فى
الوهاد الغائرة ، فى الأجواء الأثيرية المترامية ، فى أجواء الفضاء ، فى
مدارات النجوم ، لاشك أن موطنها الغامض هناك فى مكان من هذه
الأمكنة ...

كان جسدها يسافر ، يهرب ، يذوب ، يرحل بعيداً تاركاً لى إطاره
الخارجى فحسب ، كنت أرقص - ويا لهول ذلك - مع الجلد الخارجى
لمخلوق وحشى أجوف ..

شربتُ تلك الليلة الكثير من الشمبانيا . فشعشت الخمر فى خواء
كيانها ، وتلاأت الومضات فى عينيها ، وأضاءت بشرتها مثل طبقة من
الراديوم .

ومن الغريب أنها ما كانت تغيب عن وعيها مهما شربت . على أن
جسدها كان يتبخر من أمامى يتحول فى ناظرى طيفاً ناصع البياض ،
كما لو لم تكن مخلوقاً بل كائنًا يتعدى كل المخلوقات ...
كانت أنثى تتجاوز روحها الحدود .

ولا شىء غير ذلك ..

فقط كانت النظرات تتطاير من عينيها ملتهبة ، كما لو كان القدر قد
اقتلع من غرس باطن الأرض مقلتى شيطان وزرعهما فى محجريها .
كانت عيناها مفعمتين بالحياة . أما شفثاها الحمراءوان ، شفثاها
شديدتا الحمرة ، فقد بدا أنها كانت تخضبهما بلهب الشمس ...

أومأت لى قائلة :

- لنذهب ...

- إلى أين ؟

- لنذهب ..

لم تنبس بهذه العبارة . كلا ، لم تنبس بها . أقسم لكم على ذلك
بجريمتى المحتومة المقدسة . أقسم ! لماذا أخدعكم ؟ وما حاجتى إلى أن
أخدعكم ؟ إنكم تروننى : إننى ميت ...

لم تنطق بكلمة «لنذهب» لم تنبس شفتاها بهذه الكلمة .. ومع ذلك
فقد دوت فى أعماقى .

وذهبت ، تبعتها موثق القيد إلى خطاها ، يشدنى ظلها إليها ، كما
لو كنت كلبها الأمين وسرنا معاً ، أنا والمرأة ذات الضحكة الحمراء ، أنا
والشيطان ! ذهبنا إلى خليج هادئ ، قصي ناءٍ عن العيون ، حيث كانت
الأمواج تنبسط مثل الشهد على رمال الشاطئ .

من حولنا ، مضت النجوم تسير وسط الصخور . أما القمر فقد
انسكب كله فى البحر .

وفى اليوم المريض ذاب صديده فبدت الموجات الساكنة مخضبة
بما يشبه صفار البيض .

وقفت صامتة على صخرة صغيرة جوفت ما تحتها تيارات
البحر الغائرة .

نظرت إليها ...

بدت هيئتها كاملة ، ومع ذلك لم يكن أمامى حتى ولا نصفها . أين
ذهب الجزء الباقي من جسمها ؟

شرعت المرأة تخلع ثيابها ...

مضت تتجرد أمامى ، بلا اضطراب ، ولا خجل ، ولكن أيضاً
بلا وقاحة ، كما لو لم يكن ثمة رجل إلى جوارها ، كما لو لم أكن كائنًا ،
بل مجرد طيف خيالى ...

هل كانت تجهل وجودى ؟

هل كانت ناسية ؟

من يدري ؟

كانت تخلع ثيابها ...

ومثل بخار ينفصل عن بخار أخذت الغلالات تسقط عن جسدها
الأثيرى . وكنت أرتعد ، أرتعد مثل حيوان مقضى عليه ، خشية أن
يتبخر الآن من ثيابها جسدها أيضاً ، أن تتبدد المرأة من أمامى ،
وتستحيل هواء أو ضباباً أو عدماً !

وبدون أن تفتح فمها ، قالت لى صراحة ، بكلمات لاتنبس بها
الشفافة بل تتحدث بها الأعماق :

- ألق بنفسك ...

- أين ؟

- فى اليم . ألق بنفسك ...

كانت الآن عارية تماماً .

تمتتم ، مجنوناً :

(مجنوناً ؟ كلا ، لم أكن مجنوناً ، كلا ، لست مجنوناً ، من قال
إننى مجنون ؟)

- لم نحضر لباس البحر ..

أشارت لى المرأة العارية ، بحركة أمرة إلى البحر الساكن سكون
الأموات ، إلى اليم الفسيح الهادئ المليء بالصديد ، الذى يرقد نائماً .

- ألق بنفسك ...

وفى لحظة كنت بدورى عارياً إلا من جلدى المبهور . وقد غاصت
ساقاي باستسلام فى طحالب البحر وحشائشه . خطوت أولى خطواتى
فى الماء ، فسرت الرعدة فى أوصالى .

رأيت راكداً سميكاً . كان البحر مريضاً الليلة . بطنه التى تكاثفت
عليها الطحالب انتفخت على غير المألوف ، كما لو كان قد أصيب
بالاستسقاء منذ سنين .

كان البحر مريضاً الليلة ، مثل أنثى اكتمل حملها وبلغ منتهاه ،
وقد طفحت على سطحه طبقة من البثور مضت قدماى تفقأها فى
خطوى . كنت أشعر أن البحر يلفظ الليلة سموماً . كان اليم عكراً للغاية .
توقفت .

أردت أن أعود . آه ، أن أعود أدراجى إلى اليابسة من جديد حيث
تجد أقدامى الاستقرار والرسوخ .

ولكن هيهات ! ..

لقد نهتني المرأة العارية عن ذلك ، بأسطة ذراعيها نحوى مهددة .
انتصبت المرأة واقفة بينى وبين القمر ، فرأيت ، ويا لهول ما رأيت ،
القمر وضاءً من خلالها ! كما لو كان جسدها شفافاً ، لم يكن يحجب
أشعة القمر . لم يكن يصدها .. كان الضوء يخترق قامتها بحرية .. كما
لو لم يكن جسدها من لحم ودم بل من زجاج ! .

أية طبيعة ، أية خليفة ، من أية مادة مجهولة بعد فى هذا الكون
صنعت هذه الأنثى الغريبة ؟

أواه ! لم تكن قد خلقت مثل نساء الأرض ، من ماء وجير وفوسفور
وخلايا ، كانت مخلوقة ذات تركيب بيولوجى خارق . كان معدنها قد
انصهر واستوى فى أفران جد مختلفة خارج نطاق أرضنا . كانت
معلومة حية ، إشارة نشطة تبعث بها القوى العاقلة فى الفضاء المتراعى
الأطراف عن المخلوقات التى تحيا وتتحرك خارج نطاق الكرة الأرضية .
رأيتها تقفز بدورها بعد قليل إلى جوارى فى اللجة .

وسرت الرعدة فى من جديد .

سقطت دون أن أسمع أدنى صوت لارتطامها بالماء . وغاصت
فى صمت .

شرعت تشق الموج بلا جلبة .

انتابنى الهلع . أردت أن أراها ! أردت أن ألمسها لم أكن أريد أن
أتبين الآن من هى ، بل أن أتبين ما هى ..
هجمت عليها ...

أدركتها وذراعاها يشقان اللجة السميكة ، كما لو كانا يشقان
سطحاً من العسل . طوقت وسطها متلهفاً أن أضم جسمها إلى جسمى
أخيراً ، وأن أحس به مثل سائر أجساد نساء الأرض ...

وعندئذ حدث شئ مخيف ، لن تصدقوه أنتم لأنكم لم تلتقوا
«بالمرأة ذات الضحكة الحمراء» .

لم تصادف يدي وأنا أحتضنها أية مقاومة ! لم يكن لجسدها كثافة خاصة تزيد على كثافة الماء !

وفصلت جسمها عند الوسط ، شطرته بضمتي لها . وبلا صد من جسدها أمسكت يدي بجسدي أنا !

لكن المرأة الغريبة كانت هناك ، إلى جوارى ، تكاد تنكب على بسطاء وحيوية، وأسنانها البيضاء تلمع وضياء بين شففتيها الحمراءوين .
سرت رعدة باردة فى عروقي .

لم تكن هذه المرأة من لحم ودم !

مما كانت إذن ؟

يخيل إليك أن ثمة مرضاً غريباً على الجنس البشرى ، قد أوهن من التصاق أجزائها بعضها ببعض ، وزاد من الفراغات بين خلاياها ، وحذف الرباط الوثيق بين الذرات . فاستطاعت يدي بذلك أن تجد على نحو ما ، فجوة نفذت منها .

ولكن كيف بدا إذن قوامها الوطيد على هذه المرونة والتماسك ؟

كيف لم يكن يسبح وينهار مثل كتلة هشة ؟ .

تفحصته الآن لا كرجل ، بل كطبيب لأتبين ظواهره الكيميائية ، لأفهم لماذا خرج هذا الجسم على قوانين الطبيعة التى لا حيدة عنها ، وتحكم الوجود كله .

وربت عليه ...

وأجريت راحتي المتيقظة عليه كله متحسناً إياه ، لا عن عاطفة بل
عن حس تشريحي مرهف .

لم يكن يبدو على الجسد الآن ، وأنا أتحسسه أية بوادر غير
طبيعية . كان الجسد العارى لامرأة شابة مبللا بالماء ، مصقولا مشرعا
مثل نصل أبيض .

فقط حيثما لمستها ، بالضبط حيثما التقت بشرتي ببشرتها كان
يبدو احمرار ، كان لحمها يتورد ، ولكنه سرعان ما كان يفقد لونه كما
لو كانت ثمة شفاة مجهولة تطفئ لواعج اللهب .

وهكذا مضيت اتفحصها ، تحسست كل موضع من بشرتها . دون
أن تخطر ببالها أدنى فكرة استحياء ، كما لو لم تكن قد مرت قط
بمرحلة العذرية . تركت لى الحبل على الغارب ببراءة واستسلام طفلة فى
الثانية من عمرها ، كما لو لم تكن تعرف المعنى الجنسى للامسات
الرجل .

لكننى كنت أشعر بها الآن مكتملة تتدفق حيوية . كلها بين ذراعى ،
تتكئ إلى وأتكئ إليها ، وكان هذا يكفينى .

كنت الرجل ، وكانت هى المرأة . كنا وحدنا ، كما لو كنا خارج
حدود الدنيا . لا أحد معنا ، ويلتف كل منا بجسد الآخر .
كنت أشتهيها .

ضغطت على يدها . وجذبتها خارج البحر ، إلى ناحية من الشاطئ
يكسو رماله بساط من الطحالب ، كانت تفوح من أحشائها أنفاس

خشنة لحضن ميت ، كما لو كانت تمر من تحتها فى صمت قبلات
موتى الأرض كلهم .

أرقدتها على الطحالب . كانت الرمال تتن من ثقلها . انحنيت عليها
فجأة . كانت الرغبة فى أعماقى هوجاء عارمة لأننى لم أكن أجد منها
أدنى صد .

همست متمماً :

– ألا تحبيننى ؟

أجابتنى بصراحة تامة :

– كلا .

ألا تحبيننى ؟

– كلا .

(يا للجحيم ! كلا ؟ ومع ذلك كانت هناك عارية كما ولدتها أمها ،
مستلقية دون أدنى فاصل يفرق بين ظلينا !)

تمتت حانقاً :

– سوف تحبيننى ؟

– ربما ...

إيه ، فى النهاية ما الذى يعنيه الحب ، طالما أنتنى ظافر بقربها ؟
ما الذى تعنيه الروح طالما كان الجسد لى ؟

- تعالى ! ...

لكنها لم تأتِ إليّ ، بل أنا الذى اندفعت إليها ، فلم تتهرب منى ،
وتقبلتنى باردة مستسلمة . وما لبثت الرمال أن مضت تنز بعد قليل من
فرط ثقلينا ...

بعد أن أفقت من ضجعتى ، وجدتُها قد عادت إلى وقفها تحت
القمر ، وقد رفعت عينيها المتقدتين بنور أحمر عالٍ نحو قبة السماء
الرحبية من فوقها .

تابعت نظراتها بنظراتى . ورأيت أنها كانت تحملق على الدوام فى
النجم ذاته الذى كان يرتعش فى الفضاء البعيد .
سألتها :

- إلى ما تنظرين ؟

اضطربت ، وشحب لونها :

- لا شئ ...

- أى نجم هو ؟

- إنه نجمى أنا .

تبينت أن هذا الموضوع قد أزعجها ، فتقلص جسدها كله مثل فأرة
مسعورة ، فغيرت الحديث :

- ها أنت قد أحببتنى ، إذن ...

- قلت لك كلا .

- لكنك قد وهبت نفسك لى .

نظرتُ إلىَّ مبهورة ، وقد كانت دهشتها مفعمة بالصدق ، حقا :

- أنا ؟

- إنك ...

- وهبت نفسك لك ؟

تمسكت بعزتى كرجل :

- ألم أستمتع بك تَوًّا ؟

هزت رأسها فى حزن :

- أنت مجنون يا فتاى . إنك تحلم . يبدو أنك قنوع .

- إذن ، لم تصبحى لى ؟

رفعت كتفها بحركة طبيعية :

- كلا ، ولا شك . وما كان بإمكانى أن أصبح لك . أولا ، لأننى

لا أحبك ، وثانياً لأننى ...

- لأنك ماذا ؟

- لازلت عذراء .

ولأول مرة رأيت دماء الحياء تكسو خديها .

- عذراء ؟

انتابتنى نوبة الضحك . ها ! ها ! ها ! عذراء ؟ فلأضحك ثانية .
ها ! ها ! ها ! ماذا كانت تعتقد فى ؟ مجرد مبتدئ غرير ، يتلمس
طريقه بخجل ، ولا زال يجهل معالم البنيان الأنتهى ؟ لقد كنت ذا خبرة
عملية وعضوية بجسد المرأة ، وقد تأكدت جيداً أن معول الحب قد هدم
كل القلاع فى ذلك الجسد ...

وهى تدعى الآن أن ...

- ها ! ها ! ها !

فى البداية تصورت أنها مجنونة .

ولكن هيهات ...

كانت المرأة ذات الضحكة الحمراء تدرك جيداً ما تقول . كانت هى
عذراء حقاً ، وكنت أنا المجنون !

- منذ ذلك الحين بدأت بالنسبة لى حياة على غاية من الغرابة ،
لم يتح للرجل أن يعرفها ولا شك .

كانت لى دون أن تكون لى . كانت عشيقتى إلى أقصى الحدود التى
يمكن أن تتاح لرجل .

ومع ذلك ، فإنها لم تكن بأى حال من الأحوال تعترف بذلك . كانت
تنكر الأمر بإصرار وبغضب لا يصدق .

وقد ولد عنادها عنادى . لم أعد أقنع بأن أكون مالك الأرض كلها ،
لم أعد أقنع بأن أكون الربان المسيطر على كيائها الأجوف كله .

كنت أريدها أن تعترف هي بذلك . هكذا بدا استحواذي عليها
ناقصاً ، غير مكتمل طالما لقيت سيادتي عليها حدوداً وعوائق ، طالما
انبسطت على جسدها دون أن تطول روحها .

في ساعة الفرحة ، على الرغم من أن العناق كان يوثق بيننا
كتوأمي سيام ، ورياح قبلاتي الملهبة تهب حتى أعماق كيائها ، فإنني
كنت أضغط رأسها بين راحتي مهتاجاً ، كما لو كنت أريد أن أنقل إليها
بعزيمة يدي سطوتي ونفوذى ...

وكنت أسألها :

- والآن ، من أنت ؟

- لا شيء .

- ألسنت لي الآن ؟

- كلا ...

كلا ! يا للشيطان ! لم تكن لي على الرغم من أنها كانت لي ! ياله
من عذاب !

وعندئذ تآقت يداي إلى شنقها . وتحولت ملاطفتي إلى أظافر
مسنونة . انزلت يداي من خديها إلى أسفل واستقرتا على عنقها
واستعرت في أصابعي الرغبة العارمة أن أقتلها .

واستحالت قبلاتي إلى نحيب ...

ذات ليلة بعد ممارسة الحب ، أردت أن أجعل عيني تلثم عينيها
بحركة عاطفية رقيقة للغاية تتلاقى فيها رموشنا .

أول الأمر ، لم تتبين ما كنت أنوى . وما أن رأيت حدقتي عيني تحط
على حدقتيها المفتوحتين إلى أعلى ، حتى أطلقت صرخة .

انتفضت ، ودفعت بي بعيداً عنها ، ومن فمها انسكب لعاب مشتعل
مثلما ينسكب من وحش جريح . قالت مولولة :

- ماذا تريد أن تفعل بي ؟

- مجرد ملاطفة ...

في عيني ؟

- ولما لا ؟

- لا أسمح بذلك . لا أسمح بذلك معك .

- لماذا ؟

- لأن عيني سأمنحها لمن سأحب .

ضحكت ببرود :

- إذن ، أنا لست من تحبين ؟

- كلا .

لم تكن تحبني ، ومع ذلك فقد كانت تمنحني جسمها كله ، أرتوى
منه كما أشاء . ومرة أخرى على الرغم من أنها كانت تستسلم لي تماماً
مضت تدافع بضراوة عن عينيها ، فقد ارتبط بهما شرفها وعرضها .

(ولكن أى مخلوق هي ؟)

أى مخلوق تلك المرأة ؟ لعنة ! ... أى شىء هى عرفته فيما بعد .
ومنذ ذلك الحين وأنا أجرجر ظلى الميت على الأرض مثل شبح هائم
بالليالى ...

ومع مضى الوقت ، وازدياد الألفة بيننا ، لاحظت على هذا المخلوق
مظاهر غير مفهومة .

لم تكن تستخدم أحمر للشفاه قط . ومع ذلك شفتاها حمراوين على
الدوام ، ليل نهار . لم يكن لونهما يبهت قط . بل وحتى لعابها كان أحمر
فى أول الأمر انشغلت عليها اعتقدت أنها أصيبت بنزيف . قلت لها ذلك .
ابتسمت .

- إتنى بخير ...

- ولكن ...

- افحصنى إذن ، مادمت طبيباً ...

خلعت ثيابها بكل ثبات . وظلت بين يدى عارية من رأسها حتى
خصرها . تناولت السماعة وكلى خشية أن تتناهى إلى سمعى العوارض
التقليدية المعروفة .

أصخت السمع ...

لا شىء من ذلك !

كان جهازها التنفسى يعمل بشكل منتظم وبلا لغط . كانت
الشعبيات الرئوية تضخ الهواء كصمامات آلة وطيدة الصنع ...

سألتها دهشاً :

- ولكن ؟

- ماذا ؟

- هذا الدم ؟

- ليس دماً ...

رفعت كتفها ، وأضافت متضايقه :

- وما شأنك ؟

لم تكن قوانين الطبيعة والطلب بسارية إذن على هذا المخلوق
الخارق للمألوف الذى كان يتعدى قبضة تلك القوانين الفولاذية ؟

وقد لاحظت عليها أيضاً أنها لاتنام الليل أبداً . وقد كان الفجر
يلقاها شامخة متجهة بصدرها إلى الغرب ، وقد أولت ظهرها بحركة
عدوانية إلى بركان الشرق المتقد .

ساهرة ، كانت ترشف شفاتها تيارات الليل كلها . وفى صمت
راقدة على المقعد كانت تبلع النجوم ...

كل النجوم ؟

كلا .

تمكنت من أن ألاحظ أنها كانت ترنو حاملة بحنين ولهفة إلى نجم
واحد من بين النجوم كلها ، نجم أحمر كان يسحرها ويجذبها إليه
كمغناطيس لا فكاك من أسره ...

وتصادف أن كان يقضى إجازته بدوره على جزيرتنا أحد معارفى
يعمل بمرصد نيقوس الفلكى .

ذات ليلة أريته ذلك النجم الذى كان ينشر فى الفضاء بلا انقطاع
أشعة مثل أوراق وردة حمراء :

- أى نجم هذا ؟

- ألا تعرف هذا النجم ؟

- كلا .

- آه ، إنه النجم المعروف « المريخ » !

ألجم لسانى ، بهت . ثم تمتمت :

- « المريخ » ؟

- كوكب فى غاية الأهمية ، أقرب جيران الأرض . لا يبعد عنه
سوى مليون ونصف من الكيلومترات . أى مجرد قفزة برغوث ، إذا
ما قورنت بالمسافات الفضائية بين الأجرام السماوية . نجم أحمر هو ،
عرف بقنواته المشهورة التى أثارت الجدل بين علماء الفلك ، منذ قرن
ونصف من الزمان . بل وأحدث النظريات عن هذا النجم أنه كوكب
مسكون ، ومسكون من كائنات جد قريبة الشبه منا ، طالما أن قوانين
الحياة فى المريخ تماثل قوانينها على الأرض . تصور ، يا سيد فلامينى ،
أن يكون هناك أيضا رجال مثل رجال الأرض ونساء مثل نساء الأرض ،
تجمعهم عواطف واحدة ، بل وربما كان لهم الأجسام ذاتها ...

وقد مضت الإيضاحات العلمية المبهمة التي يدلى بها صديقى تدوى
فى سمعى .

شئ واحد من كل ذلك رن فى ذاكرتى مثل جرس جنازة .

- « نجم أحمر ... »

وهذه المرأة ذات الضحكة الحمراء ، التي لا اسم لها ، المجهولة ،
كانت ترنو إلى هذا النجم بحنين ويأس ، مثلما تتعلق أنظار سبية من
مركب الأسر بأرض أجدادها التي تغيب عن أنظارها مبتعدة .

لماذا ؟

ذات مساء آخر ، جاءت إلى بيتى لتصحبنى ، إلى نزهتنا التي
اعتدنا عليها بالقارب الذى اشتريته من ترسانة الجزيرة ، قارب رشيق
طيع مثل فرس يخطر على الموج ...

تصادف أن قرأت فى إحدى الصحف الأثينية مقالاً متخصصاً عن
كوكب « المريخ » لأحد علماء الفلك ، أعلن فيه أنه وفقاً لأحداث الشواهد ،
فإن كارثة كونية ستفجر قريباً هذا الكوكب الواهن الذى دبّت فيه
الشيخوخة ، وأوشك أن يبلغ آخر دورته الحياتية خلال هذا العام .

« ويعتبر المريخ ، على حد قول العالم المتخصص ، بالرغم من
حيويته الخداعة ، واحمرار لونه الموهم بأنه على ما يرام ، يعتبر نجماً
مقضياً عليه ، لا براء له ، على شفا الهلاك . أفة خفية تنهش أعماقه .
مرض عضال مضى ينخر فيه ويقوض كيانه ..

ثم استطرد المقال قائلاً :

« وربما تسنى لجيلنا الحاضر أن يستمتع بالمشهد البانورامى
المهول لدمار نجم المريخ ، سيتفتت النجم العجوز ، ويتحول آنذاك إلى
مطر غزير منهمر من الشهب المتقدة .

وبراءة قرأت عليها المقال .

أصغت إليه غير مصدقة ما تسمع . وقفت صامته متوترة .
وعندما وصلت إلى النهاية هجمت على كقط برى ، وقطعت الصحيفة
إرباً إرباً :

- هذا كذب ! كذب !

ومزق الصياح حلقها ، مثل نصل حاد يشق ثمرة خضراء :

- إنه وضيع ، الذى كتب ذلك . وضيع ! وضيع !

انهارت ...

تلقاها حضنى مثل هدية مريضة .

وعندئذ مالت المرأة برأسها على كتفى الذى لم يكن يتوقع ذلك ،
وقد انشرخ وجهها وانخرطت فى بكاء مرير ...

لماذا أثارها هذا المقال ، وأحزنها إلى هذا الحد ؟

ما هو إذن اللغز المخيف الذى لم يسبق معرفته ، المتجاوز للحدود
الإنسانية المختفى وراء ذلك المخلوق المحير ؟ وبين مخالب أى سر مريع
يتخبط ؟

ويا للكارثة التى ستحل بى !

إننى سوف أعرف ذلك بعد قليل !

ذات يوم تلقيت برقية من أختى تقول : «أنا مريضة ... عد حالا ...»

لم أعد . ماتت أمى . لم أرها ، لم أرافقها إلى مثواها الأخير ، فقد كفت أن أكون أنا . صرت حيواناً تابعاً للمرأة ذات الضحكة الحمراء .

ذات يوم سألتها :

– كفاك تهرباً ، وخبرينى ما اسمك ؟

ترددت أول الأمر . وأمسكت عزيمة الإجابة الجاهزة على طرف لسانها . لكنها ما لبثت أن اتخذت قرارها :

– ١٠٢٥٤ ، ٣٥٧ .

أجفلت !

– ليس هذا اسماً ، بل رقماً .

– إنه اسمى هناك عالياً ...

– أين ؟

انزعجت . عضت شفتيها كما لو كانت قد أسفت على كثرة ما أفلت منها . ثم رفعت كتفيها بازدياء :

– هلا أتيت لنرقص ؟

أمضيت شهراً معها بعد ذلك ، غارقاً فى النشوة والرغبة . وكلما ازدادت معرفة بهذا المخلوق الغريب ازداد حبى له . ويقدر استسلامها لى ومنحها إياى جسدها عن طيب خاطر ، بقدر ما كانت تمسك عنى بإصرار عينيها البريئتين وروحها العذراء .

ذات ليلة - وكانت عشية موتى ! - دعيت لأعود مريضاً . امتطيت بغلاً . فقد كانت قريته تبعد أربعة كيلو مترات من بقعتنا الساحلية . اضطررت أن أبيت بمنزل المريض . وفى مساء اليوم التالى تحركت راجعاً من حيث أتيت .

وصلت بيتى فى ساعة متأخرة من الليل . كانت ليلة صفراء ، كما لو كانت السماء قد أمطرت كبريتاً . ومضت كلاب سوداء ممطوطة تعوى ، وقد مدت أعناقها وسيقانها الأمامية مضمومة فى اتجاه القمر الميت .

جريت إلى بيتها . صمت مطبق . كان الباب موارباً . دخلت . فى غرفة نومها سمعت ملاطفات مكتومة ، وهمسات ماجنة من فم اعتصر كل ما حلا له من قبلات وأقبل الآن على الكلام .

أحسست بفأس خفية تهوى على ركبتي .

أرهفت السمع .

- تحييننى ؟

- كلا ..

(يا للعة ! ذات كلامها السابق تقوله الآن لرجل آخر ، ذات كلامها !)

واستطرد صوت الرجل المجهول قائلاً :

- طالما لاتحييننى ، لماذا منحتنى نفسك ؟

- أنا منحتك نفسى ؟

– أجل . أنت !

– أنت مجنون . كيف استطعت أن أمنحك نفسك ، وأنا لا أحبك ،
فضلا عن أنني لازلت عذراء ...

يا أيتها السموات ، أطبقى على الأرض وأهلكيها ! كلامها ذاته
هذه العاهرة ! بكلماتها البريئة تغطي أفعالها الفاجرة ! بكلمات الإنكار
من فمها تحاول أن تغطي عطاء جسدها .

– فاجرة ! ..

هجمت على غرفة النوم وقد أشرعت مسدسى فى يدي . رأيتها
هو وهى مستغرقين فى القبل . أطلقت النار على العشيق ! أفلت من
رصاصتى ، قفز من النافذة واختفى بعاره فى ظلام الليل ، الليل الذى
كان يزحف خارجاً فى الطريق مثل ضبع يلغ فى الفساد .

أما هى فلم أكن أريد أن أجهز عليها بالمسدس . كلا ! هذه لن
يكون بمقدورى أن أقتلها بطلقة رصاص ، لأنها لم تكن من مخلوقات
الأرض الطبيعية .

ضغطت على صدرها بركبتى . سمعت قرقرة عظامها الداخلية كما
لو كانت تريد أن تقفز من مكانها لتخرج من فمها .

تطلعت إلى دهشة مبهورة ، بريئة النظرة ، غير متبينة أى أذى
ألحقت بى ، فلما استشعرت الموت يزحف إليها ، قالت وقد علت
الابتسامة شفيتها :

- تقتلني ؟ أشكرك ! ما عدت أطيق الحياة على كوكبكم هذا الغبي ،
حيث الحب مجرد التقاء قذر بين حيوان وحيوان ... إننى أعترف لك
بالجميل .. والآن ، أحبك ... الآن ... اطبع قبلك على عيني ... أيها
الحبيب ... أيها الابن التعس لأرضكم الشريرة .. الآن ... وقد أحبيتك ..
أطبع على عيني قبلك .. خذنى لك .. عيناى .. عانق عيني .. إننى أموت ...

شرعت تذوب ، تنطفئ ، تتضاءل بين يدي ، كما لو كان ثمة ريح
يقطعها إرباً إرباً . كانت أجزاء جسدها تتحلل وتتبخر ، الواحد فى إثر
الآخر ، كان العدم يتصاعد من قدميها إلى جذعها ويبدها .

أما أنا فقد مضيت أحضن جسدها الذى راح يتناقص . اندثر
صدرها ثم أعقبه ذراعها ومن بعدهما رقبتها ثم رأسها ، كل هذا انطفأ
بدوره . وفى النهاية تلاشت عيناها البريئتان اللابشريتان اللتان
لم يستمتع بهما لحظة موتها سوى على الأرض .

عندما خلا السرير من جسدها كله ، رأيت على يدي عينيها . أه ،
لم ترحلا ، إذن ! بقيت عيناها وفيتين لجسدى وظلتا تحديقان فى بنظرة
حية منبعثة من امرأة عاشقة .

أخذتهما مرتعشاً وحافظت عليهما كشيئين نفيسين ، كجسدين
مقدسین لنعمة البصر ، لأن هاتين العينين ستقودانى ، عندما سأظهر
من أدرانى الأرضية ، وعندئذ كنجمين يضيئان طريقى سترشدنى
عيناها إلى السبيل الذى أسلكه لأذهب وأجدها . وسأذهب لأجدها فى
بلدها البعيد ، فى بلدها المهذب ، فى بلدها البعيد ، فى بلدها المهذب ،
فى بلدها الطاهر ، هناك !

وبرأه المحلفون .

الحمامة والصقر

إيفانجيلوس أفيروف - توسيتسا

يحكى أنه فى العصر المجيد لزيوس ، عندما كانت الروح ، وعلى الأخص على هيئة الحب ، تسود الأرض ، وقع صقر قوى فى غرام حمامة بيضاء فاتنة . كيف وقع فى غرامها ولماذا ؟ ما كان بإمكان أحد ولا حتى سيد آلهة الإغريق ، أن يعرف . كل ما هناك أن حباً جارفاً نبت فى قلب ذلك الطائر الجارح الفظ ، فمضى يغازل الحمامة البيضاء . كان ما أن يراها خارجة من عشها حتى يهبط فيكاد يلامس الأرض ، ويرىها ما يستطيع أن يأتية جناحاه القويان ، ثم يوجه إليها من بعيد أعذب الكلمات . وباختصار ، سعى بكل الطرق إلى أن يدلل لها على حبه .

أول الأمر ، كانت الحمامة تحس بالخوف منه ، وتعتمد إلى الاختفاء ما أن تراه ، متصورة أنه يريد أن يمسك بها ، وينشب فيها مخالبه لافتراسها . إلا أنها بعد أن لاحظت المرة تلو المرة أنه كان بإمكانه أن ينقض عليها لكنه كان يحجم عن ذلك ، وتبينت ملاحظته لها وسمعت كلامه الرقيق ، فهمت فى النهاية . وعندما فهمت راق لها الصقر .

كان شرساً قوياً . وما كان يرقُّ إلا لها . كان جد مختلف عن رفيقها الذى يظل راقداً على البيض عندما تهرع لترى الزهور والشمس أو لترى ، وهذا منذ أمد ليس بالبعيد ، الطائر الوسيم . كان الزوج المسكين يكرر كل يوم الحديث عن التوافه ذاتها ، عن الغذاء والعش ، عن الحر والبرد . أما الصقر الرشيق فما كان يشير إلى مثل هذه المشاغل اليومية ، بل كان يتطرق فى حديثه إلى موضوعات أخرى . ما كان ينطق إلا بكلمات عذبة ، وإن كانت غريبة ، وبعبارات تخبى اللب . كان واضحاً أنه لم يكن يتوانى عن أى شىء يغرى به الحماسة الوديعة .

وعلى المدى الطويل ، لم تعد لديها بطبيعة الحال القدرة على المقاومة . كانت مسحورة به . وذات يوم ، قبلت أن تذهب للنزهة معه .

قالت له :

- لكننى لا أريد أن يرانا أحد . أين نذهب ؟

أجابها :

- سنصعد عالياً فى السموات . أنت تعرفين كم هى زرقاء ، هذه السموات .

- أجل ، إنها كذلك . لكنها تملؤنى خوفاً .

- ولماذا تخافين ؟

- لأنها رحيبة ، رحيبة وغامضة .

- وهل تعتقدين ، يا حمامتى الغالية ، أن الأرض صغيرة ، وأننا نعرف أرجاءها كلها ؟

- عشى تحت السقيفة صغير . والأحجار التى أخرج إليها لأنعم
بالشمس جد قريبة. والحدائق التى ألتقط منها غذائى مجاورة. كما أنها
زاخرة بالزهور والورد .

- وهى مليئة بالحسك والشوك أيضاً . أما السموات فهى خالية
من ذلك .

- ولكن يا صقرى المتوحش ، السموات تحتوى على صواعق زيوس !
رد عليها ضاحكاً :

- إن صواعق زيوس ، لا تبرق إلا نادراً . وعندما تبرق فإن
وميضها يصفى مزيداً من الوضوح على ما يزخر به الفضاء من جمال
وشاعرية . وسواء ومضت فى زرقة النهار أو فى سواد الليل فإنها تبعث
إلى العالم برسائل غامضة مكتوبة بأحرف من ذهب . يجدر بك أن
تكراهى الحسك والشوك الذى لا يصدر عنه وميض ، ولا ينقل أية رسائل .

- ربما كنت على حق ، ولكنى جناحى أضعف من أن تجابها
السماء وصواعقها .

- جناحى ليسا ضعيفين ، وسأكون بجوارك . سيحميانك أنت
وحلم حبنا . تعالى ، تعالى ، يا كنزى الثمين ، نوقى هذا الحب فى
حضن الأثير ، ذلك القصيد الأزرق . تعالى ! إنه المكان الوحيد فى
العالم الذى يليق بهذا الحب الفريد بين صقر قوى وحمامة بيضاء
رشيقة. تعالى ، لا تردد .

- إننى أرتعد ، يا صقرى الشجاع . أتردد .

- يجب أن لا تخافى أبداً مما هو جميل ، ولا أن تجزعى عندما يوشك الحلم أن يصبح حقيقة . إن الجمال بانتظارك ، والحلم أيضاً .
تعالى ، يا كنزى الذهبى !

معا ، فتحا أجنحتهما وطارا . وكيف كان بإمكانها أن ترفض أن تتبعه ؟ إنه يقودها إلى الجنة ، تلك الجنة التى كانت تقنع فى ذلك الحين بتخيّلها ، وهما هى تكاد تصير بالنسبة لها حقيقة .

راح الصقر يتمهل قدر الإمكان فى طيرانه ، بينما مضت الحمامة تضرب بجناحيها بأقصى سرعتها . وأخذا يرسمان بحركتيهما دوائر صاعدة حتى وصلا إلى ارتفاع جد شاهق .

سألها :

- هل ترين كم هو جميل المنظر من هنا ؟ لم يقع ناظراك على ما هو أبداع قط .

أجابته قائلة :

- إنه رائع حقاً ، رائع ، لكننى أشعر بالتعب .

تأثر بحبهما زيوس ، الذى كان لا يكاد يفرغ من حب حتى يقع فى حب غيره ، فأصدر أمره إلى سحابة هينة أن تنساب إلى جوارهما ، سحابة صغيرة تكاد تتسع لهما ، وتكفى كثافتها لتحملهما .

وسرعان ما لمحت عين الصقر المدربة هذه السحابة ، فقال للحمامة :

- بدلا من أن يرسل زيوس صاعقة ، أرسل إليك سريراً ناصعاً .
تعالى لتستريحى .

توجهت الحمامة مسرعة إلى الفراش الرباني . ولكن ما أن رقدت عليه حتى انقض عليها الصقر بقواه كلها . وقال لها :

- إن آلهة الأوليمب يباركون الحب . ولهذا فإنهم يهدونك فراش الأحلام . وعلى هذا المرقد الوثير بعيداً عن دمامات الأرض ، وفي أحضان هذه القبة الزرقاء قريباً من الشمس الذهبية ، أمرت الآلهة أن تصيرى لى ...

لم يكن لدى الحمامة الصغيرة متسع من الوقت كي تدافع عن نفسها أو تعلن اعتراضها . وربما كان التعب قد نال منها ، وخشيت أن تهوى ساقطة من هذا السرير الضيق الذي منحه لها زيوس . وربما أيضاً لم تكن لديها الرغبة في أن تقاوم . ما من أحد يعرف ما قالت في أعماقها الداخلية ، أو ما إذا كانت قد قالت شيئاً على الإطلاق. وعلى كل حال أصبحت له ..

ولكن ما إن أطلق الصقر سراحها ، وأحست بلذة مفاجئة وغير معروفة تجتاح جسمها حتى انتاب الحمامة العفيفة الخجل ، وذلك لأنه على خلاف ما جرى بين البشر فإن الإخلاص بين الزوجين هو عند الحمام القاعدة السارية .

ويا لها من خيانة تلك التي ارتكبتها ! ومع عدو لبنى جنسها ، يطارد أقرانها ويفترسهم . إلى أين سيقودها هذا الطيش غير المعقول ؟ كيف سيمكنها الحياة بعيداً عن الأمان تحت الأسقف ؟ وأي حياة سوف تكون تلك هناك في الأعالي بين السحب ، أو على قمم الصخور المقفرة ؟ يا إلهي ، ماذا سوف يكون عليه الغد ؟

ودون تفكير ، ألقت الحمامة الصغيرة بنفسها فى الفضاء . تذكرت كيف رأت الصقر يهبط من أعالي السماء ، تذكرت النحو الذى يلصق به جناحيه إلى جسمه مثل شفرتين من رقائق الصلب ثم يغطس ، ورأسه إلى الأمام ، نحو الأرض . لماذا إذن لا تكون بدورها قادرة على أن تنزل بالطريقة ذاتها التى ينزل بها هو ؟ سوف يمكنها ذلك .

وغطست ، مستوحية منهجه . وكان هبوطاً مدوحاً مسكراً ، ولكنه كان أيضاً هبوطاً عن ثقة .

وفقط عندما رأت نفسها قد اقتربت من الأرض ، تبينت فجأة أن القفزة أكثر خطورة مما توقعت . فبسطت جناحيها واستحالت الشفرتان الرهيفتان من جديد إلى ريش شامخ . حركتهما قليلاً فى الهواء الفاتر الصاعد من الأرض ، وبرفق حطت الحمامة على النجيل الأخضر ، ثم جرت تخبئاً فى عتمة عشها إلى جوار خلها الوفى الوديع .

وطوال أيام عديدة ، لم تتركه ولم تبتعد عن جواره . وراح الطائر الحصيف الذى يراقب أرجاء الناحية بنظرات حذرة ، يحكى لها أن ثمة صقراً غاضباً بدت عليه نوازع الشر جليلة يحوم ليل نهار من حولهم . وأكد لها أن الأفضل ملازمة العش حتى لو كان فى ذلك معاناة من ضيق الأنفاس بعض الشيء .

وفى الصباح أبلغها أن الطائر الجارح قد اختفى .

لم يعد الصقر الولهان يظهر فى الأفق ، كما لم يعد أحد يعرف ماذا جرى له .

ولكن منذ ذلك اليوم ، سواء بحثًا عن طائرها الوسيم ، أو رغبة في إحياء ذكرى حلمها القديم ، مضت الحمامة البيضاء تكثر من مغادرة عشها . صباح مساء ، فى زرقة السماء ، والشمس تلمع على أديمها ، كانت تطير عاليًا جدًا وتختفى بعض الوقت فى الفضاء كى تنزل بعد ذلك ، كما نزلت من قبل ذلك اليوم المبارك ، يوم أن عرفت الحب الكبير .

لم يكن خلها الأمين يفهم لماذا تعتمد إلى هذه اللعبة الخطرة ، ولم يكن يحنو حنوها قط . ولا حتى صغارها كانوا يفهمون هذا الذى تقدم عليه أمهم ، وإن كان ذلك لم يمنعهم من أن يجربوا معها ، وأن يشعروا بلذة ما يفعلونه ربما كان بعض هؤلاء من سلالة الصقر . أو ربما على العكس من ذلك أيضًا ، كانت ومضات الصواعق الربانية والخطر المهدد يجعلهم أشد التصاقًا بعشهم المظلم الخانق ولهفة للعودة إليه ، فينقضون من عليائهم إليه نازلين . ولا حتى زيوس نفسه يمكنه أن يقول فى هذا الشأن قولاً قاطعًا . كل ما كان معروفًا أن أولاد تلك الحمامة وأحفادها وأولاد أحفادها مضوا يواصلون الرحلة الرومانسية التى كانت تخرج إليها الجدة العاشقة .

ذلك هو أصل اللعبة التى يؤديها « الحمام المنطلق كالسهم » تلك اللعبة اللا معقولة التى لا يعرفها سوى أولئك الذين قضوا بعض الوقت فى مدينة أو قرية من مدن وقرى اليونان الشمالية .

وهذا « الحمام السهم » طيور رشيقة ، طويلة المناكير ، وجناحاه يشبهان شفرتين من رقائق الصلب . يحتفظ بها فى أبراج صغيرة دائماً . ولكن عندما تصفو السماء ولا يهطل المطر ، يخرجها أصحابها فى الصباح والمساء . ويدفعونها إلى الطيران مشجعين إياها بالصوت

والإيماء ، فتصعد إلى ارتفاعات شاهقة في السماء راسمة في صعودها حركات لولبية رحيبة . وكثيراً ما ترقى إلى أبعاد تجعل من الصعب على من يتطلع ناظراً إليها أن يميزها . وحينما يدعونها فإنها تنزل على هيئة انقضاخ عمودي في خط رأسى لا انحراف فيه ولا تعرج .

عديدون هم أولئك الذين في اليونان الشمالية ، قد حضروا هذا العرض المثير ، الحافل بالحماسة والجسارة والبهجة . لأن الكثيرون هناك يقتنون ويربون حماماً من هذه السلالة .

الأحزان

إيمانويل ليكوذيس

حدث ما سأرويه لكم فى ميناء بالمضيق الكورينتى ، على شاطئ
اليونان الوسطى ، عند مرفأ تنعكس على صفحة مائه ، مثلما فى مرآة ،
البيوت وقد اصطففت فى خط مستقيم بلا كثافة ، ويلوح أمامك جبل
المورياس الذى تتوجه عالياً قمم سيرياس ، وإن شئتم فلنقل إن
ما سأرويه لكم قد حدث فى فيترينيتسا أو فى إيتيا .

على مبعدة قليلة من الشاطئ ، رست سفينة شراعية ، جميلة
الشكل ، قشبية الصنع ، ناصعة البياض كما لو كانت قد نزلت تتهادى
من النجوم . كانت السفينة مهيأة للإبحار . بدا ذلك واضحاً من العلم
المرفوع بأعلى صواريها ، وأشرعة المقدمة والمؤخرة المنبسطة كلها على
السواء .

رأيت فجأة قارب النجاة يحل من مؤخرة السفينة ، ويخرج به بحار
وحيد يمسك بمجداف الخلفية ويديره مثل عجلة قيادة ، وعند الحافة
الأمامية وقف كلب من كلاب السفن يعوى عواء حزيناً .

رسا القارب عند الساحل الرملى ، أمام صف من الدكاكين ، وعلى وجه التحديد أمام قاعدة نصبت بأعمدة غرست فى البحر ، كى يأخذ هناك عشاق التدخين نراجيلهم دون أن يتكبدوا مشقة النزول إلى الشاطئ . رسا القارب ، فرأيت البحار يمسك بالكلب الأسود من ظهره وعنقه ، مثلما يمسك بشاة ، ويدفعه بقوة ملقيا به إلى اليابسة . وما إن ألقى به حتى انطلق بضربات شديدة من مجدافه مندفعاً بسرعة نحو السفينة .

لكن الكلب ألقى بنفسه إلى البحر ، فى أعقاب القارب ، ومضى يسبح وهو يعوى عواء حزيناً ! انكب البحار على مجدافه الوحيد جاهداً قدر إمكانه أن يقطع بقاربه أقصر طريق ، ولكن الكلب بدوره ، يائساً ، راح يضرب الماء بسيقانه حتى لحق بالقارب .

رفع البحار المجداف وقد توحش غضبه ، وضرب الحيوان التعس على رأسه ، قائلاً : « بعيد المنال عليك ذلك ! .. أظننت أنك ستعود من جديد إلى السفينة ؟ » .

أطلق الكلب التعس عواء أكثر حزناً ، ربما من شدة الألم ، أو ربما من شدة الجرى . ولم يحاول بعد ذلك أن يمشى فى إثر القارب ، بل راح يضرب الماء بسيقانه ، بلا هدف ، وبلا قصد ، لمجرد ألا يغوص فى اللجة .

لحق القارب بالسفينة . ربط البحار القارب بمؤخرتها ، وقفز إلى ظهرها ، وهى ماضية فى الإقلاع . اصطكت السلاسل بشدة ، ثم رفعت المرساة إلى الداخل . كانت الريح تهب طيبة من الشمال الغربى ، وفى التوائتفت أشرعة السفينة بالهواء وانسابت فى اليم مثل ثعبان

الماء . تاركه خلفها شقا يفور بالزبد ، متجهة بسرعة ومضاء نحو بحر إيجة .

ظل الكلب يعوى ، يدفع الماء من حوله مغلوبا على أمره يتخبط ميمما شطر الأغوار البعيدة حيث رحلت السفينة . ولكنها كانت قد ابتعدت كثيرا ، وفى النهاية أطبق عليه اليأس . أدار رأسه نحو اليابسة ، وبعناء وجهد كبيرين تمكن من الخروج من الماء ملقيا بنفسه مثل جثة هامة على أكوام الطحالب التى كدستها هبات الريح ، تحت القاعدة التى قلت لكم إن صاحب المقهى كان قد أقامها على أعمدة غرسها فى الماء .

وما أن بلغ الكلب الشاطئ حتى نهض واقفا ، ماداً رقبتة ، ماضيا فى نباح يمزق الفؤاد ، وهو يلوح صواري السفينة البيضاء تفوص مختفية باهتة فى ضباب البحر الرحيب . كانت بطنه تنتفخ بالهواء الذى يستنشقه بشدة ، وترتعد فرائصه بردا ، وتسيل من عليه قطرات الماء المالح ...

كنت أراه هناك طوال ثلاثة أيام ، وقد أقعى لايفادر مكانه على الشاطئ ، ولا تحيد أنظاره عن عرض البحر أبدا . حملت إليه هناك تحت تلك القاعدة على الشاطئ بعض العظام وكسر الخبز ، ولكنه لم يقرب شيئا منها ! وما أراد حتى أن يتشمم طعاماً . وقد راح جسده يضمز ، ولا تقوى سيقانه على حمله من شدة الضعف والهزل . فإذا دعت الحاجة إلى القيام بدت أطرافه كما لو كانت قد أصيبت بالكساح . ونفرت من تحت جلده الضلوع .

كانت الأولاد تسومه مر العذاب ، لأنه كلب من غير صاحب ، وعلى حد قولهم كلب من كلاب الشوارع . كانت الحجارة تنهمر عليه مثل المطر المدرار ، فتصيبه بمزيد من الرضوض والأوجاع . ولكن الغريب فى الأمر ، أنه لم يكن ينوى أن يغادر مكانه . هناك تحت أخشاب القاعدة ! ومن يدري ؟ ربما خيل له أنه هناك تحت سقف سقينته وبيته . وعلى الرغم من كل شيء ، فقد أنزل به الأولاد من صنوف العذاب ما جعلنى أتساءل كيف أنه لم يلق بعد ؛ حتفه على أيديهم .

ذات يوم ، بعد أن لطفته كثيرا ، عقدت منديلا حول عنقه ، وأردت أن أخذه معى إلى بيتى الذى كان على مقربة من الشاطئ .
تبعنى بلا ممانعة ، وهو يهز ذيله .

وعندما وصلت إلى البيت فضضت المنديل من حوله عنقه ، وربت على جسده كثيرا .

نظر إلى بعينى كلب مخلص نظرات مفعمة بالود والعرفان بالجميل . عينان ، وإن كانتا عينى حيوان إلا أنه قد ارتسم فيهما كل ذلك الأسى العميق الذى يمزق روحه ، وبعد أن لعق يدي ابتعد منصرفا بخطوات ثقيلة . وما لبث بعد هنيهة أن أدار رأسه ، والتفت نحوى هازا ذيله ، وعاد ينظر إلى من جديد بعينيه المتألمتين ، ثم غاب مبتعدا .

أحسست بأحاسيس ذلك التعس . لم يكن يريدنى أن أسىء فهمه . كان فمه عاجزا عن الكلام ، ولكن النظرة الشجنية بدت كما لو كانت تقول لى : « لا تعتقد أننى ناكر للجميل ، لكننى أريد أن أُلْفَظ أنفاسى

الأخيرة هناك تحت أخشاب القاعدة حيث يبدو لى المكان شديد الشبه بسفينتى . هناك ، أريد أن ألفظ أنفاسى متطلعا إلى عرض البحر ، مستنشقا رائحة الملح التى تأتى بها الريح .

ولكن كم كانت هذه الريح تزيد من آلامه !

هناك ، تحت ذلك الركام العطن الذى اختبأ فيه ، عندما كان البحر منخفضا والماء جزرا ، كان يتاح للمسكين شبران من اليابسة يقع عليهما منكمشا على نفسه ، راقدا بين الطحالب المبللة . ولكن عندما تهب الريح ، ينتفخ البحر وتغمر مياهه ركامات الطحالب كلها ، وتغطى الكلب واقفا حتى بطنه .

ولكنه لم يكن يتزحزح عن مكانه هناك . فقط عندما كان يسمع صليل سلاسل مركب يلقي بمرساته ، كان ينهض ، ويخرج من فجوته المظلمة ، يتفحص البحر بنظراته ويتشمم الهواء . وعندما يقترب من الشاطئ قارب ، يجرجر نفسه إلى هناك هازا ذيله للبحارة لكنهم كانوا يرمونه بالحجارة ، لأن سمات السعار كلها اجتمعت فيه ، فى هذا الكلب القذر اللعين . كانت عيناه الغائرتان تلمعان ، وكان يدس ذيله بين فخذه على الدوام .

وفى النهاية ، قرار أصحاب الدكاكين على الشاطئ أن يربطوا فى عنقه حجرا ، ويغرقوه فى أعلى سلم الميناء الخشبي ، لأنه كان يعوى كثيرا فى الليل ، فيثير جواً من النحس يدعو الموت إلى اختطاف الأرواح .

وقد عانيت كثيرا ، وتوسلت إليهم أن يغيروا من رأيهم هذا . مضيت أقول لهم إنه إنما يبكى من شدة حزنه ، ولكن ما من أحد كان

يريد أن يستمع إلى . أما الذى جعلهم يسكتون ويعدلون عما كانوا يزمعون فهو ما أخبرتهم به من أننى أعرف عن هذا الكلب أنه لا يقرب طعاماً ، وأنه خلال يومين ، على الأكثر ، سينفق وحده .

جاعتنا بالأمس سفينة صيد ذات أشرعة بيضاء ، وعند الفجر ، فى الثالثة بعد منتصف الليل تقريبا ، كنت فى قاربها ألقى الشباك ، كى أرفعها عند طلوع النهار .

كنا قد أوغلنا إلى عرض البحر كثيرا . وعلى الرغم من ذلك ، بينما كنت أرمى الشبكة ، تناهى إلى سمعى مع هبات الهواء الوافدة فى تلك الساعة من اليايسة عواء الكلب واهنا يلفظ أنفاسه .

وبعد قليل ، على الرغم من أن الموج قد دفع بنا على مقربة شديدة من الساحل ، ماعدت أسمع صوته . كان ذلك وقت أن بزغت من وراء جبال ذيسفيناس نجمة الصباح .

لم أعد أفكر فى الكلب ، وانهمكت فى صيد حتى طلعت الشمس . أخرجنا شباكنا كلها فى النهاية ، ويممنا صوب الشاطئ عائدين .

هناك على الرمال ، عند حافة الماء ، كان يرقد الكلب ، بالهيئة التى يرسمون عليها أبا الهول ، ساقاه الأماميتان ممدودتان ، ورقبته مشرئية ، وعيناه مصوبتان إلى عرض البحر تحدقان بعيدا .

لكنه كان ميتا ، كانت عيناه المحملقتان منطفئتين زجاجيتين ، وكان جسده متخشبا .

وعندئذ قال الصبى البحار الذى يمسك بمجداف قاربى :

- ياه ، إنه الأعرج ! يا للكلب المسكين ! قالوا كلمتهم ، ونفذوا ما قالوه ، أولئك الذين لا تعرف قلوبهم الرحمة ...

هذه الكلمات المفعمة بالأسى على الحيوان المسكين شدتني إلى البحار الصغير ، وجعلتني أحس بالتعاطف معه ، فقلت له :

- أتعرف ، يا بني ، هذا الكلب ؟

- وكيف لا أعرفه ؟ إنه الأعرج ، كلب سفينة من جزيرتي . سفينة نيكولوستامبا . قالوا إنهم سيطرونه وقد فعلوا .

- ولماذا طردوه ، يا بني ؟

- لم يكن شريرا على الإطلاق ، مهما فعلوا به . ضربوه ، شدوا وثاقه بالسلاسل كي يثيروا ضراوته ، ولكن دون جدوى ! كلاب السفن ، كما تعرف يا سيدي ، يجب أن تكون شرسة ، متوحشة ، يجب أن تعلو أصواتها بالنباح ، وتكشر عن أنيابها . أما هذا الكلب ، فقد ولد وديعا طيبا . كان يهز ذيله لكل من تطأ قدمه السفينة . لم يكن يعتبر أحد لصا ، لم يكن يتوجس في إنسان شرا ...

حقا ، كم كنت مخطئا أن أظن إلى تلك اللحظة أن الإنسان وحده تقضى عليه طبيته !

دروب وعرة

ستراتيس تسيركاس

دفعة فى إثر دفعة ، تركته يأخذ منى ما يقرب من مائة جنيه ، على أمل أن يقرر الزواج بى . كم شقيت وامتهنت حتى أجمع تلك الجنيهاات الثلاثمائة التعسة ، بأتى التى ليس لى غيرها . أيتها الداعرة ، بهذا النعت ، فى غدوى ورواحى ، كان يسبنى المعارف والأغراب .

لكن ذلك اليوم اللعين من أيام الأحاد ، كنت على استعداد أن أعطيه كل ما يطلب . مضى عليه أسبوع ولم يحضر ، وقد تعودت أن أراه يوماً بعد يوم ، أو على الأكثر كل يومين ، فكنت على أحر من جمر ، أنهش نفسى . قلت : "إلهى ، فليأت برهة فحسب ، يشرب قدحاً من القهوة ، ولا يعنينى أن يرد إلى الجنيهاات المائة ، بل سوف أعطيه غيرها . حلال عليه ! "كنت قد ألفته كثيراً . أحببته .

كلما سمعت المصعد يصعد ، ينتابنى شعور غريب . تتقطع أنفاسى ، وتهن ساقاى ، كما لو كانتا قد صنعتا من القماش . ساقاى الاثنتان ، السليمة والمريضة على السواء . أنهض وأذهب إلى الباب . لكن لم يكن

ثمة أحد أت إلينا . المصعد يقف فى طابق آخر ، فأعود وأجلس مع فولا فى غرفة الاستقبال الصغيرة .

لم يكن لدنيا فساتين نحيكها ، ولم تكن ننتظر زواراً . خرجت الفتيات مع أصحابهن ، ينعمن بيوم الأحد . وكان الجو مشمساً ، وبهيجاً . كنا فى يناير ، ويخيل لك أننا فى الصيف .

ظلت أنا وفولا ، مثل البوم ، محبوستين فى العتمة . راحت تقول لى ما ألفت أن تردده على الدوام ، حكايات عن أرواح ، وجرائم قتل ، وأمراض ، وإخفاقات ، وسحر ، ومن وقت لآخر ، تزج بالقديس فانورى فى حديثها .. روى تنقبض .. هذه المرأة تملأنى تعاسة . لا أذكر قط أنها خلعت ثيابها السوداء ، التى تفوح منها رائحة الجثث "اسكتى ، اسكتى ، من فضلك ! أنزلى القدر من النار ، وقدمى لنا الأكل " .

انتظرناه طويلاً . على المائدة خيم علينا الصمت . كنا نزدد الطعام بصعوبة . بين الحين والحين ، ترفع فولا عن صحنها عينيها المصابتين بالحول ، وتنظر إلى . كانت تتحين فرصة أسمح لها فيها أن تعاود حديثها المكرور من جديد .

قلت إنه سوف يأتى ساعة تناول القهوة . اعتاد ذلك . ولكن حتى آنذاك لم يظهر .

فى الثالثة اتخذت قرارى . قلت : "فولا ، ارعى البيت . إنى ذاهبة . سوف أتظاهر بأننى أمر أمام البيت . ربما كان مريضاً ولا نعرف نحن ذلك . على أسوأ الأحوال ، لنقل إننى قمت بنزهة فى هذا الجو المشمس ..." قالت لى : "كما تشائين . احذرى فحسب أن تلتقى بـزوجة أخيه ، لأنها

سليطة اللسان . إنه يقطر سما . أخبرتك بما كانت تقوله منذ أيام
لستيليانا بشأنك" . قاطعتها قائلة : "أعرف ، أعرف !" ونهضت
أغير ملابسى .

انكشيت فولا فى ثيابها السوداء ، وتمتمت بشيء ، عن فطيرة
القديس فانورى التى مادامت قد خبزت ، فإنها سرعان
ما ستحقق ما نذرت من أجله .

كان يقيم مع أهله بعيداً ، على مشارف المدينة ، فى حى فقير ،
يكتظ ببيوت واطئة وتتناثر فيه الحقول . فى الترام كنت قلقة خشية أن
أتوه فى الأزقة ، ولا أعثر على بيته . شرحت لى فولا ماذا أفعل كى
اتفادى طريقاً أطول . قالت لى : "الأمر سهل" قلت لها : "يبدو الأمر
سهلاً لك أنت . أما أنا التى تختلط على الشوارع ، وبساقى
هذه ... فالدروب وعرة .."

كان هذا الأمر يشغلنى ، فلم أكن أرى الشمس الساطعة بالخارج .
ثم انصرف ذهنى إلى أمر آخر . ماذا لو كان مريضاً حقاً؟ مريضاً للغاية؟
كيف أتبين ذلك؟ ربما ستكون أمه فى الشرفة ، وترانى أمراً ،
فتنادينى . فى لحظات مثل هذه تحدث أمور كهذه . ربما تشفق
على وتدعونى للدخول ، وذلك - إن شئنا القول - كى تدخل البهجة إلى
قلب ابنها .

كنت أبتسم وحدى . ولكن كيف أنسى ماقالته زوجة أخيه لستيليانا ؟
ذهبت زوجة الأخ إليها ، تدم حماتها : "أعتقدين أنها طيبة ؟ أنت

واهمة ! إنها عجوز داهية . حفظنا الله من شرها . ألم أخبرك ماذا قالت عن صاحبته ؟ قالت أفضل أن أراه لصا قاتلاً ، معلقاً فى المشنقة على أن أتركه يتزوج هذه العرجاء العاهرة . إذا كان يلهو معها ، ويضمن مصروفاً لجيبه ، إيه ، فإننى أتظاهر بأننى لا أفهم . أما إذا تعلق الأمر بالزواج ... " هذا ما أخبرتنى به فولا نقلا عن ستيليانا . على أننى كنت أعود فأقول لنفسى ربما لم تقل ذلك ، ولا حتى دار بخلد العجوز ، ولكن تشيعه زوجة ابنها ، فهى تعرف أن هذه الأقوال ستصل إلى سمعى ، وهى تعادينى ، كما لو كنت قد ارتكبت فى حقها جرماً . وأنى لى معرفتها ، هذه القذرة ؟

وهكذا تارة أبتسم وتارة يخيم على الوجوم ، حتى وصلت إلى النبى إيليا دون أن تبين ذلك . صعدت الدرجات وأوقدت شمعة كبيرة من فئة الخمسة قروش ، أمام أيقونة القديس استيفان ، راجية أن يكون مريضاً حقاً . قبلت أعتاب النبى وخرجت . اجتزت الفناء ، كما قالت لى فولا ، ووجدت الباب الخلفى موارباً .

ولكن ما أن وطأت قدمى أرض ذلك الدرب حتى انتابتنى رعشة ، كما لو كان ثمة ما ينذر بالسوء . جلدى الذى كان قد اتقد فى الشمس صار الآن جعداً . على الجانبين حوائط ، ومن وراء أسوار البساتين تميل أشجار ، تطل على الشارع . تتلوى أغصانها المعقدة مثل خصلات معزولة على هيئة قناطر خضراء وكهوف قاتمة . عصافير صغيرة كانت تملأ الجو بزقزقتها . ثم ترفرف أجنحتها فجأة ، وتطير معا مبتعدة . كان الشارع الطويل تقطعه من وقت لآخر أزقة تصب فيه مثل أبسطة من أضواء معتمة .

أخذت أسير . من يسارى ، خلف سور أحد البساتين نبج كلب .
أحسست بساقى تميدان من تحتى . كنت أخاف الكلاب دائماً .

لم أتوقف . عندما اقتربت من الزقاق الثالث إلى اليمين لمحت البيت
ذا السقف المهدم عند الناصية . خفق قلبى بشدة خلته سيتحطم ، ومن
ورائى كان الكلب ينبج .

تظاهرت بأنى أمر من هناك غير مكترثة . فى الشرفة وقفت أمه
العجوز . كانت ترتدى منديلاً جديداً ، ولكن إحدى عدستى نظارتها
كانت مشروخة . ومن وراء الزجاج اتسعت عينها واكتست ضراوة .
بدت كما لو كانت ترقبني وتتجسس على . قلت لنفسى : "لو تزوجنى ،
سأشتري لها نظارة جديدة فضية الإطار ، ولها جراب" .

هتفت العجوز منادية "فانجيليو ! "كانت فانجيليو ابنتها . ترملت
وأقامت بدورها هناك مع أطفالها . قلت ستيلىانا لفلولا إنها لم تكن على
وفاق مع الأرملة الأخرى ، زوجة أخيها سليطة اللسان .

وفى البيت أيضا يعيش يورغيس شقيقهم الأكبر ، النجار . ذات
يوم كانت هذه الأسرة من الأسر الكبيرة . ولكن الموت نزل بمنجله
وحصد وفرق الأزواج . وكم يحل الخراب بالأسر عندما يحط
مرض السل على رجالها ! .

لم أكن أعرف ماذا أفعل . هل أقف ، وأقول : "مساء الخير .
ما رأيك فى هذا الجو ؟ "كى أتظاهر بأئنى أبحث عن بيت بعض الناس
... كنت أعرفهن ، وهن يعرفتنى ، لكن كلا منا كانت تتظاهر بأنها
لاتعرف الأخرى .

جبت ، ومضيت فى سبرى . سمعت شباكا يفتح . أكانت فانجيليو ؟
صاح صوت ينادى : "ستيفان ! " كما لو كانت النار اشتعلت بالبيت ،
أو أن اللبن فآر فى إنائه على الموقد . دارت رأسى . أحسست قلبى
ينخلع ، ويسقط متدحرجا من مكانه . تعثرت خطواتى . ماذا يجرى ؟
هل سيخرج هو الآن ، ويطل من الشباك ؟ .

أجابها أحد الصبية ضجرا : "ماذا تريدن ؟ " كان ابن الأخت ،
ابن فانجيليو ، وكان اسمه ستيفان أيضا . لم أستدر لأراه . كانت
ساقى المريضة تزحف على الأرض وتثير ترابا . خيل لى أنى
أسمع ضحكا ورائى .

إلى يسارى ، زقاق أعرفه ، يقود إلى ساحة أقيمت عليها عمارات .
بسطح إحداها تقيم كولا ، صديقة قديمة . لكنى لم أستدر لأدخل هذا
الزقاق ، قلت لنفسى فلأمض إلى نهاية الشارع وأعود على مهل ، كى
ألقى نظرة أخرى .

على مبعدة من هناك ، كانت فيلا عصرية ذات سور من قضبان
حديدية . ليس بحديقتها أشجار . أرض خضراء فحسب ، وقليل من
شجر الورد ، وأرائك ، ومنضدة صغيرة وضع عليها طقم للشاى .
ويا للغرابة ، من أرى جالسا هناك ؟ السيد ديمتراكى ، أحد زبائنى .
كان يتردد علينا . فقد كانت له عشيقة من الشغالات عندى ، بنت سمراء
نحيلة ، شديدة الدلال كثيرة النزوات . أما الآن ، فهو يجلس ، وقد فتح
صدريته ، مستغرقا فى القراءة . زوجته امرأة مهندمة ، لاتزيد على
الخامسة والثلاثين من عمرها ، بيضاء الذراعين كانت دائبة الحركة ،

تعد الشاى . سوف يقول من لا يعرف الحقيقة يالهما من زوجين متآلفين ... تذكرت يوم أن أغمى عليه ، فدلكناه بالكولونيا ، تذكرت حمالة سرواله وبطنه المنبعجة . وقد أنشدنا نغنى ساخرين منه :

"يامدراكى ، يامدراكى ، لاتناسبك السمنة ، أيها البدين .."

لمحنى . طوى صحيفته ، ونهض يرمقنى فاغرا فاه ، كما لو كان قد رأى الشيطان أمامه . مضيت فى سبيلى ، ووصلت إلى آخر الشارع ثم قفلت راجعة ، بخطوات بطيئة حتى لا أرهق ساقى . مررت من جديد أمام القفلا . جلس الزوجان الآن يشربان الشاى . عندما رأتى ارتبك من جديد .

سمعتة يسأل زوجته : "من هذه ؟" كما لو كان يقول لى : "لا تأتى إلينا . ترين أنتى أظهار بأنتى لا أعرفك" . أما أنا ، فما كان حتى خطر ببالى شىء من هذا القبيل . أكان سيعلمنى مهنتى ؟ لكنى وددت أن ألقنه درسا على ما بدا منه حينما رأتى ، قلت لنفسى : "دعك منه الآن . سيأتى دوره يوما" .

وصلت إلى البيت ذى السقف المهدم . رأيت ستيفان الصغير منكبا على دراجة أسندها إلى الأرض . أخذت أهتف إليه فى قرارة نفسى متوسلة : "أين خالك ، أين خالك ، يا حبيبى ؟" .

كانت الشرفة خالية ، والنوافذ مغلقة . أكان يرقبني من ورائها أحد ؟ تعالى مرة أخرى صوت ينادى : "ستيفان" ودب الرعب فى أوصالى من جديد . سرت فاقدة الوعي ، مثل مخمور ، حتى الكنيسة .

ولكن بدلا من أفتح الباب الخلفى وأرحل ، عدت إلى الشارع ذاته ،
بخطوات عرجاء . ثمة مايجذبني . كنت أتوق حتى الموت إلى أن أراه ،
أن أعرف أحواله .

كان الصغير صاحب الدراجة قد انصرف . لم تكن ثمة بادرة على
وجود إنسان . شباك واحد ظل مفتوحا ، ومنه بدا سرير حديدى يغطيه
دثار ناعل ، ومرآة صدئة ذات إطار خشبى مذهب شديد القدم . ولكن
مرة أخرى انطلق صوت يقول : "ستيفان ! أطرده الشحاذاة التى تجلس
بالخارج !"

كانت زوجة الأخ ، سليطة اللسان . أه ، كم أثر فى ذلك تأثيراً
سيئاً . خطر لى أن أقف . أفتح فمى وأصيح : "أيتها القذرة ، أيتها
القذرات" ثم أقول : "أنا شحاذاة أم أنتن الشحاذاات ، تنتظرن لقمتكن
من رجل واحد" . وكنت سوف أمضى فأتحدث عن جنيهاتى المائة التى
سلبها منى - كنت سأقول : "إذا ، كانت حماك تلبس منديلاً جديداً
وأنت حذاء جديداً ، وفانجيليو خفا من الجوخ ويورغى العامل الفاشل
ربطة عنق حريرى ، فأنتم مدينون بكل هذه النقود لى أنا ، جاء إلى
عشية عيد القديس فاسيليو وطلبها منى" .

هممت أن أتكلم ، لكننى تماكنت نفسى وتركت غضبى يتبدد .
واصلت سيرى ، لأتنى لو كنت تكلمت لتكالبن كلهن ضدى ، وكان السير
جيئة وذهبا قد أضناني وأوهن قواى . تلهفت أن أعود إلى بيتى ، أه إلى
بيتى أعود وأستريح . ولكن ماذا أفعل ، وقد كنت سوف أصطدم
بديمتراكى ، لو مضيت إلى الأمام خطوة ، أردت أن أجلس فى مكان ما
هنيهة ، أشرب قدحا من الماء .

يممت شطرى إلى كولا . أعرف أن زيارتى لن تروق لها . كانت قد وفقت إلى الزواج من سائق قبرصى ، ورزقت طفلا ، بل وهى الآن فى انتظار طفلها الثانى . سعت المسكينة أن تقطع صلتها ، تقطع صلتها تماما ، بحياتها السابقة كلها . ولكن ماذا بوسعى أن أفعل أنا أيضا ؟ سأطلب منها كوبا من الماء فحسب ، وأجلس قليلاً أسترد أنفاسى من عناء السلم وأنصرف إلى حال سبيلى .

الطوابق أربعة ، ثم السطح . السلم مظلم ضيق ، درجات شاقة ، وعالية جدا . ظننت أنى لن أقوى عليها . وعندما صعدت ووصلت إلى السطح كانت بانتظارى فاجعة أخرى . لم يكن أحد بالبيت .

استندت إلى الحاجز وبكيت مليا . أحسست كأنى تخفت من همى . رفعت رأسى ، رأيت الشمس والبحر من بعيد قد غسلهما المطر ثم نظرت إلى الساحة حيث سمعت صوتا تحت . بعض الأولاد يلعبون الكرة بينهم ولد هزيل أحمر الشعر ، بساق كسيحة وعكازين لم يشركوه فى اللعب ، وتركوه يجرى يحضر لهم الكرة متى قذف بها بعيداً ، حتى لا يكلفوا أنفسهم مشقة إحضارها . كان المسكين يجرى ، يطوح ذراعه الحرة ، يطوح ساقه الكسيحة ، فإذا مالق بالكرة راح يركلها برجله السليمة ويدفعها بعكازه ، ويضحك وهو يلتقطها بيده ويقدمها إليهم . كان ذلك الفعل الصغير يملأه فرحا وهو ينظر إليهم . وعندما يتبين أنه تأخر فى إحضار الكرة ينحنى خجلاً .

ذلك الصبى أعاد المسكينة إلى قلبى . قلت : "سوف أمر من جديد ، للمرة الأخيرة . قد يخرج للقائى وإلا فإنى سأمضى فى سبيلى إلى بوابة النبى إيليا ، ومن هناك إلى البيت" .

نزلت بعزم جديد . بل كنت أقول لنفسي ربما أكن قد أفرطت في المرور أمام بيته . إذا كانت العجوز لم تتعرف علىّ في المرة الأولى فقد رأوني مرتين قُحسب . أهذا كثير ؟ ألا يحدث للمرء أن يمر بذات الشارع مرتين وثلاث مرات ؟ ثلاث مرات عدد كبير ، لكن مرتى الثالثة سوف تكون الأخيرة . سوف أنصرف ، وعندئذ فليقلن ما شئن . بعد ذلك أخذت أقلب قول زوجة الأخ عن الشحاذة . أذكر أنها لم تقل "التي تمر" أو "التي تحوم" بل قالت : "التي تجلس" وأنا لم أكن جالسة ، كنت مارة . ربما كان ثمة باب آخر بالخلف تجلس عنده شحاذة ، من يدري ؟ كانت الشمس مائلة إلى المغيب . كنت أقول لنفسي إنه لو كان قد ذهب إلى سباق الخيل ، فقد أن ميعاده أوبته . أه ، تبا لهذا السباق ، كم يجلب من الأحزان . ولكن مهلا ، سوف أجد وسيلة لأضغط عليه ، وأصرفه عنه .

دارت كل هذه الأفكار بخلدى إلى أن وصلت إلى الناصية التي يقع عندها بيتهم . كانت النوافذ مفتوحة ، دون أن يبدو أحد . فجأة سمعت صوت رجل ، وخفق قلبي . اقتربت دون أن أعى من السور ، وأمسكت بقضبانة الحديدية . لكنه لم يكن ستيفان ، بل يورغى العاطل . كان يطلق الشتائم ويقول : "كل يوم فاصوليا ، حتى يوم الأحد ، أيها الصغير ، أحضر ، أحضر الأوزو . هيا ، قلت لك بسرعة . اركب الدراجة !"

هممت بالتراجع - ولكن وا مصيبتاه . ماذا أرى ؟ الجميع معا ، أمه ، وفانجيليو ، وزوجة أخيه ، والصغير ، خرجوا بغتة إلى النوافذ

والشرفة ، ومضوا ينظرون إلى ! خرج يورغى أيضا . يبدو أن الصغير كان يراقبني .

أسقط فى يدي . خطوت متراجعة ، لكن اختلطت على الأمور ، بدلا من أن أسير فى الطريق الذى يؤدى إلى النبی إيليا ، دخلت فى الزقاق الآخر ، إلى اليسار ولم أكن أعرف إلى أين يقود . تظاهرت بعدم اكتراث من يمضى فى طريقه غير مهتم بشيء .. كان التراب طريا ، لم تكن قد وطأته الأقدام كثيراً من قبل . تعثرت مرة أو مرتين . انتابني دوار شديد لم أعرف ما إذا كنت قد سمعت حقا ضحكات أم أن أذني كانتا يدوي فيهما طنين .

وهناك سمعت حشرجة ورائي ، لم ألتفت ، لكنني حدست أن ثمة ظلا يقع على . لويت رقبتى ، أحسست بالتراب يملأ أنفى ، ورأيت ستيفان الصغير راكبا دراجته يقف أمامي وسط سحابة . ثم خفف قبضته على الفرامل . ومضى يدور بالدراجة حولى . كما يفعلون بالسيرك .

انتابتنى لوثة . انتابتنى الرغبة أن أقتل الصبى الصعلوك . كرزت على أسناني ، ووسعت من خطواتي . لكى أرحل ، من هذا الشارع ، حتى لا يروني . لكن الصغير ، كان هناك ، يعاود معي الحركة ذاتها ، مرة بعد أخرى . وكلما أمعن علت الضحكات .

غطاني التراب ، كانت أسناني تمضغ التراب الذى دخل فمي ، وزال أحمر الشفافة من على شفתי ولطخ يدي . تصيب عرقى . والتهبت عيناى . وساقى مضت تزحف على الأرض ، آه ، آه ، كفى ! أردت أن أصرخ . وفى النهاية ، أخذت أجرى .

لكن ، وا مصيبتاه . الآن ، تجيء الفضيحة الكبرى . عندما رفعت رأسى برهت رأيت أمامى حائطا ، وعن يسارى حائطا ، وعن يمينى حائطا . كان ذلك الشارع زقاقاً مسدوداً حقاً ، دون مخرج من أى جهة .. ولم أكن أعرف ! تلفت حولى لعلى أجد باباً أطرقه . ما من باب على الإطلاق . كنت كمن دفنت حية ، وعندئذ تعالى الصياح والصفير إلى عنان السماء .

كنت أريد أن تنشق الأرض وتبتلعنى فى ذلك الركن ، وأن أستسلم لأنين قلبى ، وأطلق العنان لدموعى ، وأقول لهم اذهبوا عنى ، دعونى ، لا أريد منكم شيئاً ، لن أطالبكم بشيء . وددت لو أننى كنت ميت .

ومع ذلك ، نكست رأسى من جديد ، وعدت أدراجى ، مهيضة الجناح ، تعلونى الأقدار ، بخطوات عرجاء ، ولم يكف الصغير عن المجيء والذهاب ، واعتراض طريقى ، مزهوا بما يفعل . ولم ينقطع الصفير والصياح والتصفيق من أنحاء الطريق . تجمع أيضاً بعض المارة والجيران . وقفوا يشاهدون بدورهم ما يجرى ، ويضحكون وما من إنسان واحد وجد ليقول لهم عار عليكم ما تفعلون . أما أنا فقد مررت من أمامهم دون أن أنبس بكلمة . كنت أتعثر فى خطاى فحسب وأمضى فى سيرى .

كان ما انتابنى من امتهان ذلك اليوم لا يطاق ، وأحسست بمرارة لا توصف ...

وطوال الوقت الذى كنت أتعذب فيه هناك عند بيته ، كان هو يجلس مع فولا فى غرفة الاستقبال الصغيرة ، ينتظرنى . قال إنه جاء يطلب منى أن أقرضه خمسة جنيهات ، يدفع دينا عليه من ديون السباق .

الفيل

كوستاس فاليتاس

كنت فى غرفتى ، عندما سمعت جلبية فى الممشى . أبواب تفتح
وتقفل . أنفاس لاهثة وخطوات تركض على درجات السلم . ضلف
توارب لتسترق النظر من خلفها عيون مضطربة . ثم صوت شىء على
الأرض يهوى مصحوباً بأنين وهبّات ، مثل طلقات مدفعية ، تواكب
خطوات مزلزلة ترج طوابق العمارة .

ألصقت عينى بثقب الباب ، لكننى لم أميز شيئاً . رأيت وهجاً
أخضر وظلالاً . وضعت عينى الثانية محل الأولى ، فرأيتة ، كان يقترب
بخطا راسخة واثقة غير مزعزعة . ثم أظلم كل شىء . أحسست بالباب
يضغط عليه بشدة ضغطة غير عادية . صارت تفصلنى عنه كتلة الخشب
الرقيقة .

(عندئذ فحسب أدركت الخطر الذى يواجهنى ، وتبينت أننى واقع
تحت تهديد سطوته المباشرة)

صادفته من قبل فيما حولى ، لكننى لم أتصور أنه سيتألب على .
أصدقكم القول لم يدر ذلك بخلقى قط . كما كانت الصحف بإعلانها إنه

« لن تسمح بكذا وكذا » تصرف أذهاننا عن الأمر ، وتخدر جماهير قراءها الكرام .

لم أتح له أن يأخذ على مأخذاً ، واعتقدت أنني بمنأى عن كل خطر ، وفوق مستوى الشبهات . وأنه على أقل تقدير لن يجرؤ على مضايقتي . كان قد نما إلى عملى بالطبع أخبار بعض زياراته لبيوت الآخرين وما شاب تلك الزيارات من بهيمية وعنف ، لكن ذلك لم يكن يعنينى فى شىء . لابد أن ثمة أموراً تشوبهم دعتهم إلى زيارتهم . أليس كذلك ؟ لا أحد يضايق غيره بلا سبب .

ألقيت بجسمى على الباب ، ورحت أصدده عن الدخول ، كان يجب أن أفعل شيئاً ، أن أجد شيئاً . أن أقاوم . عندئذ فقدت هدوء أعصابى . كان من المستحيل ألا يحدث ذلك . إن على أن أقدم على شىء ، مهما كان صغيراً .

(ارتخت خيوط أعصابى . أحسست بعضلاتى تلين . أضحت عجيباً) .

زايلى قدر من توتر ، كما لو كنت قد استرددت توازنى . أحسست بعضاً من عنفوانى يعود إلى . دفعت بالمنضدة ووضعته خلف الباب . لكننى انهزت من جديد . انصهرت عظامى ، وما عدت أشعر بها . ارتعشت يداى كما لو كنت مصاباً بمرض ارتعاش الأطراف .

أما هو فلم يكن فى عجلة من أمره . بركة رائعة من إحدى قدميه الأماميتين حطم مقاومة الباب المدعم بالمنضدة . وبرفعة ازدرائية من خرطوم - الذى لم تكن ، والحق يقال ، تنقصه الوسامة - نحى الحطام جانباً ، ودخل بعدم اكتراث مملوكى . وقف أمامى على مبعدة قريبة .

راكعاً على قدمي رحت أحرق في عينيه مباشرة . بادلني بدوره
النظرات . خيم علينا الصمت . لم ينشأ بيتنا أى تجاذب أو تعاطف .
لاحظت أن له عينين واسعتين مضيئتين ، تصدر عنهما نظرات حكيمة ،
ليس فيها من الغباء شيء . (كما قد يعتقد المرء عند النظرة الأولى) .

ناعستان ضجرتان ، هذا حق . لكنه يعرف ذلك ، وكثيرون رأوا
عينيه ، وقد وصل إلى الحد الذي لم يعد شيء يترك فيه انطباعاً .
وما في نظراتهما من قسوة وبهيمية مبرر . كان يعرف عيوبى ، أى عملة
مزيفة أنا ، وفى أى الأخطاء ترديت .

(كل هذا كنت أقبله لو حدث لغيرى ، ولو كان من جيرانى . ولكن
هانا مهدد تهديداً مباشراً ، فى جسمى . ليس هزلاً أن يدخل أحد على
هذا النحو إلى حجرتك) .

لمدة عشر ثوان قدام نوع من التوازن بيتنا ، ولم لا نقول من
التعاطف أيضاً . ربما كان وصف ذلك بالتعاطف مبالغاً فيه . الأصح أن
نقول فهماً متبادلاً . فهم هو موقفى ، كما فهمت أنا موقفه . وقد كنت
أتأهب لأن أقول له شيئاً مثل : « لو كنت مكانك لفعلت مثلك » .

رأيت التحول الذى طرأ على خواطره ، انطبع على حاجبيه
الضخمين ، وعلى جفنيه ، وعلى حدقتيه المرسومتين . تبينت فى عينيه
تجاهلاً وازدراء ، ولحت استهجاناً . كانت نظراته تبصق فى وجهى
الاحترام القليل جداً الذى كان قد أفصح لى عنه أول الأمر . عرفت من
ستكون ضحيته التالية ، سيدوسنى . سيمر من على ، ويسحقنى بثقله
الضخم . فيلصق جسدى الذى أضحي قطعة من عجين لاقيمة له بجسده ،

ويضاف إلى كيانه الجرم . وربما نمت من جراء ذلك قليلاً أذناه الكبيرتان اللتان تسمعان كل صوت ، ولا تغيب عنهما أى همسة . أو ربما اذداد خرطوميه استطالة . ولكن من المضحك أن أشغل نفسي بالموضع الذى سأمتص إليه من جسمه ، وأصبح جزءاً من أنسجته .

أجل ، أجل ، الأمر واضح كالشمس . إنه يريد أن يمتصنى ، أو يجعلنى مثله ، على صورته ونسخة طبق الأصل منه ... كلا ، كلا ، لم يكن يريد أن يقتلنى - ومن ذا الذى يقتل فى عصرنا ؟ - كان يريد أن يستحوذ على وجودى ليضمنى ويتمثلنى فى كيانه الجسدى .

كنت لازلت ألاحظ ضالتي البدنية . لواجه للمقارنة بينى وبين قوته الطبيعية ، التى تتجاوز كل منافسه ، وأما عن اعتزازه بنفسه وثقته فيها فحدث . كيف يمكننى ، أنا الممتلىء بالمشاكل والشكوى والتمزقات والتعاسات الخاصة ، والصراعات المستمرة مع ذاتى . أنا اللوام دائب النقد ، الذى لا أستقر على حال ، وأراجع آرائى فى كل وقت ، كيف يمكننى أن أقارن نفسى به ؟ بهذا الذى توحد شكلاً وعملاً ، عزمًا وتنفيذًا ، الذى يقول فلا يعصى له أمر ، الذى رجح عقله فسرى فى جسده كله وأمتد إلى أطراف أظافره (وإلى نابيه اللامعين أيضا) بهذا الذى صار حتى خرطوميه بالحكمة يتفلسف ؟

وعندئذ ، كما لو كنت أتلقي العون من جهاز رائع للطاقة الشمسية ألقيت على ظهر الدولاب بالآلة الكاتبة (التى أهدتنى إياها السنة الماضية نافسيكا بمرتبها الثالث عشر) وبقفزة انتحارية قفزت إلى النافذة .

خطا الفيل فى أرجاء الحجرة ، كأحد المعارف القدامى الذى يعرف
خباياها ، ويجذبة واحدة ألقى الآلة الكاتبة أرضاً وراح يدوس عليها
بقدمه اليسرى حتى جعلها لوحاً حديدياً . مبطوطاً . ثم فتح الدرج ،
الذى كنت أخفى فيه مخطوطاتى عن الجمهور والنقاد . وحشا بها فمه ،
لكنه لم يبتلعها ، بعد ثلاث ثوان تقيأها كعصيدة ملكية ، تكورت على
هيئة كرة قدم .

الزائر

كوستاس فاليتاس

« كانت الجثة ليورغوس ذيماكيس المستخدم بالقطاع الخاص ، وقد اختفت من الجبانة فى الثالثة بعد الظهر . كيف وجدت هنا ؟ »

كنا حول المذيع ، ننتظر سماع الأخبار . كانت قد انقضت ساعة على انتهاء الوقت المصرح فيه بتجوال السيارات . سمعنا دقات على الباب . انزعجنا ، وخرجنا إلى الممشى ، وفى التورأينا شخصاً مجهولاً ينظر إلينا من فتحة الباب . كيف دخل ؟ كيف فتح باب الطابق الأرضى المغلق ؟

أبعدت ملابسه المهندمة احتمال أن يكون قد تسلق إلى السطح ، ثم نزل من السلم . عهدت إلى زوجتى وأمى أمر استقباله . استأذنت كى أتأكد مما إذا كنت قد أوصدت باب الطابق الأرضى . كان موصداً . كذلك لم يمس زجاج باب السلم وباب الخدم بالشقة السفلى . صعدت ، ورأيتة جالساً بين المرأتين ، وقد وضع ساقاً على ساق .

— ماذا تريد ؟

- لا شيء ؟

- لا شيء ؟ كيف ؟

- لا شيء يجعلكم تتضايقون .

- إذن ، لماذا جئت ؟

- أتساءل بدورى .

- معذرة . لكنى لا أعتقد أننا نعرفك .

- أنتم لا تعرفوننى . هذا صحيح . أما أنا فأعرفكم جيداً .

قالت أمى بصوت منطفى :

- هل تتناول قدحاً من الشاي ؟

ابتسم ولم يجب . لكن يبدو أن السؤال الذى وجهته المرأة العجوز
دون أن يلقى إجابة زاد من اضطرابنا ، حتى لم نعد بقادرين على أن
نمضى فى السلبية والاستسلام .

كيف دخل هذا الغريب البيت ؟

من هو ؟

ماذا تعنى كلماته المريبة بأنه يعرفنا حق المعرفة ، وأنه لا يعرف
السبب من زيارته ؟

ماذا يريد ؟

بل وكيف كان يتجول فى الشارع فى هذا الوقت ؟

استنفدت هذه الأسئلة صبرى ، لكن السؤال الأخير على الأخص
كان يملأنى خوفاً من نوايا الزائر .

قلت :

- فرض حظر تجوال .

- أعرف .

- منذ ساعة وعشر دقائق بالضبط غير مسموح لأحد أن يوجد
بالخارج .

- هذا صحيح .

- من حسن الحظ أنه لم يصبك سوء .

- من حسن الحظ .

- ألم تقابل أحداً فى الشارع ؟

- لا أحد .

- أعلنوا أنهم سيطلقون الرصاص على كل من يتجول دون
ترخيص .

- سمعت بدورى هذا .

- ترخيص خاص .

- أجل .

جرؤت فاستطردت قائلاً ، وأنا أحاول الابتسام حتى تبدو عباراتى
عادية :

- إلا إذا كان لديك ترخيص .
- ترخيص ؟ ليس لدى ترخيص .
- كيف جرّوت إذن على الخروج ؟
- كيف جرّوت ؟
- لا تقل لى إنك خرجت هكذا إلى الشارع معرضاً حياتك للخطر .
- أتعرف ، أن هناك قتلى ، وجرحى ؟ أذاعوا أن هناك صرعى برصاصات طائشة ؟
- للأسف .
- لم تكثرث إذن بشيء ؟ لابد أن ثمة دافعاً قوياً دفعك إلى ذلك ؟
- أؤكد لك أنه ليس لدى أى دافع ؟
- ألم تعرض حياتك للخطر بمجيئك إلى بيتى ؟
- سأل ببرود :
- ماذا تعنى ؟
- انفجرت قائلاً :
- كى تأتى إلى هنا . فلننته ، لماذا أنت هنا ؟ ماذا تطلب ؟ لا تقل لى إنك لا تعرف .
- ومع ذلك ، فهذه هى الحقيقة .
- لكن هذا غير معقول . تأمل الأمر قليلاً . لا يعرف أحدنا الآخر .
- التجول محظور . يطلقون النار على كل من يبرح بيته . ومع ذلك فأنت

هنا بيتنا ، غريب ، مجهول ، لم يدعك أحد ، أثرت الذعر فى أهل بيتى ،
دون أن يكون لديك من الأدب ما يجعلك تشرح لنا مقصودك ، فى لحظة
مشحونة بالأخطار وبالضحايا .

خفض صوته وقال :

- من فضلكم . لا تعملوا حساباً لى ، امضو فى أموركم العادية .
كنا ننظر إليه مبهورى الأنفاس ، صامتين . كان كلامه جد مختلف ،
عما ينتظر سماعه من شخص فى مكانه . ومع ذلك ، فقد كنا نجد
فى الظهور المريب للرجل الغريب بيننا منطقاً رغم كل هذه الأوضاع
غير المعقولة .

- بصرف النظر عن أننا لا نعرف كيف دخلت ...

- وأنت ، ماذا تقول ؟

- لا أريد أن أكون قليل الأدب ، لا أريد أن أوجه إليكم اللوم ..

- أرجوك ، أرجوك ...

- ربما كان لك أسبابك الخاصة ، لكن ماذا يمكننى أن أقول ؟ لا
أعرف ماذا أقول . لا يمكننى أن أقول شيئاً . تتجاوز الأحداث كل تفسير
معقول أو مفهوم . من المستحيل أن أجد فيها جرعة من المنطق ، أو قدراً
من التماسك يقيم أودها . ولكن أنت تفهم ، فى لحظات مثل هذه يسودنا
الرعب ، ضع نفسك فى مكاننا شخص مجهول يدخل البيت بينما أبوابه
موصدة ، بل وأحكم إحصارها ، والمفتاح فى جيبى .

- حقاً ؟ (قال ذلك ببراعة ، أقل ما توصف به أنها براءة مثيرة
للغیظ ، كما لو لم يكن هو ، بل شخص آخر ، من أوجد هذا الوضع كله)

- من أين دخلت ؟

(سألته ، وقد استقر عزمي على مواجهة كل الاحتمالات) .

- كيف فتحت الباب ؟ أجب .

- يحزننى كل ذلك .

- هل معك نسخة من المفتاح ؟ هل تسلقت إلى السطح ؟ وكيف ؟

لكن لو كنت قد فعلت ذلك لتهدلت ملابسك وعلق بها التراب . لا بد أنك استخدمت سلماً أو حبلأً على الأقل، إلا إذا لم تكن وحدك ، ولك أعوان .

- إني وحيد .

- ولكن بحق المسيح ، ماذا تطلب ؟ ماذا تريد ، أيها الرجل ؟ لماذا

كل هذا ؟ ما هدفك ؟ لا تعذبنا أكثر من ذلك . أشفق علينا . ألا ترى إلى أى حال أوصلتنا ؟

- وددت لو أستطيع .

(قال الرجل المجهول هذا ، ثم تدهرج على الأرض ، كما لو كان قد وقع فى قبضة زلزال شديد)

ألقينا وسادة تحت رأسه . فككنا أزرار سترته وصدريته . رأينا جرحاً عميقاً مثل قرنفة متفتحة بجمرة الدم الذى جف يزين صدره . عضام مهشمة ، وعضلات متهرئة . وبقايا عروق وأعصاب وشرابين بظت من ضلعه المكسور ، وعلى الرغم من أن ميروبي حاولت أن تجرى له تنفساً صناعياً فقد قربت المرأة من فمه . فبقى زجاجها نظيفاً ، ولم تعتمها الأنفاس . غطيناه بملاءة بيضاء . وجلبناه إلى منضدة الطعام . ورحنا ننظر إليه صامتين .

شرعت المرأة العجوز تقول :

- إذن ...

لم تكمل عبارتها ، فقد سمعنا عند الباب الخارجى جلبة مفرعة .
ارتجت من شدتها أعمدة البيت ودعائمه .

- افتحوا .. سوف نحطم الباب .

- هل تخبئون أحداً ؟

- لا أحد !

خرجت إليهم :

- أألزم البيت قبل ميعاد حظر التجول بساعتين .

- هل تعرف من يدعى ذيماكس ؟ يورغيوس ذيماكيس ؟

- كلا .

- أهو من أقاربك ؟

- كلا ، على الإطلاق .

- إذن ، لماذا سرقت جثته من المشرحة ؟

- أية جثة ؟

أين تضعها ؟

(ويخطوات واسعة اقترب المفتش من المنضدة . وأزاح الملاءة)

- من هذا ؟
- لا نعرف !
- كيف وجد هنا ؟
- لم نستطع أن نعرف . شيء لا يمكن تفسيره .
- هذه جثة يورغيوس ذيماكيس . اختفت من المشرحة فى السادسة مساءً . ألا تقدم تبريراً ؟
- (لم يتكلم أحد . وماذا كان لدينا لنقله)
- كيف وجدت هنا ؟
- أأليك ما تريد أن تضيفه ؟ كيف وصلت الجثة إلى بيتك ؟ هل لديك ما تقوله ؟
- ليس لدى شيء على الإطلاق أقوله ، على الإطلاق .
- أعطنا يديك .
- (عندما لمس القيد الحديدى معصمى وسرت فى برودته داخلنى إحساس غريب بالسكينة والراحة) .

على ضفاف النيل

كيتى باياذاكى - كاراميتسا

وجدت منضدة منزوية ، وجلست . الرواد قليلون فى هذه الساعة المبكرة من الصباح . بإحدى المناضد فتى وفتاة يتحدثان بصوت خفيض غير مكترثين بما حولهما .. كان إمام يكاد ينام على أحد الكراسى . عندما رآها ، سوى طربوشه على رأسه ، وشد الحزام العريض الأحمر حول جلبابه الحريري المخطط . اقترب ، ووقف أمامها .

قالت له شاردة البال :

- فنجان من القهوة .

كان هذا المكان على ضفاف النيل يروق لها دائماً . راحت تتابع قارباً يمر ببطء يشق اللجة ، به رجل لمعت حبات العرق على وجهه وعنقه . يلبس طاقية ، ويكاد يغمض عينيه من وهج الشمس . يميل جسمه الرشيق المفتول تارة إلى الأمام وتارة إلى الخلف ، كمن ينحنى يقبل مصيره مرة ، ويتراجع يتطلع إليه بكبرياء مرة أخرى . يجذب المجدافين ، يضرب بهما صفحة الماء فى إيقاعات بطيئة ويتغنى بأحلامه القنوعة .

أمامها ذهبية عاطلة عن السفر ، تنتظر الناس الذين يأتون إليها
من وقت لآخر ، وتحسد البواخر النيلية التي تمر بجوارها بصفيها
الفرح مبحرة إلى الصعيد تحت سماوات تستحم بضياء القمر . أما هي
فتبقى ملتصقة بالماء ، تمضى لياليها مطفأة الأنوار . على مرمى البصر
أشجار ، أشجار كثيرة ، تطل على النيل ، تشاهد في مرآته جمالها .
وتستلقى ظلالها حبيبات مدلات بين أحضانها . وفي الأغوار جسر مثل
قوس النصر يمر من تحته إله جليل . ومن جامع قريب يتعالى الأذان
فترشف الموجات الخاشعات صوته .

تناولت جرعة من القهوة ، وعادت بفكرها إلى الوراء . تذكرت
نظرتها التي سرحت بعيداً مع المياه . لم يقل لها قط كلمة تنير الطريق
أمام خطواتها ، وتهديها فتنسجم مع وقع خطواته . سمعت نفسها تقول
له من جديد .

- يقولون إننى يجب أن أرحل . وأنت ماذا تقول ؟

لم تتلق منه رداً . نظر إلى أعماق عينيها . رأت جبينه يظلم . أشاح
بنظراته فى يأس . كان الأمر بالنسبة له بعيداً ، جد سابق لأوانه .
بداخلها ، أهابت به :

- أسرع . لم يبق وقت . آخرون يقررون مصيرى . إذا أردت
سوف أصمد . سأنتظر لو قلت لى انتظرينى ، وسوف أنتظر مهما
طال الزمن .

فكرت وراحت تقول لنفسها . كان يجب أن أخبره . أجل ، كان
يجب . مادامت تعرف أنها فى حياته مختلفة عن الآخرين ، وأنها تجعله

سعيداً إلى حد يفوق التصديق ، وهى تحتضنه بعواطفها الجياشة . هذا ما كان يقوله لها . أجل ، يجب أن تذود عن حياتها . وتزداد تشبثاً بها . يجب أن تحيلها إلى شىء ملموس ، فلا تتخلى عن هذا الحب الذى انبسط ، وأبان لها عن وجهه فى كل الأرجاء . هذا الحب سرى فى دمائها دافئاً ، وتستشعره الآن بأعماقها مثل جرثومة تمرضها ، وتترك على شفيتها طعم العلقم .

أجل كان يجب . أجل ، كان يجب ، ولكن خبرتها آنذاك كانت قليلة ، أما خبرتها الآن ، فما عادت تعرف ماذا تفعل بها .

انصرف العاشقان . بحثت الفتاة عن يده ، وأمسكت بها . صاحت فى أعماقها بأسى :

– لا تتركيه ، لا تتركيه .

عادت تنظر إلى حيث تجلى لها اليوم وجهه ، معلقاً بين السماء ولجة الماء . رأت طائراً تسمر فى الهواء محتفظاً بتوازنه ، وظل مثل شهاب يرفرف فى النور . ثم مضى يحط على شجرة . ارتعشت يدها على فنجال القهوة . تلمست بأصابعها دفئه ، لكنها وجدته بارداً .

الصبار

كيتى باباذاكى - كاراميتسا

نظرت إلى يديها المتعبتين. أصابع طويلة ، نحيلة. فى شبابها الباكر كانتا أفضل حظاً. لكن قدر لهما بعد ذلك أن تفلحا أرضاً مجدبة. ارتضت العمل الشاق بكبرياء. انتقت أفضل ما فى قلبها من بذور ، وبدرتها. ترقبت أن تنبت ، واثقة من أنها ستعطى زهراً يانعا .

بعد قليل ، رأت لدهشتها أن البذور المنتقاة أنبتت صباراً. انكبت فى قنوط ترعاها. تدس يديها فى أعماق التربة لتخرج الحصى وكل نبت وحشى ، كي يتنفس التراب الخشن ، ويتحسن الصبار ، فربما أنبت فى المستقبل زهرة. فكرت أن تسقيه ماءً ، ماءً كثيراً. فتحت صنبور الطيبة ، وروته حتى آخر قطرة .

لكن السنين مرت ، وظل الصبار مغطى بالشوك ، أعجف ، راحت أوراقه تنبسط دون أن تبرز منه زهرة. امتدت الجذور الشرهة وتغولت. امتلأت الأرض بها. وما عادت تفسح موضعاً ولاحتى لزهرة برية كي تنبت من حولها ، تراها تطل فتتعزى وتقر بها عيناها .

تعبت يداها ، احمرتا . كما تعبت عيناها من منظر البقاع الجدباء
على مدى البصر . رفعت وجهها إلى السماء لتريح بالها الذى لاسمير له .
سحب سوداء بجنون تجرى على أديمها . نقبت نون جدوى عن خفقة
جناح . وفجأة ظهر طائر أبيض كبير يطير فى وجه الريح . فوق الصبار ،
فوق ديار البشر ، بدا جناحاه أنصع بياضاً فى الفضاء الرمادى
اللانهاى . وفد إلى خاطرها الرجل الذى كان فى وجه الريح يطير بدوره .
تحت سماوات دكناء ، فوق الصبار ، وديار البشر . كان بدوره هكذا
كبيراً على نحو غير عادى وغير مألوف .

ظلت مدة طويلة تلوح لذاك الذى يطير مبتعداً . ثم دست رأسها
الأشقر بين ذراعيها المعقودين ، وانخرطت فى بكاء صامت . ستبقى على
ماهى عليه يوماً ، قدماها مغروستان فى التربة الخشنة فى الأرض
الجدباء ، يحيط بها الصبار ويحاصرها .

الرجل الذى أراد أن يعود طفلاً

أندونى سامراكى

ذات مساء فى يناير الماضى دخل صيدلية ليلية ليشتري علبة من الحبوب المسهلة ، فقد كان يعانى من إمساك مزمن فى السنوات الأخيرة . ثم ذهب ليأخذ الأوتوبيس إلى بيته .

وجد صفًا طويلاً من المنتظرين فى المحطة . ظل ينتظر صابراً . وفى النهاية أمكنه الصعود . فى العربة وقف . كان قصيراً على قدر من البدانة ، ذا بطن تنبّع قليلاً . وفى نوفمبر الماضى بلغ السابعة والأربعين .

بجواره كان ثمة من يضغط عليه . وبعد قليل نهضت سيدة ونزلت ، فجلس هو مكانها . وعندئذ وجد مجلة «عالم الأولاد» وهى مجلة من مجلات الأطفال . كانت أول مرة تقع عيناه فيها على هذه المجلة . لم يكن له شأن بمجلات الأطفال من قبل .

ألقي نظرة على الغلاف الملون . كان يصور راعياً من رعاة البقر يقفز بجواده الأبيض . وقد كتب تحت الصورة : تابعوا قصتنا الجديدة

«مغامرات فى الغرب القصى» التى تبدأ فى هذا العدد . المجلة تصدر كل سبت ، كما هو مكتوب على الغلاف . وكان هذا عددها الأخير ، ولم تفض صفحاته بعد . لم يكن يدرى ماذا يفعل به ، فليس له أولاد . أربعة عشر عاماً مضت على زواجه ، والسبب عقم أمراة . فى الديوان الذى يشغل به وظيفة صغيرة منذ ثمانى عشرة سنة ، كان موضوع سخرية زملائه لانه لم يفلح فى أن ينجب أولاداً .

تلقت عله يجد طفلاً يعطيه المجلة . ولكنه لم يرى من حوله سوى كبار . فكر أن يعطيها لولد من أقربائه ، لابن بنت عمه ، وهو صبى عفريت فى الحادية عشرة من عمره ، يقطن فى جيرته .

كانت ثمة رائحة عطنة فى الأتوبيس .

عندما وصل إلى بيته ، دخل إلى غرفته الصغيرة التى كان ينفرد بها ، إلى جوار غرفة الأكل . بغرفته مكتب صغير ومكتبة وحاملان صفت على رفوفهما الكتب . لم يكن الطعام قد أعد بعد وكانت زوجته بالمطبخ ، تطهو مكرونة باللحم المفروم . ذهب إلى غرفته الصغيرة حتى يجهز الطعام . كان قد ترك المجلة على أحد الأرفف . بسط صفحات جريدته . أحس وجعاً بساقه اليسرى . كان يعانى من الروماتيزم . سوف يطلب من زوجته أن تدلكه . عندما يصبح الجو رطباً ، أو يصعد سلماً ، تنتابه الآلام .

مضى زهاء أسبوع على ذلك . الوقت ليل ، بعد العشاء لم تكن به رغبة فى النوم . أغلق على نفسه باب غرفته ، وفتح مجلداً من مجلدات الموسوعة .

كانت زوجته قد أعدت له قَدْحًا من القهوة . ثم مضى إلى سريره
ورقد .

قرأ عشر دقائق . انتابه الضجر . نهض ، طاف بأرجاء البيت ،
وأشعل سيجارة . وفى النهاية ، قرر أن يذهب لينام . وعندئذ لمح «عالم
الأولاد» التى كان قد نسيها على الرف ، فكر أن يقتل بعض الوقت .

كانت الساعة الحادية عشرة إلا ثلثًا تقريبًا عندما أمسك بالمجلة .
كانت الساعة الواحدة والنصف عندما تركها .

أجهز عليها كلها . قرأ القصتين الطويلتين : «مغامرة الغرب
القصى» و «سنتان فى الغابة» وهذه الأخيرة كانت تنشر فى حلقات منذ
أعداد سابقة . وقرأ القصص ، وحكاية «عروس الخريف» التى كانت
موجهة إلى أولاد أصغر سنًا ، وصفحة «الذكاء» وفص الكلمات المتقاطعة ،
وحل الفوازير ، وعثر على «الصورة الخفية» التى اقتضت منه بعض
الجهد والوقت ، ركبه الإصرار ووفق إلى الحل فى النهاية . كانت
الصورة أرنبا صغيراً تبحث عنه أمه . قرأ صفحة «أصدقاء الصغار
يكتبون» التى تنشر قطعاً أدبية للقراء الصغار . كما قرأ صفحة
«أصدقاء الصغار فيما بينهم» حيث يتراسل الأولاد تحت العديد من
الاسماء المستعارة ويتبادلون شتى الدعابات . وفى النهاية ، وضع المجلة
فى درج من أدراج مكتبه وذهب لينام . استلقى إلى جوار امرأته
رقدت على ظهرها فاغرة الفم .

حلم تلك الليلة حلمًا . رأى نفسه راعيًا من رعاة البقر يمتطى
جواده الأبيض ويجرى فى مرج من مروج الغرب القصى . وببما هو

ماضي في قفزه هذا استدار على الجنب الآخر وسقط على زوجته دون أن يصحو من نومه . على أن المرأة استيقظت ، معتقدة أن زوجها قد اشتاق إلى بعض المداعبات التي كف عنها مؤخراً . وإذ رآته غارقاً في سباته استدارت على الجنب الآخر وعاودت نومها .

ثمة شيء حدث بداخله منذ تلك الليلة . أمر ما تغير .

يوم السبت من كل أسبوع ، صار يشتري «عالم الأولاد» وفي اللحظة التي يشتريها من الكشك يلقي نظرات متلصصة حوله ، فقد كان يداخله إحساس بأنه إنما يفعل شيئاً غير لائق . وفي الليلة ذاتها بعد العشاء ، يخلق على نفسه غرفته الصغيرة ويقرأ المجلة . لم يصارح بالأمر أحداً . ومن في إمكانه أن يحس به !

كان يغلق على الأعداد درجاً من أدراج مكتبه .

ثمة شيء حدث في أعماقه ، وهو يقرأ «عالم الأولاد» عثر من جديد على عالم الأولاد . عالم جد مختلف عن عالم الكبار .

في الديوان كف عن تنكيس الرأس . من قبل ، وعندما كان يرى انحرافاً أو خطأ لم يكن يفتح فمه بالكلام خوفاً ، تعود على تقبل كل شيء بلا احتجاج . أما الآن ، فقد أصبح مختلفاً . بل وفي ذات مرة دعت إلى مكتبها إحدى الشخصيات البارزة بالوزارة ، إحدى الرياسات الكبيرة ، ومضت تضغط عليه حتى يأتي تصرفاً في اختصاصه مخالفاً للقانون ، أن يقيد طلباً بتاريخ سابق ، ولكنه لم يرفض ذلك فحسب ، بل وخبط مكتب الرئيس بقبضته خبطة شديدة حتى أن قدح القهوة دلق ولطخ بعض الأوراق . أسقط في يد الرئيس . لم يكن يتوقع ذلك قط .

لاحظت زوجته ما طراً عليه من تغير . لاحظت أنه يعتنى بنفسه .
اشترى ربطتى عتق جديدتين . تبدل حاله . قلقت . شككت فى أن تكون
امرأة أخرى دخلت حياته . لكن ما لبث أن هدأ بالها ، وقد لمست رقبته
البالغة معها . اعتقدت أن حبه القديم لها قد أزهر من جديد .

ومن ناحيه أخرى ، فقد شفى من الإمساك الذى كان يعانيه .

أرسل ذات مرة إلى المجلة قطعة من الشعر المنشور كان قد كتبها
«تأملات فى الخريف» هذا هو العنوان الذى أعطاه لمقطوعته . بعث بها
إلى صفحة «أصدقاء الصغار يكتبون» احتاج بطبيعة الحال أن يتخذ
لنفسه اسماً مستعاراً . فكر فى كثير من الأسماء فى النهاية اختار
«الفارس الأشقر» كان أسمر اللون ، ومنذ صغره وهو يحسد الشقر ،
ويتمنى أن يكون أشقر .

نشرت المجلة مقطوعته النثرية الشعرية . كم كانت فرحته كبيرة ! ثم
نشرت له مقطوعة أخرى . بعد ذلك رفضت له مقطوعة ثالثة . وردت عليه
المجلة بقولها : «إن الموضوع الذى اخترته يا صديقنا الصغير أعلى من
سبك . انتظر حتى تكبر قليلاً وعاود من جديد» .

هكذا كانت الأمور عندما قرأ - بعد شهرين ونصف تقريباً من
الليلة الأولى التى قضاها مع «عالم الأولاد» - قرأ فى العدد الأخير من
المجلة بصفحة «أصدقاء الصغار فيما بينهم» الخبر الآتى :

«اعتزمنا أن نقيم أمسية موسيقية أدبية . ولذلك فإننا نرجو من
أصحاب الأسماء الآتية من أصدقاءنا المعروفين لدينا وغير المعروفين أن

يشرفونا بالحضور : كارمن ، ماريا ستيوارت ، أغرامبيللى ، ذو القناع
الحديدى ، نابليون ، الفارس الحزين ، الفارس الأشقر ...»

وتوالت أيضاً بعض الأسماء المستعارة الأخرى . ثم أردفت الدعوة
تقول : «إننا فى انتظارهم جميعاً ونهيب بهم ألا يتخلفوا عن الحضور ،
يوم الجمعة الثانى من أبريل الساعة السابعة مساءً ، ١٤٥ شارع النصر ،
الدور الثانى.»

بيرينيس - ملكة سبأ - القرصان الأسود - شيطان الموج .
لا شك أن الأولاد سيحزنون عندما ينتظم عقدهم بغير «الفارس
الأشقر» . وهذا ما فكر فيه ، ولكن بالإمكان غير ذلك .

صاح فى السائق : ١٤٥ شارع النصر . بأقصى سرعة فى
مقدورك ! سأنقذك ضعف ما يسجله العداد .

كاد يحدث تصادم مرتين بسبب السرعة ، ولكن الأمر الوحيد الذى
كان يعنيه أن يصل إلى هناك فى أقصر وقت . تأخر . كانت الساعة
السابعة وعشرين دقيقة ، والدعوة قد حدد لها السابعة .

كيف انصرف عن الديوان ! كيف ترك كل شىء ، الأوراق والمحبرة
والريشة وأدراج مكتبة مفتوحة ، كل شىء على حاله . ونزل يقفز السلم
درجتين ! قابله رئيس المستخدمين لحظة انصرافه . قال له مامعناه إنه
يأخذه لمغادرته مكتبه على هذا النحو دون إذن ، فلم يعره التفاتاً .

كانت قد أمسكت به قبضة جبارة للغاية ، استولت عليه قوة انفتحت
بداخله فجأة ، بينما كان هناك فى مكتبه ، يوم الجمعة بعد الظهر حيث

ميعاد العمل من الخامسة إلى الثامنة مساء . أرغمته تلك القوة المستحوذة أن يترك كل شيء وينصرف .

السيارة تقترب الآن . كان يجب أن يأخذ معه شيئاً ، فليس بالإمكان أن يذهب إلى الحفل خالي اليدين . يجب أن يأخذ معه شيئاً ، حلوى ، زهور ... هناك محل لبيع الأزهار فى شارعهم . نزل من التاكسى . اشترى باقة من الورد . ورد أحمر .

وصل . دق جرس الباب الخارجى للعمارة وهو يحمل باقته . كان قلبه يدق بسرعة فائقة وبقوة . عالياً ، فى الدور الثالث ، نوافذ مضاءة . وفدت أنغام معزوفة على الأكرديون .

فتح باب العمارة . دخل سلم خشبى حزنونى . ارتقى الدرجات بسرعة . لم يعد لأوجاعه الروماتزمية وجود ، زالت عنه .

عند قمة السلم ولدان وبنت . فى حوالى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من العمر . وقف على الدرجة قبل الأخيرة . وقال :

- الفارس الأشقر .

قال ذلك ، كما لو كان يعرفهم بنفسه .

سأله أحد الولدين ، وأطولهما قامة :

- ألن يحضر ؟

وسأل الآخر :

- ماذا ؟ لن يحضر ؟

عاد الأول يسأل :

- أهو مريض :

قالت البنت :

- يا للخسارة ! كنت أتوق كثيراً إلى التعرف به .

نظر إلى الأولاد الثلاثة صامتاً ، لم يكن بإمكانه أن يقول كلمة .

فجأة ، وبحركة مباغتة وضع باقة الزهور ، الورود الحمراء بين
ذراعى الفتاة ، استدار ، ونزل السلم مسرعاً ، وخرج ، ومن النوافذ
العالية بالدور الثالث سمع الأكرديون يعزف لحناً مرحاً ، مضى فى ظلمة
الليل ، خاوى الصدر أيضاً .

المترجم فى سطور :

د . / نعيم عطية جرجس

ولد فى ٢٨ مارس ١٩٢٧ بمدينة أسوان .

- حصل على درجة الدكتوراه من كلية الحقوق بجامعة القاهرة فى يونية ١٩٦٤ عن رسالته بعنوان «مساهمة فى دراسة النظرية العامة للحريات الفردية» .
- قرأ كثيراً فى الفلسفة والتاريخ والاجتماع والسياسة والاقتصاد والعلاقات الدولية .
- نشر سلسلة من الدراسات الجادة فى تطور الروابط بين الفرد والسلطة .
- توج حياته القضائية بأن أصدر عام ١٩٩٤ «الموسوعة الإدارية الحديثة» .
- أسهم - إلى جانب تخصصه فى القانون - فى الحياة الثقافية رابطاً بين الأدب والفن والقانون بأوثق الروابط .
- قام بعمل عدة دراسات وترجمات عن الأدب اليونانى المعاصر
- حصل على جائزة كافافيس فى الدراسات الأدبية عام ١٩٩٣ .
- عضو مؤسس لكل من «اتحاد الكتاب» و«جمعية نقاد الفن التشكيلى» وعضو عامل فى «جمعية محبى الفنون الجميلة» و«جمعية النقد الأدبى» و«جمعية أصدقاء المتاحف» كما عمل رديحاً من الوقت مستشاراً قانونياً «لنقابة الفنانين التشكيليين».

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مادمو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقي جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتمكوف	ت : أحمد الحضري
٥ - ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التغيرات البيئية	أندروس. جوى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتمد وعبد الجليل الأزدي وعمر حلى
١١ - مختارات	فيسوفا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ - بيانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ - التحليل النفسى والادب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إيوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ - أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عثمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ - الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ - خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ - منكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصري
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ - رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارم	ت : بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادمو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كايين	ت : عبد الستار الطوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ - التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هويكنز	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣٤ - الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ - الأسطورة والعداة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٢٦ - نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٢٧ - واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٢٨ - نقد الحداثة	ألن تورين	ت : أنور مغيث
٢٩ - الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ - قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ - ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جرمان	ت : عطف أحمد / إبراهيم فتحي / محمود ملحد
٤٢ - عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣ - اللهب المزبوج	أوكتايفو پاث	ت : المهدي أخريف
٤٤ - بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	ت : مارلين تانرس
٤٥ - التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ - عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد علي
٤٧ - تاريخ النقد الأدبي الحديث ج١	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ - حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جورجاني
٤٩ - الإسلام في البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ - ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميود ويوسف الأنطكي
٥١ - مسار الرواية الإسبانية الأمريكية	داريو بيانوبيا وخ . م بيناليستي	ت : محمد أبو العطا
٥٢ - العلاج النفسي التدعيمي	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى قطيم وعادل دمرداش
٥٣ - الدراما والتعليم .	أ . ف . ألنجاتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ - المفهوم الإغريقي للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحي
٥٥ - ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	ت : علي يوسف علي
٥٦ - الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود علي مكي
٥٧ - الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطي
٥٨ - مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ - المحبرة	كارلوس مونيث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ - التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١ - موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهري
٦٢ - لذة النص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ - تاريخ النقد الأدبي الحديث ج٢	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ - برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ - في مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ - خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد الطيف عبد الحليم
٦٧ - مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدي أخريف
٦٨ - نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالتين راسيوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ - العلم الإسلامى في أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمي
٧٠ - ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجت	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ - السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

- ٧٢ - السياسي العجوز
٧٣ - نقد استجابة القارئ
٧٤ - صلاح الدين والمالكي في مصر
٧٥ - فن التراجم والسير الذاتية
٧٦ - چاك لاكان وإغواء التحليل النفسي
٧٧ - تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٢
٧٨ - العولة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية
٧٩ - شعرية التأليف
٨٠ - بوشكين عند «ناقورة الدموع»
٨١ - الجماعات المتخيلة
٨٢ - مسرح ميغيل
٨٣ - مختارات
٨٤ - موسوعة الأدب والنقد
٨٥ - منصور الحلاج (مسرحية)
٨٦ - طول الليل
٨٧ - نون والقلم
٨٨ - الابتلاء بالتغريب
٨٩ - الطريق الثالث
٩٠ - وسم السيف (قصص)
٩١ - المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق
٩٢ - أساليب ومضامين المسرح الإسباني وأمريكي المعاصر
٩٣ - محدثات العولة
٩٤ - الحب الأول والصحية
٩٥ - مختارات من المسرح الإسباني
٩٦ - ثلاث زنبقات ووردة
٩٧ - هوية فرنسا (المجلد الأول)
٩٨ - الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني
٩٩ - تاريخ السينما العالمية
١٠٠ - مساطة العولة
١٠١ - النص الروائي (تقنيات ومناهج)
١٠٢ - السياسة والتسامح
١٠٣ - قبر ابن عربي يليه آباء
١٠٤ - أوبرا ماهوجني
١٠٥ - مدخل إلى النص الجامع
١٠٦ - الأدب الأندلسي
١٠٧ - صورة الفنان في الشعر الأمريكي المعاصر
- ت . س . إليوت
جين . ب . توميكنز
ل . ا . سيمينوفا
أندريه موروا
مجموعة من الكتاب
رينيه ويليك
رونالد روبرتسون
بوريس أوسبنسكي
ألكسندر بوشكين
بندكت أندرسن
ميغيل دي أونامونو
غوتفريد بن
مجموعة من الكتاب
صلاح زكي أقطاي
جمال مير صادق
جلال آل أحمد
جلال آل أحمد
أنتوني جينز
نخبة من كتاب أمريكا اللاتينية
باربر الاسوستكا
كارلوس ميغيل
مايك فيذرستون وسكوت لاش
صمويل بيكيت
أنطونيو بويرو بايخو
قصص مختارة
فرنان برودل
نماذج ومقالات
ديفيد روبنسون
بول هيرست وجراهام تومبسون
بيرنار فاليط
عبد الكريم الخطيب
عبد الوهاب المؤدب
يرتولت بريشت
جيرار جينيت
د . ماريا خيسوس روبييرامتي
نخبة
- ت : فؤاد مجلى .
ت : حسن ناظم وعلى حاكم
ت : حسن بيومي
ت : أحمد درويش
ت : عبد المقصود عبد الكريم
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : أحمد محمود ونورا أمين
ت : سعيد الفانمي وناصر حلاوي
ت : مكارم الغمري
ت : محمد طارق الشرقاوي
ت : محمود السيد على
ت : خالد المعالي
ت : عبد الحميد شيحة
ت : عبد الرازق بركات
ت : أحمد فتحى يوسف شتا
ت : ماجدة العناني
ت : إبراهيم الدسوقي شتا
ت : أحمد زايد ومحمد محيي الدين
ت : محمد إبراهيم مبروك
ت : محمد هناء عبد الفتاح
ت : نادية جمال الدين
ت : عبد الوهاب علوب
ت : فوزية العشماوي
ت : سري محمد محمد عبد اللطيف
ت : إدوار الخراط
ت : بشير السباعي
ت : أشرف الصباغ
ت : إبراهيم قنديل
ت : إبراهيم فتحى
ت : رشيد بنحدو
ت : عز الدين الكتاني الإدريسي
ت : محمد بنيس
ت : عبد الغفار مكاي
ت : عبد العزيز شبيل
ت : أشرف على دعور
ت : محمد عبد الله الجعيدى

١٠٨ - ثلاث دراسات عن الشعر الكلاسي	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكي
١٠٩ - حروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ - النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ - المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ - الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ - راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ - مسرحيات حصاد كرنجى وسكان المستقيم	ول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥ - غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمىة رمضان
١١٦ - امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا تلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ - المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ - النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩ - النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنيل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ - الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبه من المترجمين
١٢١ - الليل الصغير فى كتاب المرأة العريسة	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢ - نظم العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣ - الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيل الكسندر وفنابولينا	ت : أنور محمد إبراهيم
١٢٤ - الفجر الكاذب	جون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ - التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديفى	ت : سمحه الخولى
١٢٦ - فعل القراءة	فولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب طوب
١٢٧ - إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
١٢٨ - الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ - الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا بولورس أسيس جارتو	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ - الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١ - مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ - ثقافة العولة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب طوب
١٣٣ - الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤ - تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ - المختار من نقد م. إلبوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إلبوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ - فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧ - مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	جوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
١٣٨ - عالم التلفزيون بين الجمال والعنف	إيفلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ - باريسيفال	ريشارد فاچنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ - حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١ - اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ - الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣ - قضايا التطور فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤ - صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ - موت أرتيميو كروث	كارلوس فويتشس	ت : أحمد حسان
١٤٦ - الورقة الحمراء	ميجيل دى لىيس	ت : على عبد الرؤوف البعبي
١٤٧ - خطبة الإدانة الطويلة	تافريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوي
١٤٨ - القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكي أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ - النظرية الشعرية عند الهوت وأنونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ - التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليمان	ت : منيرة كروان
١٥١ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعي
١٥٢ - عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكتاب	ت : محمد محمد الخطابي
١٥٣ - غرام القراءة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ - مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ - الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ - المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	ت : مى التمساني
١٥٧ - خسرو وشيرين	النظامي الكنجي	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعي
١٥٩ - الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت : إبراهيم فتحي
١٦٠ - آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومي
١٦١ - من المسرح الإسباني	اليفاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ - تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيرى	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ - موسوعة علم الاجتماع ج ١	جورجون مارشال	ت : بإشراف : محمد الجوهري
١٦٤ - شامبوليون (حياة من نور)	جان لاكوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ - حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت : سهير المصادفة
١٦٦ - العلاقات بين التبتين والطنانين في إسرائيل	يشعيا هو ليتمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ - في عالم طاغور	رابندراناث طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ - دراسات في الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ - إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ - الطريق	ميغيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ - وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ - حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابي
١٧٣ - معنى الجمال	ولتر ت . ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ - صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ - التليفزيون في الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ - نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧ - أنطون تشيخوف	هنرى تروايا	ت : حصة إبراهيم منيف
١٧٨ - مختارات من الشعر اليوناني الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدي إبراهيم
١٧٩ - حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ - قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ - النقد الأدبي الأمريكي	فيسنت ، ب . ليتش	ت : محمد يحيى

١٨٢ - العنف والنبوة	و . ب . بيتس	ت : ياسين طه حافظ
١٨٣ - جان كوكو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	ت : فتحي العشري
١٨٤ - القاهرة .. حاملة لا تنام	هانز إيندورفر	ت : نسوقى سعيد
١٨٥ - أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت : عبد الوهاب علوب
١٨٦ - معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ - الأرضة	بُزْدَجْ علوى	ت : علاء منصور
١٨٨ - موت الأدب	القين كرنان	ت : بدر الديب
١٨٩ - العمى والبصيرة	بول دى مان	ت : سعيد الغانمى
١٩٠ - محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت : محسن سيد فرجاني
١٩١ - الكلام وأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت : مصطفى حجازى السيد
١٩٢ - ساحت نامه إبراهيم بك جا	زين العابدين المراعى	ت : محمود سلامة علاوى
١٩٣ - عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت : محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ - مخترعات من نقد الأنجلو - أمريكى	مجموعة من النقاد	ت : ماهر شفيق فريد
١٩٥ - شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
١٩٦ - المهلة الأخيرة	فالتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
١٩٧ - الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
١٩٨ - الاتصال الجماهيرى	إبرين إمري وآخرون	ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ - تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لاندأوى	ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠ - ضحايا التنمية	جيرمى سيبورك	ت : فخرى لبيب
٢٠١ - الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٢٠٢ - تاريخ النقد الألبى الحديث ج٢	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ - الشعر والشاعرية	الطاف حسين حالى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤ - تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت : أحمد محمود هويدى
٢٠٥ - الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافالى - سفورزا	ت : أحمد مستجير
٢٠٦ - الهولوية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	ت : على يوسف على
٢٠٧ - ليل إفريقى	رامون خوتاسندير	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨ - شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت : محمد أحمد صالح
٢٠٩ - السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٠ - مثنويات حكيم سنائى	سنائى الفرتوى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١ - فريديان لوسوسير	جوناثان كلر	ت : محمود حمدي عبد الغنى
٢١٢ - قصص الأمير مرزيان	مرزيان بن رستم بن شروين	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣ - مصر منذ قدم البابون حتى رجل عبد الناصر	ريمون فلاور	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢١٤ - قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيندرز	ت : محمد محمود محي الدين
٢١٥ - سياحت نامه إبراهيم بك جا	زين العابدين المراعى	ت : محمود سلامة علاوى
٢١٦ - جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٧ - مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت	ت : نادية البنهاوى
٢١٨ - رايولا	خوليو كورتازان	ت : على إبراهيم على منوفى

٢١٩ - بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ - الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت : على يوسف على
٢٢١ - شعرية كفافى	جريجورى جوزدانس	ت : رفعت سلام
٢٢٢ - فرانز كافكا	رونالد جرائى	ت : نسيم مجلى
٢٢٣ - العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	ت : السيد محمد نقادى
٢٢٤ - دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ - حكاية غريق	جابريل جارثيا ماركث	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ - أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هريت لورانس	ت : طاهر محمد على البربرى
٢٢٧ - المسرح الإسباني فى القرن السابع عشر	موسى مارديا ديف بوركى	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ - علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت : مارى تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ - مازق البطل الوحيد	نورمان كيمن	ت : أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠ - عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١ - الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ - مابعد المعلومات	توم ستينر	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣ - فكرة الاضمحلال	أرثر هيرمان	ت : طلعت الشايب
٢٣٤ - الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ - ديوان شمس تبريزى ج ١	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٢٣٦ - الولاية	ميشيل تود	ت : أحمد الطيب
٢٣٧ - مصر أرض الوادى	روين فينين	ت : عنايات حسين طلعت
٢٣٨ - العولة والتحرير	الانكاد	ت : ياسر محمد جاد الله وعيسى مديولى أحمد
٢٣٩ - العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلرافر - رايوخ	ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ - الإسلام والقرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت : صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ - فى انتظار البرابرة	ك. م كويتز	ت : ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ - سبعة أنماط من الغموض	وليام إميسون	ت : هبرى محمد حسن عبد النبى
٢٤٣ - تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ١)	ليفى بروفنسال	ت : مجموعة من المترجمين
٢٤٤ - الغليان	لاورا إسكييل	ت : نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ - نساء مقاتلات	إليزابيتا أنيس	ت : توفيق على منصور
٢٤٦ - قصص مختارة	جابريل جرثيا ماركث	ت : على إبراهيم على منوفى
٢٤٧ - الثقافة الجماهيرية والحدائق فى مصر	ولتر أرمبرست	ت : محمد الشرقاوى
٢٤٨ - حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٢٤٩ - لغة التمزق	دراجو شتامبيوك	ت : رفعت سلام
٢٥٠ - علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ت : ماجدة أباطة
٢٥١ - موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوردون مارشال	ت : بإشراف : محمد الجوهري
٢٥٢ - رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت : على بدران
٢٥٣ - تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	ت : حسن بيومى
٢٥٤ - الفلسفة	ديف روينسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ - أفلاطون	ديف روينسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام

٢٥٦ - ديكارت	ديف روبنسون وجودي جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ - تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلي رايت	ت : محمود سيد أحمد
٢٥٨ - الفجر	سير أنجوس فريزر	ت : عبادة كُحيلة
٢٥٩ - مختارات من الشعر الأرمني	نخبة	ت : قاروجان كازانچيان
٢٦٠ - موسوعة علم الاجتماع ج٢	جوردون مارشال	ت : ياشراف : محمد الجوهري
٢٦١ - رحلة في فكر زكي نجيب محمود	زكي نجيب محمود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢ - مدينة المعجزات	إيوارد مندوتا	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣ - الكشف عن حافة الزمن	جون جرين	ت : علي يوسف علي
٢٦٤ - إبداعات شعرية مترجمة	هوراس / شلي	ت : لويس عوض
٢٦٥ - روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	ت : لويس عوض
٢٦٦ - مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت : عادل عبد المنعم سويلم
٢٦٧ - فن الرواية	ميلان كونديرا	ت : بدر الدين عروكي
٢٦٨ - ديوان شمس تبريزي ج٢	جلال الدين الرومي	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦٩ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١	وليم جيفور بالجريف	ت : صبري محمد حسن
٢٧٠ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج٢	وليم جيفور بالجريف	ت : صبري محمد حسن
٢٧١ - الحضارة الغربية	توماس سي . باترسون	ت : شوقي جلال
٢٧٢ - الألبيرة الأثرية في مصر	س. س. والترز	ت : إبراهيم سلامة
٢٧٣ - الاستثمار والثورة في الشرق الأوسط	جوان آر. لوك	ت : عنان الشهاوي
٢٧٤ - السيدة بربارا	رومولو جلاجوس	ت : محمود علي مكي
٢٧٥ - ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	أقلام مختلفة	ت : ماهر شفيق فريد
٢٧٦ - فنون السينما	فرانك جوثيران	ت : عبد القادر التلمساني
٢٧٧ - الجينات : الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت : أحمد فوزي
٢٧٨ - البدايات	إسحق عظيموف	ت : ظريف عبد الله
٢٧٩ - الحرب الباردة الثقافية	فرانسيس ستونر سوندرز	ت : طلعت الشايب
٢٨٠ - من الألب الهندي الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	ت : سمير عبد الحميد
٢٨١ - الفريوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرد الكهنوي	ت : جلال الحفناوي
٢٨٢ - طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس وليبرت	ت : سمير حنا صادق
٢٨٣ - السهل يحترق	خوان روافو	ت : علي البمبي
٢٨٤ - هرقل مجنوناً	يوريبيدس	ت : أحمد عثمان
٢٨٥ - رحلة الخواجة حسن نظامي	حسن نظامي	ت : سمير عبد الحميد
٢٨٦ - سياحت نامه إبراهيم بك ج٢	زين العابدين المراغي	ت : محمود سلامة علاوي
٢٨٧ - الثقافة والعولة والنظام العالمي	أنتوني كينج	ت : محمد يحيى وآخرون
٢٨٨ - الفن الروائي	ديفيد لودج	ت : ماهر البطوطي
٢٨٩ - ديوان منجوهري الدامقاني	أبو نجم أحمد بن قوص	ت : محمد نور الدين
٢٩٠ - علم اللغة والترجمة	جودج موانان	ت : أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١ - المسرح الإسباني في القرن العشرين ج١	فرانشيسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر
٢٩٢ - المسرح الإسباني في القرن العشرين ج٢	فرانشيسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر

٢٩٣ - مقامة للأدب العربي	روجر آلان	ت : نخبة من المترجمين
٢٩٤ - فن الشعر	يوالو	ت : رجاء ياقوت صالح
٢٩٥ - سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	ت : بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦ - مكبث	وليم شكسبير	ت : محمد مصطفى بدوي
٢٩٧ - فن الفحوى بين اليونانية والسورية	ديونيسيوس ثراكس - يوسف الأهواني	ت : ماجدة محمد أنور
٢٩٨ - مأساة العبيد	أبو بكر تافاوا بليوه	ت : مصطفى حجازي السيد
٢٩٩ - ثورة التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	ت : هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠ - أسطورة برومثيروس مج١	لويس عوض	ت : جمال الجزيري وبهاء جافين
٣٠١ - أسطورة برومثيروس مج٢	لويس عوض	ت : جمال الجزيري ومحمد الجندي
٣٠٢ - فتجنشتين	جون هيتون وجودي جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣ - بوذا	جين هوب وبورن فان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤ - ماركس	ريوس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥ - الجلد	كرودزيو مالابارته	ت : صلاح عبد الصبور
٣٠٦ - الحاسة - النقد الكانطي للتاريخ	جان - فرانسوا ليوتار	ت : نبيل سعد
٣٠٧ - الشعور	ديفيد باينيو	ت : محمود محمد أحمد
٣٠٨ - علم الوراثة	ستيف جونز	ت : معنوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩ - الذهن والمخ	انجوس چيلاتي	ت : جمال الجزيري
٣١٠ - يونج	ناجي هيد	ت : محيي الدين محمد حسن
٣١١ - مقال في المنهج الفلسفي	كولنجوود	ت : فاطمة إسماعيل
٣١٢ - روح الشعب الأسود	وليم دي بوز	ت : أسعد حليم
٣١٣ - أمثال فلسطينية	خاير بيان	ت : عبد الله الجعدي
٣١٤ - الفن كعدم	جينس مينيك	ت : هويدا السباعي
٣١٥ - جرامشي في العالم العربي	ميشيل بروتينيو	ت : كاميليا صبحي
٣١٦ - محاكمة سقراط	أ. ف. ستون	ت : نسيم مجلي
٣١٧ - بلاغ	شير لايموفا - زنيكين	ت : أشرف الصباغ
٣١٨ - الأدب الروسي في السنوات العشر الأخيرة	نخبة	ت : أشرف الصباغ
٣١٩ - صور لريدا	جايتير ياسبيفاك وكريستوفر نوريس	ت : حسام نايل
٣٢٠ - لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٢١ - تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج ١)	ليفى برو فنتال	ت : نخبة من المترجمين
٣٢٢ - وجهات نظر حية في تاريخ الفن العربي	دبليو. إيوجين كلينباور	ت : خالد مقلح حمزة
٣٢٣ - فن الساتورا	تراث يوناني قديم	ت : هانم سليمان
٣٢٤ - اللعب بالنار	أشرف أسدي	ت : محمود سلامة علاوي
٣٢٥ - عالم الآثار	فيليب بوسان	ت : كريستين يوسف
٣٢٦ - المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	ت : حسن صقر
٣٢٧ - مختارات شعرية مترجمة	نخبة	ت : توفيق على منصور
٣٢٨ - يوسف وزليخة	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٢٩ - رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	ت : محمد عيد إبراهيم

٢٢٠ - كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	ت : سامي صلاح
٢٢١ - عندما جاء السردين	ستيفن جراي	ت : سامية دياب
٢٢٢ - رحلة شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	ت : علي إبراهيم علي منوفي
٢٢٣ - الإسلام في بريطانيا	نبيل مطر	ت : بكر عباس
٢٢٤ - لقطات من المستقبل	آرثر س. كلارك	ت : مصطفى فهمي
٢٢٥ - عصر الشك	ناتالي ساروت	ت : فتحي العشري
٢٢٦ - متون الأهرام	نصوص قديمة	ت : حسن صابر
٢٢٧ - فلسفة الولاء	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصاري
٢٢٨ - نظرات حائرة وقصص أخرى من الهند	نخبة	ت : جلال السعيد الحفناوي
٢٢٩ - تاريخ الأدب في إيران ج ٢	علي أصغر حكمت	ت : محمد علاء الدين منصور
٢٣٠ - اضطراب في الشرق الأوسط	بيرش بيربيروجلو	ت : فخري لبيب
٢٤١ - قصائد من رلكه	راينر ماريا رلكه	ت : حسن حلمي
٢٤٢ - سلامان وأبسال	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٢٤٣ - العالم البرجوازي الزائل	نادين جورديمر	ت : سمير عبد ربه
٢٤٤ - الموت في الشمس	بيتر بلانجوه	ت : سمير عبد ربه
٢٤٥ - الركض خلف الزمن	بونه ندائي	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢٤٦ - سحر مصر	رشاد رشدي	ت : جمال الجزيري
٢٤٧ - الصبية الطائشون	جان كوكتو	ت : بكر الحلو
٢٤٨ - المتصوفة الأولون في الألب التركي جا	محمد فؤاد كويريلي	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٢٤٩ - دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والديرون وآخرين	ت : أحمد عمر شاهين
٢٥٠ - بانوراما الحياة السياحية	أقلام مختلفة	ت : عطية شحاتة
٢٥١ - مبادئ المنطق	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصاري
٢٥٢ - قصائد من كفافييس	قسطنطين كفافييس	ت : نعيم عطية
٢٥٣ - الفن الإسلامي في الأندلس (متممة)	باسيليو بابون مالدونالد	ت : علي إبراهيم علي منوفي
٢٥٤ - الفن الإسلامي في الأندلس (نباتية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت : علي إبراهيم علي منوفي
٢٥٥ - التيارات السياسية في إيران	حجت مرتضى	ت : محمود سلامة علاوي
٢٥٦ - الميراث المر	بول سالم	ت : بدر الرفاعي
٢٥٧ - متون هيرميس	نصوص قديمة	ت : عمر الفأروق عمر
٢٥٨ - أمثال الهوسا العامة	نخبة	ت : مصطفى حجازي السيد
٢٥٩ - محاورات بارمنيدس	أفلاطون	ت : حبيب الشاروني
٢٦٠ - أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ت : ليلي الشربيني
٢٦١ - التصحر : التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	ت : عاطف معتمد وآمال شاوور
٢٦٢ - تلميذ باينبرج	هاينرش شبورال	ت : سيد أحمد فتح الله
٢٦٣ - حركات التحرر الأفريقي	ريتشارد جيبسون	ت : صبري محمد حسن
٢٦٤ - حادثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	ت : نجلاء أبو عجاج
٢٦٥ - سأم باريس	شارل بودلير	ت : محمد أحمد حمد
٢٦٦ - نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	ت : مصطفى محمود محمد
٢٦٧ - القلم الجريء	نخبة	ت : البراق عبد الهادي رضا

- ٣٦٨ - المصطلح السردى جيرالد برنيس
٣٦٩ - المرأة فى أدب نجيب محفوظ فوزية العشماوى
٣٧٠ - الفن والحياة فى مصر الفرعونية كليلا لويت
٣٧١ - المتصوفة الأولون فى الأدب التركى ج٢ محمد قزاد كويرلى
٣٧٢ - عاش الشباب واتغ مينغ
٣٧٣ - كيف تعد رسالة دكتوراه أمبرتو إيكو
٣٧٤ - اليوم السادس أندريه شديد
٣٧٥ - الخلود ميلان كونديرا
٣٧٦ - الغضب وأحلام السنين نخبة
٣٧٧ - تاريخ الأدب فى إيران ج٤ على أصغر حكمت
٣٧٨ - المسافر محمد إقبال
٣٧٩ - ملك فى الحقيقة سنيل بات
٣٨٠ - حديث عن الخسارة جونتر جراس
٣٨١ - أساسيات اللغة ر. ل. تراسك
٣٨٢ - تاريخ طبرستان بهاء الدين محمد إسفنديار
٣٨٣ - هدية الحجاز محمد إقبال
٣٨٤ - القصص التى يحكيها الأطفال سوزان إنجيل
٣٨٥ - مشترى العشق محمد على بهزادراد
٣٨٦ - نفاعاً عن التاريخ الألبى النسوى جانيت تود
٣٨٧ - أغنيات وسوناتات جون دن
٣٨٨ - مواظ سعدى الشيرازى سعدى الشيرازى
٣٨٩ - من الأدب الباكستانى المعاصر نخبة
٣٩٠ - الأرشيقات والمدن الكبرى نخبة
٣٩١ - الحافلة الليكية مايك بينشى
٣٩٢ - مقامات ورسائل أندلسية فرناندو دى لاجرانخا
٣٩٣ - فى قلب الشرق ندوة لويس ماسينيون
٣٩٤ - القوى الأربع الأساسية فى الكون بول ديفيز
٣٩٥ - آلام سياوش إسماعيل فصيح
٣٩٦ - السافاك تقى نجارى راد
٣٩٧ - نيتشه لورانس جين
٣٩٨ - سارتر فيليب تودى
٣٩٩ - كامى ديفيد ميروفيتس
٤٠٠ - مومو مشيائيل إنده
٤٠١ - الرياضيات زيانون ساردر
٤٠٢ - هوكنج ج. ب. ماك ايفوى
٤٠٣ - ربة المطر والملابس تصنع الناس تودور شتورم
٤٠٤ - تعويذة الحسى ديفيد إبرام
٤٠٥ - إيزابيل أندريه جيد
٤٠٦ - المستعربون الإسبان فى القرن ١٩ مانويلا مانتاناريس
٤٠٧ - الطب الإسبانى المعاصر بقلم كتبه أقلام مختلفة
٤٠٨ - معجم تاريخ مصر جوان فوتشركنج
٤٠٩ - انتصار السعادة برتراند راسل
- ت : عابد خزندار
ت : فوزية العشماوى
ت : قاطمة عبد الله محمود
ت : عبد الله أحمد إبراهيم
ت : وحيد السعيد عبد الحميد
ت : على إبراهيم على منوفى
ت : حمادة إبراهيم
ت : خالد أبو اليزيد
ت : إيلوار الخراط
ت : محمد علاء الدين منصور
ت : يوسف عبد الفتاح فرج
ت : جمال عبد الرحمن
ت : شيرين عبد السلام
ت : رانيا إبراهيم يوسف
ت : أحمد محمد نادى
ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
ت : إيزابيل كمال
ت : يوسف عبد الفتاح فرج
ت : ريهام حسين إبراهيم
ت : بهاء جاهين
ت : محمد علاء الدين منصور
ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
ت : عثمان مصطفى عثمان
ت : منى الدرويش
ت : عبد اللطيف عبد الحليم
ت : زينب محمود الخضيرى
ت : هاشم أحمد محمد
ت : سليم حمدان
ت : محمود سلامة علاوى
ت : إمام عبد الفتاح إمام
ت : إمام عبد الفتاح إمام
ت : إمام عبد الفتاح إمام
ت : باهر الجوهري
ت : ممدوح عبد المنعم
ت : ممدوح عبد المنعم
ت : عماد حسن بكر
ت : ظبية خميس
ت : حمادة إبراهيم
ت : جمال أحمد عبد الرحمن
ت : طلعت شاهين
ت : عنان الشهاوى
ت : إلهامى عمارة

٤١٠ - خلاصة القرن	كارل يوير	ت : الزواوى بغورة
٤١١ - همس من الماضى	جينيغر أكرمان	ت : أحمد مستجير
٤١٢ - تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج ٢)	ليفى بروفنسال	ت : نخبة
٤١٣ - أغنيات المنفى	ناظم حكمت	ت : محمد البخارى
٤١٤ - الجمهورية العالمية للأدب	باسكال كازاتوفا	ت : أمل الصبان
٤١٥ - صورة كوكب	فريدريش دورنيمات	ت : أحمد كامل عبد الرحيم
٤١٦ - مبادئ النقد الأدبى والطم والشعر	أ. أ. زتشاريز	ت : مصطفى بدوى
٤١٧ - تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٥	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤١٨ - سبيلك الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية	جين هاثواى	ت : عبد الرحمن الشيخ
٤١٩ - العصر الذهبى للإسكندرية	جون ماريو	ت : نسيم مجلى
٤٢٠ - مكرو ميجاس	فولتير	ت : الطيب بن رجب
٤٢١ - الولاء والقيادة فى المجتمع الإسلامى	روى متحدة	ت : أشرف محمد كيلانى
٤٢٢ - رحلة لاستكشاف أفريقيا ج ١	نخبة	ت : عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٢٣ - إسرارات الرجل الطيف	نخبة	ت : وحيد النقاش
٤٢٤ - لوائح الحق ولوامع العشق	نور الدين عبد الرحمن الجامى	ت : محمد علاء الدين منصور
٤٢٥ - من طاروس حتى فرج	محمود طلوعى	ت : محمود سلامة علاوى
٤٢٦ - الخطايا وقصص أخرى من أفغانستان	نخبة	ت : محمد علاء الدين منصور وعبد المهيظ يعقوب
٤٢٧ - باتنديراس الطاغية	باى إنكلان	ت : ثريا شلبى
٤٢٨ - الخزائن الخفية	محمد هوتك	ت : محمد أمان صافى
٤٢٩ - هيجل	ليود سبنسر وأندرجى كروز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٠ - كانط	كرستوفر واث وأندرجى كليموفسكى	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣١ - فوكو	كريس هيروكس وزوران جفتيك	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٢ - ماكيافللى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٣ - جويس	ديفيد نوريس وكارل فلتنت	ت : حمدى الجابرى
٤٣٤ - الرمانسية	دونكان هيث وچوبن بورهام	ت : عصام حجازى
٤٣٥ - توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زيريج	ت : ناجى رشوان
٤٣٦ - تاريخ الفلسفة (مج ١)	فريدريك كويلستون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٣٧ - رحالة هندي فى بلاد الشرق	شيلى النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٤٣٨ - بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بييرس	ت : عايدة سيف النولة
٤٣٩ - موت المرامى	صدر الدين عيسى	ت : محمد علاء الدين منصور وعبد المهيظ يعقوب
٤٤٠ - قواعد اللهجات العربية	كرستن بروسنار	ت : محمد الشرقاوى
٤٤١ - رب الأشياء الصغيرة	أرونداتى روى	ت : فخرى لبيب
٤٤٢ - حثشبسوت (المرأة الفرعونية)	غوزية أسعد	ت : ماهر جويجاتى
٤٤٣ - اللغة العربية	كيس نورستينج	ت : محمد الشرقاوى
٤٤٤ - أمريكا اللاتينية : الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	ت : صالح علمانى
٤٤٥ - حول وزن الشعر	پرويز ناتل خاتلى	ت : محمد محمد يونس
٤٤٦ - التحالف الأسود	الكسنر كوكيرن وجيفرى سانت كلير	ت : أحمد محمود

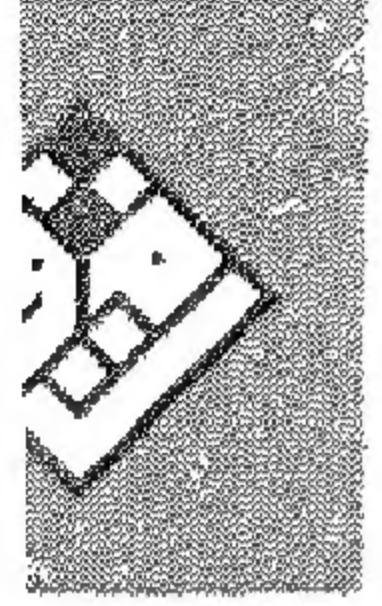
٤٤٧ - نظرية الكم	ج. پ. ماك ايفوى	ت : ممنوح عبد المنعم
٤٤٨ - علم نفس التطور	ديلان ايفانز - أوسكار زاريت	ت : ممنوح عبد المنعم
٤٤٩ - الحركة النسائية	مجموعة	ت : جمال الجزيري
٤٥٠ - ما بعد الحركة النسائية	صوفيا فوكا - ريبكارييت	ت : جمال الجزيري
٤٥١ - الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن / بورن فان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢ - لينين والثورة الروسية	ريتشارد إيجنانزي / أوسكار زاريت	ت : محي الدين مزيد
٤٥٣ - القاهرة : إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	ت : حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤ - خمسون عاماً من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	ت : سوزان خليل
٤٥٥ - تاريخ الفلسفة الحديثة (مج ٥)	فريدريك كويلستون	ت : محمود سيد أحمد
٤٥٦ - لا تنسني	مريم جعفرى	ت : هويدا عزت محمد
٤٥٧ - النساء في الفكر السياسي الغربي	سوزان مولر أوكين	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٨ - الموريسكيون الأندلسيون	خوليو كارو باروخا	ت : جمال عبد الرحمن
٤٥٩ - نمو مفهوم لاقصائيات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
٤٦٠ - الفاشية والنازية	ستوارت هود - ليتزا جانتستز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٦١ - لكان	داريان ليدر - جودي جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٦٢ - طه حسين من الأزهر إلى السوريين	عبد الرشيد الصائق محمودى	ت : عبد الرشيد الصائق محمودى
٤٦٣ - الدولة المارقة	ويليام بلوم	ت : كمال السيد
٤٦٤ - ديمقراطية القلة	ميكايل بارنتى	ت : حصة منيف
٤٦٥ - قصص اليهود	لويس جنزيرج	ت : جمال الرفاعى
٤٦٦ - حكايات حب ويطولات فرعونية	فيولين فانويك	ت : فاطمة محمود
٤٦٧ - التفكير السياسى	ستيفين ديلو	ت : ربيع وهبة
٤٦٨ - روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٤٦٩ - جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	ت : مجدى عبد الرازق
٤٧٠ - الأراضى والجودة البيئية	نخبة	ت : محمد السيد الننة
٤٧١ - رحلة لاستكشاف أفريقيا ج ٢	نخبة	ت : عبد الله الرازق إبراهيم
٤٧٢ - نون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثريانتس سابيدرا	ت : سليمان العطار
٤٧٣ - نون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثريانتس سابيدرا	ت : سليمان العطار
٤٧٤ - الأدب والنسوية	بام موريس	ت : سهام عبد السلام
٤٧٥ - صوت مصر : أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	ت : عادل هلال عنانى
٤٧٦ - أرض العباب بعيدة : بيرم التونسي	ماريلين بوث	ت : سحر توفيق
٤٧٧ - تاريخ الصين	هيلدا هوخام	ت : أشرف كيلانى
٤٧٨ - الصين والولايات المتحدة	ليو شيه تشنج ولى شى لونج	ت : عبد العزيز حمدي
٤٧٩ - المقهى (مسرحية صينية)	لاوشه	ت : عبد العزيز حمدي
٤٨٠ - تساي ون جى (مسرحية صينية)	كو مو روا	ت : عبد العزيز حمدي
٤٨١ - عبادة النبى	روى متحدة	ت : رضوان السيد
٤٨٢ - موسوعة الاساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	ت : فاطمة محمود
٤٨٣ - النسوية وما بعد النسوية	سارة جامبل	ت : أحمد الشامى
٤٨٤ - جمالية التلقى	هانسن روبرت ياوس	ت : رشيد بنحو

٤٨٥ - التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٤٨٦ - الذاكرة الحضارية	يان أسمن	ت : عبد الحليم عبد الغنى رجب
٤٨٧ - الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد أبادى	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٤٨٨ - الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٤٨٩ - هُسرل : الفلاسفة علماءً دقيقاً	هُسْرَل	ت : محمود رجب
٤٩٠ - أسمار اليبغاء	محمد قدرى	ت : عبد الوهاب علوب
٤٩١ - نصوص قصصية من روائع الأدب الأفرىقى	نخبة	ت : سمير عبد ربه
٤٩٢ - محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارجيت	ت : محمد رفعت عواد
٤٩٣ - خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	ت : محمد صالح الضالع
٤٩٤ - كتاب الموتى (الخروج فى النهار)	نصوص مصرية قديمة	ت : شريف الصيفى
٤٩٥ - اللوبى	إدوارد تيفان	ت : حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦ - الحكم والسياسة فى أفريقيا ج١	إكوانو باتولى	ت : مجموعة من المترجمين
٤٩٧ - العلمانية والنوع والنوع فى الشرق الأوسط	نادية العلى	ت : مصطفى رياض
٤٩٨ - النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	ت : أحمد على بدوى
٤٩٩ - تقاطعات : الأمة والمجتمع والجنس	نخبة	ت : فيصل بن خضراء
٥٠٠ - فى طغوانى (دراسة فى السيرة الذاتية العربية)	تيتز روكى	ت : طلعت الشايب
٥٠١ - تاريخ النساء فى الغرب	آرثر جولد هامر	ت : سحر فراج
٥٠٢ - أصوات بديلة	هدى الصدة	ت : هالة كمال
٥٠٣ - مختارات من الشعر الفارسى الحديث	نخبة	ت : محمد نور الدين عبد المنعم
٥٠٤ - كتابات أساسية ج١	مارتن هايدجر	ت : إسماعيل المصدق
٥٠٥ - كتابات أساسية ج٢	مارتن هايدجر	ت : إسماعيل المصدق
٥٠٦ - ربما كان قديساً	آن تيلر	ت : عبد الحميد فهمى الجمال
٥٠٧ - سيدة الماضى الجميل	بيتر شيفر	ت : شوقى فهمى
٥٠٨ - المولوية بعد جلال الدين الرومى	عبد الباقي جلبتارلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٥٠٩ - الفقر والإحسان فى عهد سلاطين المماليك	آدم صيرة	ت : قاسم عبده قاسم
٥١٠ - الأرملة الماكرة	كارلو جولونوى	ت : عبد الرزاق عيد
٥١١ - كوكب مرقع	أن تيلر	ت : عبد الحميد فهمى الجمال
٥١٢ - كتابة النقد السينمائى	تيموثى كوريجان	ت : جمال عبد الناصر
٥١٣ - العلم الجسور	تيد أنتون	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٥١٤ - مدخل إلى النظرية الأدبية	جوتثان كولر	ت : مصطفى بيومى عبد السلام
٥١٥ - من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطى بوجلاس	ت : فدوى مالطى بوجلاس
٥١٦ - إرادة الإنسان فى شفاء الإدمان	آرنولد واشنطنون - ويونا ياوندى	ت : صبرى محمد حسن
٥١٧ - نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨ - استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	ت : هاشم أحمد محمد
٥١٩ - محاضرات فى المثالية الحديثة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٥٢٠ - الولع الفرنسى بمصر من الطم إلى المشروع	أحمد يوسف	ت : أمل الصبان
٥٢١ - قاموس تراجم مصر الحديثة	آرثر جولد سميث	ت : عبد الوهاب بكر

- ٥٢٢ - إسبانيا في تاريخها أميركو كاسترو
٥٢٣ - الفن الطليطلي الإسلامي والمدجن باسيلييو بايون مالدونادو
٥٢٤ - الملك لير وليم شكسبير
٥٢٥ - موسم صيد في بيروت وقصص أخرى نفيس جونسون رزيفز
٥٢٦ - علم السياسة البيئية ستيفن كرول ووليم رانكين
٥٢٧ - كافكا ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب
٥٢٨ - تروتسكي والماركسية طارق علي وفيل إيفانز
٥٢٩ - بدائع العلامة إقبال في شعره الأردى محمد إقبال
٥٣٠ - مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية رينيه جينو
٥٣١ - ما الذي حدث في «حدث» ١١ سبتمبر؟ چاك بريددا
٥٣٢ - المغامر والمستشرق هنرى لورنس
٥٣٣ - تعلم اللغة الثانية سوزان جاس
٥٣٤ - الإسلاميون الجزائريون سيفرين لبا
٥٣٥ - مخزن الأسرار نظامى الكنجوى
٥٣٦ - الثقافات وقيم التقدم صمويل هنتنجتون
٥٣٧ - للحب والحرية نخبة
٥٣٨ - النفس والكفر في قصص يوسف الشارونى كيت دانيلز
٥٣٩ - خمس مسرحيات قصيرة كاريل تشرشل
٥٤٠ - توجهات بريطانية - شرقية السير رونالد ستورس
٥٤١ - هي تتخيل وهلاوس أخرى خوان خوسيه مياس
٥٤٢ - قصص مختارة من الألب النوبلتى الحديث نخبة
- ت : على إبراهيم منوفى
ت : على إبراهيم منوفى
ت : محمد مصطفى بدوى
ت : نادية رفعت
ت : محيى الدين مزيد
ت : جمال الجزيرى
ت : جمال الجزيرى
ت : حازم محفوظ وصين نجيب المصرى
ت : عمر الفاروق عمر
ت : صفاء فتحى
ت : بشير السباعى
ت : محمد الشرقاوى
ت : حمادة إبراهيم
ت : عبد العزيز بقوش
ت : شوقى جلال
ت : عبد الغفار مكاوى
ت : محمد الحديدى
ت : محسن مصيلحى
ت : رؤوف عباس
ت : مروة رزق
ت : نعيم عطية

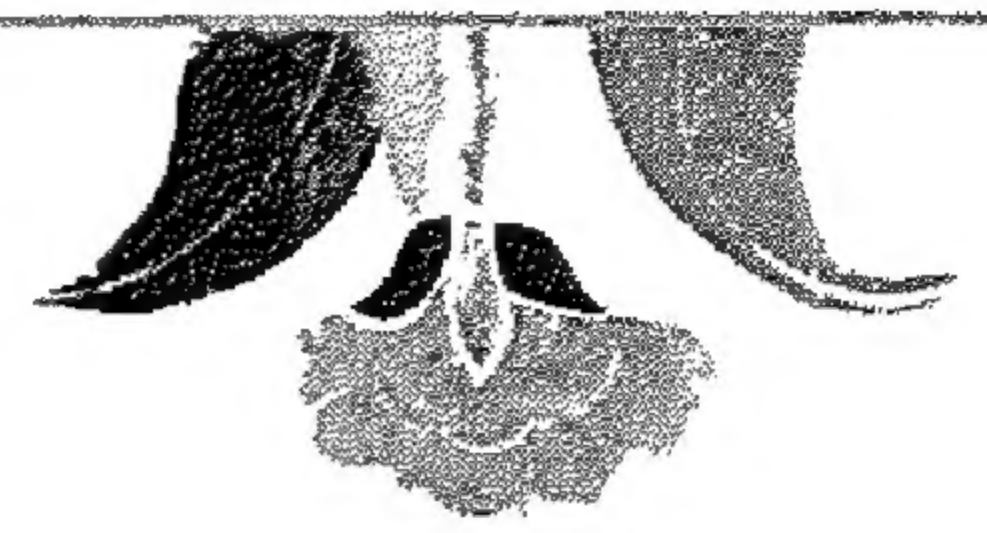
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٩٧٧٢ / ٢٠٠٣



قصص مختارة
من

الأدب اليوناني الحديث



يعتبر هذا الكتاب أول كتاب من نوعه في المكتبة العربية؛ فقد ضم بين دفتيه عدداً وفيراً من قصص الأدب اليوناني الحديث، ترجمت إلى العربية من اللغة الأصلية التي كتبت بها، وهي اللغة اليونانية.

ولا شك أن ترجمة الأدب وسيلة ناجعة في تعريف الشعوب بعضها ببعض، وفي توطيد أواصر الصداقة والمحبة بينها، ومن خلال أعمال عدد من القصاصيين من أبرز أدباء اليونان الحديثة يمكن للقارئ العربي أن يتنسم نسمة من الهواء الطلق تسرى إليه عبر البحر الأبيض المتوسط من بلد له ماضيه التليد في الفن والأدب، ويشق طريقه قدماً لكي يتبوأ مكانته اللائقة في طليعة البلاد ذات النهضة الأدبية، فيصل بعض أبنائه إلى الحصول على أكبر الجوائز الأدبية في العالم، وسيرى القارئ بذلك أيضاً أن الأدب اليوناني لم يعد التراث الإغريقي فحسب.

Bibliotheca Alexandrina



0493540

